I WANTED TO SEE

Borghild Dahl

سيرة ذاتية

أرَدتُ أن أُبصر

بورغيلد دال

ترجمها وقدم لها

ساجد العبدلي



نبذة تعريفية عن الكاتبة ولدت بورغيلد مارغريت دال في 6 فبراير1890 ، في مينيابوليس، مينيسوتا، الولايات المتحدة، لوالدَين نرويجييَن؛ هما بيدير دال وإنغيبورغ هوجسيث .هاجرَ والداها من منطقة ريندال في هدمارك، النرويج، إلى مينيابوليس عام .1880 وعلى الرغم من أن بورغيلد عانت منذ طفولتها من ضعف شديد في الرؤية، إلا أنها امتلكت رغبة عارمة في المشاركة في أنشطة الحياة اليومية، وبمثابرتها نجحت في تحقيق ذلك، وعلى الرغم من ضعف الرؤية لديها، وبعكس ما توقعه الآخرون، أكملت دراستها الجامعية وحصلت على درجة البكالوريوس من جامعة مينيسوتا في عام .1912 وبين عاميّ 1912 و 1922عملت في عدة مدارس ثانوية، وحصلت على درجة الماجستير من جامعة كولومبيا في عام .1923 بدأت مهنة التدريس في قرية صغيرة في وادي توين، مينيسوتا، واستمرت إلى أن أصبحت أستاذة للأدب في كلية أوغستانا في سيوكس فولز، ساوث داكوتا، حيث مارست التدريس هناك لمدة 13 عاما، وألقت محاضرات في أندية المرأة وشاركت في العديد من المحادثات الإذاعية التي دارت حول الكتب والثقافة

قدِمت بورغيلد دال إلى مايو كلينيك، وما لبثت أن أصبحت صديقة شخصية لكلّ من التقاها وعرفها، نجحت كطالبة وكمدرّسة للّغات والأدب، على شدّة ضعف بصرها، وأنفقت على تعليم شقيقاتها وشقيقها، وكان طموحها للنجاح غريزيا، ومدفوعا بإرادة لا تلين طوال سنوات الدراسة التي سبقت استحداث صفوف مخصّصة للمكفوفين واعتماد كثير من التدابير التي باتت متاحة الآن

للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصّة في مدارسنا الأهلية .في ظلّ أوضاع مدرسية غير مسموح بها اليوم حقّقت علامات تخطّت معدّل العلامات المدرسية، وطوال السنين التي أمضتها في الدراسة لم يكن في استطاعتها القراءة ما لم تكن حروف الكتاب كبيرة ويكون الكتاب موضوعا قريبا من عينيها .تحدّثتْ في هذا الكتاب عن أسباب مثابرتها في وجه الظروف المناوئة، باذلة جهودا فاقت جهود أيّ من زملائها، كانت لديها غاية نبيلة .لأنّ هذهِ الحقيقة فطرية، لا تسترسل في الحديثِ عنها .أرادت أن تُبصر، فأيّ كمّ أكبر كانَ لَها أنْ تحقق بذاتِ الدافع والمثابرة مع إمتلاكِ بصرٍ جيّد !في سنواتها الأخيرة صار في مقدورها رؤية أحجار الطوب التي في الجدران والأوراق التي تحملها الأشجار، وعرفت أخيرا معنى امتلاك رؤية واضحة بعد سنوات من تلمّس الطريق في الضباب المُعتم .لكنْ ليس هذا هو سبب تأليف هذا الكتاب .تُخبر الآنسةُ دال قرّاءها بعبارات واضحة كيف حققت النجاح رغم فقدانها البصر .وهي تُخبر المدرّسين والأطبّاء والعمّال الاجتماعيين بكيفية النجاح في تعاملهم مع الأطفال المُعاقين .إنّها تدرّس المدرّسين .كانَ ذاك هو طموحها .وهذا الكتاب هو منجزهاصاحب-مقولة د .وليام بنيديكتصاحب -مقولة رئيس قسم طبّ العيون، عيادة مايو كلـ ...تا، الولايات المتحدة الأمريكية



الفصل الأول

انتهى فصلُ الصيف الدراسيّ في الكلّية التي كنتُ أدرّس فيها، وذهبتُ إلى روشسْتر لأفحص عينَيّ .كان قد مضى على تردّدي على عيادة مايو كلينيك عشرون عام، وكان الطبيبان، اللذان قد دأبا على العنايةِ بعينَيّ، صديقَين مقربين مني .وعادة ما كانا يرغبان في تبادلِ الحديث معي، وسؤالي عن سيرِ أحوالي العمَل.

لكنّني هذه المرّة فطنتُ على الفور إلى حدوثِ خطْب ما .إذْ ما أنْ حدّق الطبيب بنيديكت في عينَيّ حتّى لاذ بالصمت، ثمّ أمسك بذراعي وقال سنذهب إلى مكتب الدكتور برانْغين.

تركاني وحدي بضع دقائق، فجلستُ وتساءلتُ عمّا قد حدَث .لقد كنتُ بالطبع على معرفةٍ بأنّ بصري ضعيف جدا .كنتُ أبصر بعين واحدة فقط، وكانت مغطّاة بندوب عميقة إلى حدّ أنّه كانَ يتعيّن عليّ النظر من خلال فتحة صغيرة واحدة تقع يسار عيني .لقد كان يمكنني، مثلا، قراءة كتاب ما، شريطة أن أقرّبه إلى وجهي وأُجهِد عيني قدر إستطاعتي بتحريكها صوب اليسار .مع ذلك، لم أسمح لحالة عينيّ بالحولِ بيني وبين أغلب ما أردتُ القيام به .لقد عشتُ حياة نافعة سعيدة ومفعمة بالنشاط، هذا على الرغمِ من حقيقة أنّ قوة بصري — كما كنتُ قد سمعتُ ذات مرّة الدكتور بنيديكت يُخبرُ الأخصّائي الكبير في طبّ العيون الدكتور فوخ في فيينا — هي 60/4 فقط، علما بأنّ الأشخاص الذين لديهم قوة بصر 60/6 يُعدّون مكفوفين.

كان في ذهني دائما شعورٌ كامنٌ بالخوف من العمى التام .وبغية التغلب على هذا تبنّيتُ نظرة مرحة، بهيجة تقريبا، إزاء الحياة .وفي خضمّ الصراعِ الذي كانَ يدور

بإستمرارٍ بيني وبين عينَيّ، كنتُ متيقنة حقا بأنّي قد حصلتُ على أفضل ما يمكنني الحصول عليه منهما، وبأنّهما كانا بالكاد يُشكّلانِ مصدر إزعاج لي.

لكن عندما جلستُ في مكتب الدكتور برانْغين، استحضرتُ كلّ الحوادث التي كنت قد مررتُ بها بإستمرار مؤخّرا في بلدتي سِيوكس فولز :التعثّر بالمطبّات والحجارة الواقعة على الدرب التي كنت أسلكها كطريقٍ مختصر إلى المدرسة، حيثُ كنتُ أصل متأخّرة إلى حصصي الدراسية؛ التكلّم إلى أشخاص غير من قصدتُ الحديث معهم بين الحشود في وسط المدينة عند جادّة فيليبس؛ تحطيم عددٍ كبير جدّا من أفضل أطباقي في المنزل إلى حدّ أنّني، لشدّة قرفي، اشتريت مجموعة أطباق ثقيلة زرقاء وبيضاء للاستخدام اليومي.

عادا إليّ الطبيبُ بنيديكت والطبيب برانْغين؛ وحين شرع الطبيب بنيديكت في الحديث كانت نبرته جدّية للغاية وصوته متوتّرا وغير طبيعي.

»هناك إعتام في عدسة عينك«، شرحَ لي الوضع،» ويتعيّن إزالته .لكن ستُصاحب هذه العملية مخاطر كبيرة .عندما أبدأ بإجراء الجراحة لعينك، فإنّه لا يمكن التكهن بأيّ شكلٍ من الأشكال، بما قد أجده هناك أو بما سيحصل للعينِ أثناء القيام بإزالة إعتام العدسة.«

وقف الدكتور برانْغين وشابّ، لم أكن أعرفه، بجانب مقعدي .كان باستطاعتي سماعه وهو يتنفّس، بدا نفسٌ يأزّ كما جهازٍ طنّان، غير أنّ أحدا لم يأبه له.

»عودي إلى منزلك في سِيوكس فولز«، واصل الدكتور بنيديكت حديثه قائلا، » ورتّبي أوضاعك هناك .وعندما تجدين أنّكِ فقدت بصرك تماما، عودي إلينا وسنرى ما الذي بأيدينا تقديمه من أجلك.«

ساد صمت قاتل.

»بغضّ النظر عما سيحدث، يا بورغيلد «قال الدكتور بنيديكت، بعد برهة وجيزة،» فإنّي متأكّد من أنّكِ ستتحلَّين بالشجاعة الكافية لتواصلي«. . .

وسألَت السيدة سيم حين انضممت إليهم في الردهة" :هل كلّ شيء على ما يرام؟."

قدِم الزوجان سيم من هارموني برفقة شقيقتي دوروثي، وكنّا ننوي قضاء نزهة معا في منتزه مايو.

أجبتها على عجل" :أجل ...لكن لنأكل، فأنا أتضوّر جوعا."

قالت دوروثي بنبرة متفائلة" :ربّما لن نحتاج إلى العودة إلى العيادة مدّة طويلة بما أنّ عينيك باتتا على أحسن ما يرام."

لم أحاول الردّ.

توجّهنا بالسيارة إلى المنتزه مباشرة.

قالت آنّا سيم» :تبدين متعبة، لِمَ لا تتمدّدين على الأريكة هنا وترتاحين بضع دقائق بينما نرتّب أغراضنا؟ غطِّ وجهك بقبّعتي، أمسكي – هذا أفضل .أنا أعرف

تماما كيف يكونُ إحساسك بعد فحص عينيك .إن ذلك يسبّب صداعا لي بقيّة يومي.«

لكنّني لم أستطع الجلوس ساكنة على الأريكة. وما أن عادت آنّا إلى السيارة حتى نهضتُ ومشيتُ معتمدة على نفسي.

عمياء .عمياء .عمياء.

أغمضتُ عيني لأتبينَ كيف سيكون العالم بعد أن أفقد بصري، لكنّي عندما فتحتها مرّة أخرى أدركتُ بأنّ ما كنتُ أراه وهي مفتوحة لا يزيد كثيرا على ما كنتُ أراه وهي مغمضة.

بما أنني كنت في المنتزه فقد سهُل عليّ أنْ أستنتجَ بأنّ كلّ ما هو أخضر من حولي إنما هو أعشاب وأشجار وشجيرات، لكنّ التمييز بينها لم يكن سهلا عليّ أبدا، كما أنّي لم أكنْ قادرة على البتّ فيما إذا كانت الألوان الزاهية الواقعة على مسافةٍ بعيدةٍ عنّي، أزهارا أم ثيابا صيفية لزوّار المنتزه .لا بدّ أنّ البقعة الضوئية الضخمة التي على يميني هي صالة عيادة مايو، فيما البقع الضوئيّة الأصغر حجما عائدة إلى المنازل المحيطة بالمنتزه .والخطوط الملوّنة التي تتخلّل اللون الأخضر هي دروب أو ممرّات، والأشياء البعيدة اللامعة سيارات، كان المشهد بأكمله ضبابيا، وأدركت في الحال المعنى الكامل لما كانَ الدكتور بنيديكت قد أخبرني بهِ .لقد كنتُ لا أرى أيّ شيء فعليا.

حاولت طوال حياتي أن أتقبّل، دون تذمّر، ما قد خبّأه لي القدر، وأنْ أطرحَ جانبا إحساسا بالتوقِ إلى إمتلاكِ عينين حادّتي البصر وصافيتين قادرتينِ على الرؤيةِ

كتلك العيونِ التي للآخرين .كنت أقول لنفسي بأنّ لدى الناس الآخرين مشكلات أخرى .مشكلتي أنا كانَت عينَيّ.

إنّما لم يكن بإمكاني أن أبصرَ على الإطلاق!

وبقدر ما تُسعفني الذاكرة عرفت أنّني مختلفة عن الأطفال الآخرين وأنّ عينيّ سبب هذا الاختلاف .لم أعد ذلك مصيبة على وجهِ الخصوص، وإنّما هو أمر موجود في هذه الحياة، ويجب القبول به بقدر ما كان يتعيّن على صديقتي الصغيرة ثيلما أن تبذل كلّ ما تستطيع للتغلّب على عجزها عن تذكّر أيّ شيء مدّة كافية لتتعلّم الألعاب التي كنّا نلعبها معا ونحن أطفال في الحيّ.

أعتقد أنّني وُلدت بسجيّة سعيدة بشكل طبيعي .قالت لي أمّي :إنّني كنت طفلة جيدة .كانت حياتي مفعمة بمغامرات مشوّقة إلى حدّ أنّني لم أكن أستطيع النوم مخافة أن يفوتني منها شيء .ولطالما قالت لي أمّي بأنّها إعتادَتْ أنْ تقلق بشأني لأنّها كانَتْ عاجزة عَن فهمِ الوقتِ الذي كنتُ أنام فيه .وما من مرّة جالت فيها على غرف نومنا في الليل لتتأكّد من إنّ أطفالها على ما يرام إلا ووجدَتني مستيقظة.

كانت تسألني" :لِمَ لستِ نائمة؟."

"لم أستطع، وحسب."

"لكن لِمَ؟"

"كنتُ أمضي وقتا مسلّيا للغاية."

كانت تسأل بفضول" :تتسلّين؟ ماذا تفعلين؟."

"مجرّد لهو بأشياء."

كنتُ أعيش في عالم خياليّ بعد أن أُوْضَع في السرير .إنّ كلّ شيءٍ كنتُ قد تعلّمته خلال النهار – أشياء كانَ الناسُ قد قالوها لي أوّ تفوّهوا بها إلى آخرين بحيث إنّها توارَدَتْ إلى مَسمعي، أو كلماتٍ قرأها عليّ الناس، أو أيّ شيء كنتُ قد تمكّنتُ من ملاحظَتِهِ بنفسي – كانَ يعاودني ليلا .كنتُ أضع كلّ هذه الأشياء في طاحونة مخيّلتي وأصنع منها لنفسي مغامرات مُدهشة .وكنتُ أنا دائما الفاعل الرئيسيّ لهذهِ المغامرات .أحيانا كانَ سريري يمسي قاربا يأخذني عبرَ البحر إلى أيّ مكانٍ في العالم أريد أن أكون فيه .وكانَ يُمسي أحيانا أخرى قلعة تقطنها أميرة من الجِنّ، وكنت أنا الأميرة الجِنّية .أحيانا، كانَ سريريّ قاعة كبيرة أنا فيها المؤديّة، وأسلبُ لبّاب جمهورٍ ضخم بموسيقاي وبكلماتي الرفيعة .في بعضِ الأحيان، كانَ سريريّ كتابا ضخما أطالع فيه قصصا من اختراعي .وفي أحيانٍ أخرى كنتُ أجدُ نفسي في الجنّةِ أقومُ، برفقة الملائكة الآخرين، بزيارة الله.

وكلّما كبرت إزددتُ غرقا في أحلامي؛ لكنّها غدت أكثر معقوليّة أيضا بعدما تعلّمتُ كيف أفهم طرائقَ الكبار وما يقولونه.

ألبستني أمّي أجمل ثيابي في أحد الأيام .وابتهجتُ لأنّي كنت سأخرج في نزهة.

قالت لي أمّي ونحن في الترام" :نحن ذاهبون لرؤية رجل لطيف يُدعى الطبيب بِنديك."

لم يكن قد سبق لي أن سمعت باسم هذا الطبيب، غير أنّه كانت هنالك أمور كثيرة في عالم الكبار لا أعرف عنها شيئا .الرحلة في الترام استحوذت على كلّ اهتمامي.

وصلنا إلى مبنى ضخم حيث رحّب بنا رجل أبيض الشعر متجهّم الوجه .تصرّف كما لو أنّه كانَ يعرف أمّي، وبدتْ أمّي وكأنّها على معرفةٍ به؛ لكنّ الجانب الغريب من المسألة هو أنّه بدا وكأنّه يعرف من أكون أنا أيضا.

»لقد تحسّنت حالتها أكثر بكثير مما كنتُ آمل«، سمعته يقول لأمّي،» إنّها تُبصر بالقدر الكافي لتكون على ما يرام بعد العملية، أليس كذلك؟«

أكّدت أمّي ذلك قائلة» :أجل، الأمور تسير معنا على خير ما يرام.«

أعطاني الطبيب بنديك رزمة صغيرة، فتحتُ أغلفتها على الفور .وفيما كنت منشغلة بذلك تحدّث مع أمّي بصوت خفيض إلى حدّ أنّني لم أسمع من حديثهما شيئا .وبعد مشقّة فتحتُ الرزمة، فوجدت في داخلها قطعة محلاة مُستدير ومسطَّح بحجم قطعة نقدية معدنية من فئة الإثني شلن تقريبا.

نظر الطبيب بنديك في عيني من خلال نظّارة غريبة الشكل، وقال كلاما عن غسل عيني بالماء الساخن متى تعبت، وعن المحافظة على ما بقي فيها من قدرة الإبصار.

بيّنت لي أمّي في طريقنا إلى المنزل أنّ الطبيب بنديك طبيب عيون يتابع حالتي، فأحسست بالفخر الشديد لإمتلاكي طبيب عيون بما أنّني لم أكنْ أعرف أحدا ما لديه مثل هذا الطبيب.

بعد ذلك باتت أمّي تُكثر من اصطحابي لزيارة الطبيب بنديك .وكنت أخجل كثيرا من إعلامه بمدى اعتزازي بكونه طبيبي، لأنّه بقي كثير الصمت ومتجهّما مع أنّه واصلَ إعطائي قطعة حلوى في كلّ مرّة كنتُ أذهبُ فيها لرؤيته.

لا بدّ وأنْ تكون قد مضت سنوات عديدة على زيارتي الأولى للطبيب بنديك، حين قالت لي أمّي ذات يوم بأنّنا ذاهبون لزيارةِ طبيب عيوني مرّة أخرى .استغرقت الرحلة بالترام وقتا أطول بكثير من المعتاد هذه المرّة؛ وعندما نزلنا من المركبة قالت أمّي بأنّنا في مدينة سان بول، وأخبرتني بأنّنا في طريقنا لرؤية الطبيب بوكمان .سيكون الطبيب الذي يعتني بعينيّ الآن .لم أفهم كيف استطاعت أمّي أن تجد لي هذا العدد الكبير من أطبّاء العيون، لا سيّما أنّني كنت الوحيدة التي لديها طبيب عيون على أيّ حال.

كان الطبيب بوكمان رجلا أضخم وأكثر مرحا من الدكتور بنديك .لقد نظر، هو الآخر، في عيني مستخدما نظّارة غريبة الشكل.

سمعته يقول متعجّبا» :يا إلهي، يا لها من أعجوبة«!

أخذني نحو آلة ضخمة وجلس ونظر فيها من أحد جوانبها، ونظر إليّ خلسة من الجانب الآخر .لم أتمالك نفسي من الضحك لأنّه لم يسبق أن مارست هذه اللعبة الغريبة من قبل .عندما كنّا قد إنتهينا من ذلك، ربَتَ الدكتور بوكمان على رأسي، وقبّلني.

عقب زيارتي لطبيب العيون الجديد اشترت لي أمّي نظّارة، كانت ثقيلة جدا وذات حوافّ ذهبية جميلة ساطعة .كنتُ في منتهى السعادة .لبس النظّارة كانَ أمرا

أروَع من إمتلاكِ طبيبيّ عيون .إذْ لم يكن بين الأطفال الذين كنت ألهو معهم من يضع نظّارة.

اعتبرت أمّي أنّها في شكلٍ من أشكالِ الشَراِكة معي فيما كنت أتعلّم كيف أكيّف نفسي مع العالم الغريب الذي وِلدتُ فيه، مع أنّ عينيها كانتا داكنتين وجميلتين وبصرها مثالي .لذلك بدا أنّ إعاقتي لم تكن تعنيني أنا وحدي .عندما كانت تحاول أمي تعليمي كيف أرتدي ثيابي بنفسي – كيفَ أدخل عددا لا يُحصى من الأزرار في عدد لا يُحصى من العُرى، والتي كانتْ دائما تبدو صغيرة في قميصي الداخلي، وسروالي، والتنّورة، وباقي ثيابي وأحذيتي – كانت دوما تتكلّمُ كما لو كنّا نقوم بالأمر سويّة .وعلّمتني بعدها كيف أمرّرُ أصابعي على الأزرار صعودا ونزولا لأتأكّد من أنّها جميعا في أماكنها.

كانت عملية تزرير حذائي أصعب شيء تعلّمته .فالحلقات المستديرة السوداء اللامعة، المثبّتة إلى الجلد بواسطة حلقتين معدنيتين صغيرتين، كانَت تتمايل، بحيث إنّها كانت دائما تُفلت من أصابعي حينَ أحاول شدّها من خلالِ العرى الواقعة على لسانيّ فردتيّ الحذاء.

وفي إحدى المرّات، فيما كنت جالسة على الأرضية، محنية بحيث كانَ أنفي يلامسُ حذائي، علق مشبك الزرّ المعدني بالجفن السفلي لعيني السليمة .فهرولْتُ إلى أمّي فيما كانت المسكة متدليّة على خدّي.

قالت أمّي بهدوء" :لا تلمسيه، سأخرجه في غضون دقيقة."

أجلستْني على كرسيّ، وأمسكت، وهي جاثية أمامي، برأسي بإحدى يديها وسحبت المشبك باليد الثانية .ثمّ أحضرت وعاء ملأته بماء ساخن من المطبخ، وغسلت عيني ومسحتها بقطعة قماش ناعمة فيما كنت أجلس على مقعد بجانب كرسيّها.

»عينك لا تؤلمكِ، أليس كذلك؟«، سألتني بعد وقت وجيز وهي تجفف وجهي بمنشفة.

أجبتها» :لا.«

قالت» :حمدا لله«

ثمّ أجلستني في حضنها وبيّنت لي أنّ عليّ أن أتأكّد دائما من إمساكي بمشبك الحلقة بإحكام بوساطة المسكة المثلّثية لوجود طباعة تجعل الجلد خشنا بحيث لا ينزلق الرباط بسهولة من يدي .وشرحت لي بوضوح كيفية وضع الطرف الآخر، الناعم الملمس والحادّ مثل إبرة معقوفة، حول حلقة حذائي بإحكام، ثمّ سحبه أسفل ثقب الحلقة قبل أن أحاول شدّ الحلقة عبر الثقب بوساطة مشبك الحلقة .لقد جعلتني أتمرّس على القيامِ بهذه العملية مرّة تلو مرّة، حتى، أخيرا، لم تعد الحلقات اللامعة المستديرة السوداء، رغم تمايلها، تتملّصُ من المشبك، وكنتُ قادرة على سحبها بسهولة من خلال العرى على لسانيّ الحذاء.

خلالَ عملية تعلمي لطريقةِ تثبيت دبوس الأمان، وضعتُ يدي أسفل يد أمّي وقمنا بالحيلة معا، وتمكنتُ من أنْ أتلمّس، عوضا عن أنْ أرى، طريقة التثبيت . وباعتماد طريقة اللمس ذاتها تعلّمت كيف أفتح قفل حقيبتي، وكيف أفتح الصنبور في المغسلة، وقفل البوّابة الأمامية، وباب فرن المطبخ، وباب الثلاّجة .

وعلّمتني أمي أيضا كيفية تحديد مكان ثقب المفتاح في الباب الأمامي بيدي اليسرى، وإدخال المفتاح في القفل بيدي اليمنى .وتفقّدنا كلّ مقابض الأبواب في منزلنا الكائن في مينيبوليس وفي منزلنا المطلّ على البحيرة؛ وذلك للتأكّد من معرفتنا أماكنها وكيفية إدارتها .يدا بيد أدخلنا جوارير خزانتي في أماكنها، مع حرصنا على تحديد مواضع الأخاديد أولا؛ وفي البحيرة ثبّتنا المجاذيف بأقفالها قبل محاولة تثبيتها بالقارب .ربّما كان كلّ شخص آخر يعتقد بداهة بأنه قد تسنى لي أنْ أتعلم مثلما تعلّم أيّ طفل آخر، لكنّ أمّي كانَت أكثر معرفة بحقيقة المشكلة، فعلّمتني بتؤدة إلى حدّ أنّ أحدا، حتى أنا شخصيا، وقتئذٍ لم يكن ليدرك جدوى الأعمال التي كانت تدرّبني على تأديتها.

وحين كبرتُ باتت تُمضي وقتا أقلّ في مساعدتي في حلّ كلّ مشكلة خاصة، لكنّها كانت تشجّعني على أن أحلّها بنفسي، وعلى أن أقوم بالأعمال بمفردي إذا كنت قادرة على ذلك.

"تعلّمي كيف تعتمدين على نفسكِ"، عبارة كانت تردّدها مرارا إلى حدّ أنّ صبري كان ينفد أحيانا.

وأذكر أنّ ليتي، البنت الصغيرة بجوارنا، دعتني إلى منزلها لتريني صندوقا موسيقيا جديدا كانَ قد أُهديَ إليها في عيد ميلادها.

»ارتدي مئزرا نظيفا ثمّ اذهبي«، فقالت لي أمّي.

كان للمئزر الذي أردت ارتداءه أربطة عريضة مشدودة إلى الكتفين، فهرعت إلى أمّي على الفور لتربطها لي.

قالت لي وهي تُخرِج قطعة دونات منفوشة من الزيت الحارّ" :لكنّكِ تعلّمتِ في الأسبوعِ الماضي كيفية شدّ الأربطة."

اعترضتُ قائلة" :أجل، لكن لم يسبق أن ارتديت مئزري بنفسي."

أجابت وهي تعيد المقلاة إلى المطبخ لتعود إلى حيث كنت واقفة» :شدّ العقدة على المئزر لا يختلف في شيء عن شدّ العقدة ذات الشريط.«

اعتقدتُ أنها إعتزمَتْ أن تُلبسني مئزري فأعطيته لها.

»لا، سنقوم بالأمر معا«، قالت» .لِمَ لا تحاولين شدّ العقدة أوّلا ثمّ ارتداء المئزر؟.«

بدأتُ أتصارع مع الأربطة، وسرعان ما تشابكت، وأصبحَت مُتيبّسة .لكنّني نجحتُ آخر الأمر في شدّها بنفسي.

قالت أمّي متجاهلة ارتخاء الرباط» :هذا جيّد، لنحاول الآن شدّ الثاني.«

كانت العملية أيسر بكثير.

قالت لي أمّي وهي تَربِت على كتفي» :كنتُ أعرف بأنّك تستطيعين القيام بذلك، وربّما ستصعدين السلّم الآن لإحضار مئزرك الزهري اللون، أعتقد بأنّي أفضّل، نوعا ما، أن ترتديه عندما نذهب إلى منزل هيلينا اليوم.«

في غضون دقيقة عُدتُ حاملة المئزر الزهري الذي فيه أربطة مشدودة إلى الكتفين على نحو مشابه تماما للمئزر الأزرق الذي أحضرته أوّلا.

قالت لي أمّي في ابتسامة مشجِّعة» :الآن، دعينا نرى إلى أي مدى نحنُ قادرتان على شدّ هذه الأربطة.«

شددتُ رباطَي المئزر الزهري من دون مشكلة، ومضيت إلى منزل ليتي لنلهو بالصندوق الموسيقيّ الجديد .ولم أحتج إلى مساعدة في ارتداء أيّ مئزر بعد ذلك.

بما أنّني عُلّمت كيفية الاعتناء بنفسي داخل المنزل، صار بمقدوري اللعب خارجه مع أطفال في مثل سنّي دون أن أكون عبئا عليهم .عندما لا يكون أحد موجودا، كنت أحبو على يدَيّ وركبتَيّ لأدنو من الأرض ما يكفي لأنْ أرى ما كانَ قد رسمه الأطفال في لعبة المربّعات) الحجلة(. وسرعان ما صار في مقدوري أيضا رسمها على الرمل، سواء الأشكال الهندسية الخاصّة بلعبة المربّعات العادية أو الأشكال الخاصّة باللعبة التي يسمّونها المربّعات الأفعوانية، وسهُل عليّ بعد ذلك تعلّم اللعبتين .لكن إذا كانت الأرضية جافة جدا، تصبح الأشكال قاتمة، لذلك كنت أدعو كي تُمطر ليتسنّى لي رؤية الخطوط على الرمل بوضوح كاف لأُلقي الحجر إلى مربّعه المناسب.

راقبتُ الآخرين وهم ينطّون الحبل، فعدت مسرعة إلى المنزل ومارست اللعبة بنفسي .تعثّرتُ وعلقت في الحبل باديء الأمر، وعانيت من بعض السقطات المؤلمة، لكنّني اكتشفت أن الغناء يعينني على حفظ إيقاع دوران الحبل .حاولت القفز أمام الباب الأمامي والباب الخلفي، وصرت مستعدة أخيرا للانضمام إلى زملائي في اللعب .لكنّني لاحظت أنّه عندما يدير شخص آخر الحبل، لم يكن في استطاعتي رؤية الحركة بسرعة لأقفز في اللحظة المناسبة عندما يكون تحتي، وبما أنّ الأطفال لا يتبعون النمط ذاته في تدوير الحبل، فإنّي كنت أتعثر دائما .ثمّ

ادّعيت بأنّي أفضّل أن أكون أحد من يديرون الحبل، وبما أنّه لم يكنْ هناك أحد لديه اهتمام خاصّ بهذه المهمّة، فإنّني نلت شعبية كبيرة بسبب ادّعائي هذا.

اشتريتُ أكبر لعبة جاكس كانَ يمكنُ الحصول عليه من متجر لبيع الحلوى في ركنِ الشارع، وحرصت إبقاءِها ملمّعة لأنّه بالإمكان رؤيتها بسهولة أكبر على هذا النحو .كان قلّة من رفاقي يملكون لعبة جاكس فاخرة كهذه، ولم يعوزني يوما شريكا في هذه اللعبة .وعندما كانوا يقترحون لعبة الدومينو كنت أنتظر بحذر لأعرف إن كانت القطعة التي ستُستخدم تحوي نقاطا حمرا أو زرقا أو بيضا على خلفياتها السود .فإذا كانت النقاط حمرا أو زرقا، كنتُ أقول بأنّي لا أرغب في اللعب، لأنّي كنتُ أعرف بأنّه سوفَ لن يكونَ بإستطاعتي الرؤية بوضوح يكفي لأشاركهم اللعبة .وإذا كانت بيضا، قضيت وقتا مسلّيا، مع أنّني لم أكن أرى سوى القطع الأقرب إليّ، وكانَ يجب عليّ التخمين في البقيّة.

بعد أن كنتُ قد حصلتُ على مزلجتين لامعتين في الكريسماس، بقيت ألعب بهما في المنزل طوال أسابيع قبل أن أغامر باللعب بهما خارجه .اعتدت على ملمس كل جزء فيهما، وتعلّمت كيف أُدخل قدمَيّ فيهما دون النظر إليهما .ثمّ صرت مستعدّة للانضمام إلى الأطفال الآخرين في بركة التزحلق في عقار شاغر في الجوار، كانَ رجال الإطفاء، العاملون في محطة منطقتنا، قد ملأوه بالماء .وجمع والدي كومة من الثلج في فناء دارنا الخلفيّ، وكنت أستطيع توجيه زلاّجتي فوقها لأنّي كنتُ أعرف كلّ نتوء على سطحها .لكنّني كنتُ أخشى محاولة القيام بالتزحلق على التلّة العالية الشديدة الانحدار حيث كانَ الصبيان والبنات الأكبر سنّا يتزحلقون بكثرة إلى حدّ أنّ المسارات كانت تتغيّر باستمرار.

مارستُ لعبة الغمّيضة، وإجري أيتها الأغنام إجري، وقاعدة السجين، والمطاردة واللمس، ولعبة الإثنان الأخيران . . إنطلقا، وألعاب الجري الأخرى مع الأطفال في حيّنا بمدينة مينيبوليس، وكنت أُعدّ عدّاءة جيّدة جدّا .وعادة ما كنّا نلعب في فناء دارنا أو في فناء دار أحد الجيران، أو في المنتزه المقابل للشارع أو في ملاعب مجمّع أوغزْبورغ الذي يبعد مسافة شارع عنّا .كنت أعرف تماما طبيعة الأرض في كلّ هذه الأماكن، وكنت أستطيع المشي فيها وأنا مغمضة العينين، لكن إذا ما مورستْ الألعاب في أماكن لا آلفها، فإنّي أجبن في الحال وأنزوي وأنسحب من اللعبة.

أمضيت أجمل أوقاتي المسلّية في طفولتي في منزلنا الصيفي على بحيرة مينيتونكا . يقع منزلنا بجانب شاطئ البحيرة، وكنّا، نحن الأطفال، نلعب في الخارج من بداية فصل الربيع إلى آخر فصل الخريف .كانت الأزهار تنمو بشكل تلقائي في كلّ مكان، وكذلك الأشجار والنباتات المثيرة للانتباه .وكان أبي قد غرسَ بالقرب من المنزل أشجارا من نوعِ البتولا، وأشجارا دائمة الخضرة، والسنديان والزيزفون والدردار الأميركي .وكان هناك بالقرب من الطريق بستان نمَتْ فيه أشجار التفاح والنخيل والكرز، وكنّا في طفولتنا نأكل ثمارها قبل نضجها بوقت طويل .وبعيدا بمحاذاة المنحدر الجنوبيّ كانت ثمة مزرعة عنب ذات مساحة كبيرة، وعلى السهول قربَ البحيرة أراضٍ من الفراولة وتوت العلّيق والتوت الأسود والكشمش والزبيب وحديقة جميلة مليئة بالخضروات .وفي الجانب الأمامي للمكان مروج خضراء على شكل مصاطب تمتدّ نزولا نحو البحيرة .وكانت تنتشر فيها مشاتل أزهار كانَتْ فيها النباتات تزهر طوال فصل الصيف.

علّمنا والدي السباحة ونحن أطفال .وكانت أمّي تقول بأنّي لم أكن قد تجاوزت السنتين عندما شاهدتني أقومُ بضرباتِ السباحة الأولى من ذراعيّ .ربّما بالغتْ في القول بقصد تشجيعي، مع أنّني أصبحت سبّاحة ماهرة قبل أن أتقدّم كثيرا في السنّ .وتعلّمتُ استخدام المجذاف أيضا عندما كانت يداي أقصر بكثير من أن تصلا إلى جانبي القارب.

صحبني الكبار من أفراد أسرتي مرّات عديدة لصيد السمك، لكنّني كنت مصدر إزعاج شديد إلى حدّ أنّهم عمدوا إلى تركي في المنزل بعد ذاك .أعتقد أنّ قلّة اهتمامي ترجع إلى حقيقة أنّه لم يكن بإستطاعتي رؤية العوّامة الطافية فوق سطح الماء .كنتُ أصابُ بالغثيانِ من عملية تجهيز صنّارتي بطعوم اليرقات أو الديدان، ولقد تطوّعت للقيام بذلك لمن في القارب، غير أنّه كانَ أمرا مسببا للإحباط أنْ أجلسَ وأشاهد الأسماك الجيدة تُسحَب سمكة تلو أخرى إلى داخِلِ القارب دون الشعور بالإرتياح من معرفة أنّي كنتُ أنال ما يساوي لقمة واحدة.

كما أنّني لم آبه كثيرا لمبنى اللعب الصغير الذي كانَ قد بُنِيَ على شاطئ البحيرة خصيصا لنا نحن الأطفال .ربّما كانَ سبب ذلك يعود إلى أنّني لم أكنْ أجد مُتعة للعب بالدُّمى .وما من مرّة قصدت فيها المسرح إلاّ وأقمتُ في الطابق العلوي . وهذا يعني الجلوس جثوا على ركبتَيّ فوق السقف الأحمر الذي كنت أصل إليه عبر التأرجح لدخول النافذة المفتوحة والخروج نحو الجزء السفلي من المنحدر الشديد الميلان على السقف .وإذا كان لديّ سلّم، فإنّي أحضر معي القليل من الصلصال ولوحا رقيقا وأصنع مربّعات من الجبنة والزبدة، وكعكات مُزيّنة متعدّدة الطبقات بإستخدامِ الصلصال، ثم أبيعها لمدبّرات المنزل المقيمات في

الأسفل .وفي المناسبات النادرة التي كنت أبقى فيها في الطابق الأسفل، فإنّ المكانَ كانَ سرعان ما يتحوّل إلى صفّ مدرسي أو مسرحا، وكان زملائي في اللعب يُصبحونَ تلامذتي أو أعضاء فرقتي التمثيلية.

كنت أتسلّق أعلى جذوع الأشجار الباسقة أيضا .واعتدت خلع حذائي وجواربي لتسهيل عملية التسلّق، وتعلّمت كيفية التعرّف على التنويع الشكليّ لكلّ شجرة، بتلمّس جذوعها بواسطة باطن قدمَيّ العاريتين .وكانت هناك شجرة زيزفون مفضّلة لديّ، واقعة على حافّة التلّة المطلّة على البحيرة، وغالبا ما كنت أذهب إلى هناك لأفكّر وأحلم.

لم تكن أمي تفصح لي عما إذا كانَ يُصيبها قلق بسبب تسلقي الأشجار؛ بل كانت تخاطب جميع الأطفال لتنبيههم إلى أيّ خطر معيّن قد نواجهه ونحن نلعب.

حثّتني برفق ذات يوم وقالت" :ستتوخَّين الحرص الشديد، أليس كذلك؟."

سُمح لي باللعب قرب البحيرة مع الأطفال الآخرين أيضا .لقد أمضيت معهم في هذا المكان أوقاتا مسلّية كثيرة في الحفر في الرمال والخوض في المياه الضحلة على أطراف البحيرة .وكنّا نرطّب الرمل كي تلتصق حبيباته ببعضها ثمّ نقولبه على شكلٍ منازل في مقاطعاتِنا .وكنّا نغرس أغصان الصفصاف في الأرض لتكون شتلات أشجار، ونقطف الزهور البرّية المنتشرة في جانب التلّ ونزرعها في حدائقنا .وكانت الممرّات تُرصف بالقواقع، وجعلنا أصداف المحار على هيئة مقاعد فضيّة .وكنّا نستخدم الألواح التي كانَت الأمواج قد قذفتها على الشاطيء على أنّها قوارب، والحجارة الصغيرة على أنها ركّاب وبحّارة .وإذا أسقطت موجةٌ

عالية كلّ من فوق الألواح إلى البحر، فإنّنا كنّا نغرف كومة جديدة من الحصى اللامعة تحت أشعّة الشمس في المياه الصافية، وننطلق في رحلة بحرية أخرى.

كانت الكروكيت لعبة مفضّلة لدى الصغار على ضفاف البحيرة .بشدّ قطع القماش البيضاء على جوانب الأقواس، يصبح في مقدوري اللعب أيضا، مع أنّني كنت أتخلّف عن الباقين عادة .لكنّ هذا لم يُضعف اهتمامي باللعبة، وكنت ألعب متى سنحت لي الفرصة؛ أي عندما لا يكون هناك كثير من اللاعبين الماهرين في استخدام الكرات والمضارب الخشبيّة .وفي إحدى المناسبات الرائعة تطوّع شخص للوقوف قريبا من الأقواس عندما يجيء دوري، وبدا هذا أكثر عونا لي من قطع القماش البيضاء، وفي إحدى هذه المناسبات تفوّقت على الجميع في اللعبة .وبما أنّني لم أكرّر هذا الفوز القياسي بعد ذلك، فالاحتمال الأغلب أنّها كانت محض ضربة حظ إستثنائيّ .ولم أكن أُبلي بلاء حسنا في لعبة الحدوات لأنّني مهما تأنّيت في التهديف عند رمي الحدوة، لم تكن لتعلق بالعصا .فالعصا رفيعة وبعيدة جدا، ولم يبدو عليّ بأنّي كنتُ قادرة على تقدير المسافة بالشكل المناسب .وكنت فاشلة تماما في جميع ألعاب الكرة، ما عدا الكرة الليّنة، حين كان يتم ترديد إيقاع لتقدير الوقت عند ارتداد الكرة عن الملاط :واحد، اثنان، أربط حذائي.

ثلاثة، أربعة أوصد الباب.

خمسة، ستّة، ألتقط العصيّ.

سبعة ثمانية، ضعها بشكل مستقيم.

رغم أنّ أمّي كانت تعلّمني بتأنٍّ، وبرغم اهتمامي بما كان يدور من حولي، إلّا إنّها كانَ من الصعب عليّ التنسيق بين ما كنتُ أراه فعلا وما كان الناس يتحدثون عنه، كوني استقيتُ أغلب ما تعلّمته من قنواتٍ أخرى غير عينَيّ.

وأذكر بوضوح الإلتباس الذي كان موجودا في ذهني من كلمة تابوت.

تُوفّيت شقيقتي عندما كنتُ في السادسة تقريبا .حصل ذلك في فصل الشتاء الذي كان يجلب لنا نحن الأطفال الصغار أمراض الحصبة، والسعال الديكي، والخناق .في الوقت الذي ماتت فيه روث كنتُ وشقيقتي أستر نتماثل للشفاء، لكنّا بقينا ضعيفتين، ولم ننزل إلى الطابق السفلي إلاّ في أثناء الجنازة .حملني والدي كي أتمكّن من رؤية روث وهي ممَدَّدة في ما دعاه بالنرويجية.«kiste»

لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتى تُوفّيت السيدة ويلز؛ المرأة التي كانت تسكن بجوارنا، وانطلقت جنازتها من بيتها .رأيت من نافذة غرفة الجلوس في بيتنا عددا من الرجال وهم يحملون شيئا ما بدا في نظري وكأنّه لحاف ملفوف – أسود اللون وذو حاشية زاهية اللون .قالت لي شقيقتي أولغا وهي واقفة بجانبي :إنّه كفن السيدة ويلز، وإنّ جثمانها موضوع فيه .لم تكنْ هناك أدنى صلة في ذهني بين ما كنت أخاله لحافا أسود والصندوق الأشبه بسرير أبيض الذي كانَت شقيقتي روث قد أُضجِعَتْ فيه.

التحقتُ بالمدرسة في السنة التالية .وفي أحد الأيام أوائل الخريف كنت أمشي وزميلتي ألما عائدتين إلى المنزل لتناول الغذاء وقت الظهيرة عندما قالت لي ألما بأنّ ترى ثوب حداد على باب المنزل الذي نمرّ بقربه.

»شخص ما ميّت هناك«، علّقت ألما بأسلوب ناضج،» وسيكون هناك كثير من الأزهار الجميلة .لندخل.«

قلتُ لها بأنّي لا أستطيع لأنّ أمّي كانَت قد منعتني من دخول منزل أيّ كان من دون إذنها.

قالت ألما بثقة» :كلّ ما سنطلبه هو إلقاء نظرة على الرفات .هذا ما يُفترض بكِ قوله عندما تودّين إلقاء نظرة على شخص ميت .وسنخرج بعد ذلك مباشرة . هيّا، سنجد لديهم ورودا حقيقية أتوا بها من المشتل.«

ورود حمر من المشتل، لم أرَ مثلها من قبل إلاّ في جنازة روث، كما أنّني لم أكن قريبة كفاية لألقي نظرة فاحصة عليها أو لألمسها .أذعنتُ لها بعد إصرارها، وانعطفنا عند البوّابة .قرعت ألما الجرس ففتحت امرأة في منتصف العمر الباب وأرشدتنا نحو صالة استقبال رحبة وباردة وقد أُغلقت ستائرها بإحكام .أمسكتُ بيد ألما عندما تعثّرت بالورود التي غطّت الطاولات والكراسي وكانَتْ مُلقاة على الأرض .لكنّ عبق الورود الكثيف سبّب لي دوارا، ورأيتُ بشكلٍ باهت في أحد أركان الصالة شابّة ممدّدة، ويداها موضوعتان فوق صدرها في صندوق أبيض على شكل سرير أشبه بالصندوق الذي وُضِعت فيه شقيقتي روث وسمّاه والدي «Kiste».

»تابوتها أنيق فعلا«، قالت ألما بهدوء، ونحنُ نسير نحو الشارع مرة أخرى.

لم أُفاجَأ مُطلقا من عدم رؤيتي للتابوت، لكنّني حدستُ بدرجةٍ كبيرةٍ مكانه في الغرفة .ربّما كان قد وُضع على الأرضية وسط الأزهار ليكون جاهزا لمواراة جثمان السيدة حينَ يُحمل إلى خارج المنزل.

وبعد ذلك صرت وألما ندخل كلّ منزل ترى ثوب حداد على بابه؛ وكنّا نطلب من كلّ من يفتح لنا الباب أن يسمح لنا بإلقاء نظرة على الرفات .خلال هذه الزيارات، شاهدنا رضيعا صغيرا لم يعش بعد ولادته سوى سويعات؛ صبيا صغيرا آخر قالَت عنه ألما بأنّه كان منتفخا إلى ضعف حجمه الطبيعي تقريبا لإصابته بداء الاستسقاء؛ مسلولا كان قد أطلقَ عليه الأطفال الهيكل العظمي الحيّ؛ ورأينا شقيقة إحدى زميلاتنا في الغرفة وقد تُوفّيت بعد أن صدمتها عربة ترام .جميع هؤلاء الموتى مسجونَ في صناديق تشبه الأسرّة محاطة بصفوف من الأزهار في غرف باردة خافتة الإضاءة حيث كنت أمسك بيد ألما في أثناء دخولنا إليها .وفي كلّ مرّة كانت ألما تعلّق بعد خروجنا على جمال التابوت .أردتُ أن أسألها إن كانت جميع تلك التوابيت سودا مع حوافّ زاهية اللون مثل التابوت الذي سُجّيت فيه السيدة ويلز، لكن خشيتُ أن تضحك عليّ لإبدائي جهلي بالأمر، لذلك لم أسأل.

ثمُ تُوفّي السيد سيفرسيتِن العجوز .لقد كان أحد جيراننا الأقرب إلى منزلنا، وبالطبع، ذهبنا، أنا وألما، لإلقاء نظرة على رفاتِهِ .كانَ السيد سيفرسيتِن مُسجى في صندوق يشبه السرير كصندوق روث تماما، عدا أنّه كان أسود اللون وكبير جدّا، بحيث أنّه كانَت هنالك تلال من الزهور فوقه .كانت الستائر مفتوحة جزئيا في صالة الاستقبال والغرفة حسنة الإضاءة .فعرفتُ على الفور أنّ هذا التابوت من نوع التابوت الأسود الذي سُجّيت فيه السيدة ويلز .ما كنتُ قد اعتقدتُ بأنّه

حافّة ملوّنة كان في الواقع أزهارا زاهية الألوان .وأخيرا، أدركتُ بأنّ كلمة Kiste كانَت تعني بالنرويجية ما تعنيه كلمة coffin بالإنكليزية.

كانت هنالك كلمات وعبارات أخرى تصيبني بالحيرة، وبما أنّي كنت أشعر بالإحراج من عدم معرفتي لكلّ ما كان الآخرون جميعا على معرفةٍ به، فقد مضت أشهر، بل وسنوات، أحيانا، قبل أن أتعلّم المعاني الحقيقية لبعضٍ منها.

ذهب شقيقي الأكبر سنّا، أوسكار، إلى البحيرة ذات مساء لملاقاة ضيفة قدِمتْ من مينيبوليس بالقطار .كان الوقت متأخّرا، ولذلك أخّرنا العشاء حتى الساعة الثامنة.

قالت أمّي للضيفة عند وصولها» :لا بدّ وأنّك تتضورين جوعا.«

أجابَتْ الضيفة بمرحٍ» :لا ...لقد مضغت العلكة وأنا في القارب.«

كنتُ قد صعدت زورقنا مئات المرّات، لكنّي لم أرَ قط أيّ علكة فيه .لقد خلصتُ إلى أنّ هذه المسألة أيضا كانت شيئا قد فاتني .وبما أنّ الظلام لم يُطبق بعد، جريت نحو شاطئ البحيرة بأسرع ما يمكنني وركبت القارب بلهفة .انبطحت على بطني، وألصقتُ وجهي بجانبَي القارب وقعره، وتلمّست بيدَيّ بتأنّ أسفل المقاعد وفوق المجذافَين الممدَّدين في مؤخّرة القارب .بل وقشرتُ بعد الطلاء الخارجي من مقدّمة القارب، والذي ما كدتُ أنْ أضعه في فمي، ظنّا منّي أنّه ربّما يكون علكة، حتى بصقته حالما تذوقته .لم يكن لديّ أدنى شكّ بأنّ ضيفتنا، مهما كان قد بلغ بها الجوع، فإنّه يستحيل أن تكون قد تناولَت شيئا من هذا الطلاء.

أوشكت على البكاء عندما أوقفت بحثي عن العلكة في القارب .وجريت باتجاه التلّة وتسلّقتها من الجهة الخلفية بالقرب من الطريق حيث لا يراني أحد ويعرف ماذا كنت أصنع.

حصلت حادثة أخرى عندما كنت فتاة صغيرة جدا، وقد أربكتني، بل أقلقتني كثيرا.

في أحد أيام الصيف غرق رجل كان يعيش في الريف على مسافة ميل من منزلنا، وقال الناس بأنّه كان قد عجز عن إنقاذ نفسه رغم أنّه كان سباحا ماهرا، لأنّه كان يتعاطى المُسكرات .وسرَت أحاديث كثيرة عن النهاية البشعة التي كانت قد أوصلته إليها أخيرا سنوات معاقرته الخمر، ولقد أعرتها آذانا صاغية .من بين الأشخاص الذين سمعتهم يتحدّثون عن المأساة جارة صالحة تقيّة للرجل المتوفَّى.

»آمل أنّ يكون السيد' بي 'قد رأى خطاياه مرّة أخيرة قبل غرقه في الماء«، قالت والدمع يفيض من عينيها،» وحظي، بالتالي، بفرصة ليتوب وينال خلاصه.«

بعد غرق السيد بي صرت أنظر خلسة من حولي متى ذهبت للسباحة لأعرف إن كان في مقدوري العثور على أيّ شيء ربّما يكون أحد خطاياي .في إحدى المرّات، فزعت من كومة أعشاب نهرية التفّت حول ساقيّ، وبعثت نبتة زنبق وسمكة ميتة طافيتين بقربي القشعريرة في جسدي .فقط لو كانت لديّ فكرة عن شكل الخطيئة، لكان سيكون من الأسهل لي أن أرى واحدة، كما كنتُ أعتقد.

بما أنّ نظري كان ضعيفا أفزعني كلّ أمر لا آلفه إذا دنا منّي من دون إنذار، لم أستطع ادراك الأشياء بلمحة واحدة كالأطفال الآخرين، ولهذا السبب كان ينتابني خوف رهيب من القطط، فيما لم أكن أخشى الكلاب على الإطلاق.

عندما يقترب منّي كلب، فإنّه يُشعرني بوجوده بنباحه أو زمجرته أو نفَسه أو شمّه .وفي المناسبات النادرة التي لا يحذّرني فيها بهذه الإشارات، فإنّ وقع أرجله أو حركة ذيله تُشعرني بوجوده .لكنّ الحال ليست كذلك مع القطة .فهي تتسلّل بلا صوت ثم تقفز أمامي فجأة .إنّها لا تموء، أو تُطلق صوتا يُمكنني سماعه، إلاّ بعد أن تكون قد ملأتني رعبا.

حاولتْ أمّي تخليصي من مقتي للقطط، مصرّة على أنّها لن تؤذيني .وكانت تلمسها لتُريني كم هي لطيفة، وكانت تتوسّل إليّ لأمسدها أنا أيضا .غير أنّني كنت تعيسة طوالَ فترة تواجدها قريبا منّي، ولقد يئست أمّي أخيرا من إقناعي بحبّها.

عندما نال والدي عقدا لإعادة تعيين مساحة مقاطعة هينيبِن بمينيسوتا، وظّف عددا كبيرا من الرجال الذين أقاموا في معسكرات أثناء إنجاز العمل .عضّت هرّة برّية أحد هؤلاء المسّاحين في إحدى الغابات، وما لبث أن مات بداء الكلَب .ربّما أكون قد سمعتُ الكبار يتحدّثون عن هذه الحادثة المأساوية، إذ بدا بأنّي إزددتُ خوفا من القطط بعد أنْ وقعَت.

وبعد ذلك بسنوات، وفي أمسية حالكة السواد، رمى أحد الظرفاء عليّ قطّة كبيرة، لعلمه بخوفي من القطط .فأحسستُ بمخالبها منشبة في فستاني الرقيق وفي ظهري، وسمعتها تموء وهي تصعدُ نحو رقبتي .فركضتُ مسافة طويلة قبل أن

يتمكّن أحدهم من الإمساك بي وتخليصي منها .منذ ذلك الحين وأنا أرتجف خوفا من الحيوانات.

عندما كان خالي إينوش يقيم في دارنا وهو على مقاعد الدراسة في كلّيّة الطبّ بجامعة مينيسوتا، سمعته يقول ذات يوم بأنّه كانَ قد أخذ بعضا من أدمغة القطط إلى غرفتِهِ وبأنّها محفوظة في كحول الخشب .وكانت تفوح رائحة قوّية من الكحول، لكنّي كنتُ أعتقد بأنّها رائحة أدمغة القطط .وبعد بضعة أسابيع أصبت بنزلة برد سبّبت لي ارتفاعا في درجة الحرارة، ففركت أمّي جسمي بقطعة بلّلتها بالكحول .في تلك الليلة، راودني كابوسٌ رأيتُ فيه عيونَ قططٍ خضراءَ تحدّق بي في العتمة.

منذ ذلك الحين ما من كابوس مررت به إلاّ رأيت فيه قططا .وفي بعض الأحيان كانت بلا رؤوس، تحوم في دوائر مدوِّخة فوق رأسي، وكانت، أحيانا أخرى، تعذّبني بجريها نحوي وقفزها عليّ.

لم يكن سهلا على أمّي إبقائي حسنة الملبس كبقيّة الأطفال في عائلتي لأنّي كنت شقيّة في اللعب إلى حدّ أنّني كنت أوّل من تبلى ثيابه .وفي الليلةِ التي سبقت إنتقالنا من منزل البحيرة، اضطّر والدي إلى وضع لبادات كرتونية في حذائي لأتمكّن من لبسها في البلدة .وهذا ما كان يحصل بغضّ النظر عن عدد الأحذية التي كنت ألبسها في الموسم.

في الأمسيات الشتوية كانَ والدي ينسج على ماكينة الحياكة سيقان جوارب لجميع الأطفال، وكانَت امرأة عجوز تُكملُ الجزء المتعلّق بأصابع القدم والكعب، بحياكتها يدويا .كنتُ أزوّد بعدة أزواج إضافية من الجوارب، لكنّي كنتُ أغدو،

قبل وقت طويل من قدوم الربيع، بلا جوارب، واضطر إلى لبْس جوارب صوفية جاهزة الصنع، إلى أن يصبح الطقس دافئا بما يسمح بارتداء جوارب قطنية.

كنتُ أحمل حجارة وأصدافا ومكعّبات لعبة المربّعات وحليّا رخيصة، وأتسبب في إحداث ثقوب كبيرة في جيوبي في الوقت الذي تكون فيه ثيابي ما تزال جديدة، وفي النهاية تكون أمّي مُجبرة على صنع جيوب زائفة لثيابي.

كان أثَرُ التسلّق على ثيابي شديدا أيضا .وقد سبّب لي السياج الفاصل بين فنائنا وفناء جيراننا، عند البحيرة، حوادث مؤسفة كثيرة .لقد اعتدت صعود الأسيجة عوضا عن المشي حولها وصولا إلى البوّابات، وكانت قضبانها تخترق تنانيري دائما وتُحدث فيها ثقوبا كبيرة .وذات مرّة، فقدت توازني وسقطت لكنّني بقيت معلَّقة من معطفي الصغير .وكان زميلي راغْنهيلد ينتظرني في الجانب الآخر من السياج فجاء لإنقاذي .لم أُصب بأذى، لكنّ معطفي تلف.

وعندما كبرت كلّفتني أمّي بغسل ثيابي وتهوئتها وكيّها كشقيقاتي الكبيرات .وكنتُ أمضي جلّ عصر يوم السبت في كيّ ثنْيات تنانيري، وكان يُتوقَّع منّي أيضا إصلاح ثيابي إذا كان نظري يُسعفني في أداء ما يلزم؛ وإلاّ كان عليّ طلب المساعدة لأداء ما أعجز عن القيام به.

كثيرا ما كانت تقول أمّي» :لا عذر لأحد أنْ لا يعتني بمظهره.«

عرفتُ كثيرا من قصص الروايات الإسكندنافية الكلاسيكية قبل وقت طويل من تعلّمي القراءة .وحكت لي أمّي حكايات هانز كريستيان أندرسن، وأسبيورنْسن وموي، وبيورنستْيرن بيورنْسون .وكانت قصص" الحمقى الثلاثة"، و"صبيّ

سعيد ''و''البطّة الصغيرة البشعة ''هي القصص المفضَّلة لدي .لستُ متأكدة ما الذي كان في قصة» الحمقى الثلاثة «الذي يجعلها تشدّ اهتمامي، عدا أنّها كانت سخيفة للغاية .ولا يزال بمقدوري سماع أمّي فيما كنّا نحن الصغار نُنهي الجملة الأخيرة ضاحكين» :وعندما جاء الرجل الفقير إلى المنزل، كانت زوجته تزرع الملح.« وفي حكاية» صبيّ سعيد«، تعاطفتُ مع أويفيند لأنّني كنت شخصيا مولعة بالأكل .غير أنّ حكاية» البطّة الصغيرة البشعة «هي التي تركت أعمق الأثر في نفسي .إنّ قصّة التغيّر الذي حصل للبطّة البشعة وحوّلها إلى وزّة جميلة أفلحت في بثّ الأمل في نفسي بحصول معجزة مماثلة لي، ذات يوم، لها أنْ تغيّر عينَيّ لأصبح مثل الناس الآخرين.

أحببتُ سماع أمّي أيضا وهي تحكي لنا نحن الأطفال قصصا حقيقية عن جدّتي في النرويج .فقد جعلتني أمّي أشعر أنّ جدّتي كانت امرأة مُدهشة، فأصبحتْ بطلتي، كراعوث في الإنجيل ومارثا واشنطن .وأخبرتنا أمّي ونحن أطفال عن ذهاب جدّتي إلى الغابة واقتلاعها لجذور شجيرات كانت تنمو فيها بشكلٍ طبيعي، وقطفها للتوت، وكيف كانت تصنع من هذه الجذور وحبّات التوت أصباغا لتحويل لون صوف الخراف من الرمادي إلى تدرّجات رائعة باللون الأحمر والأزرق والأخضر والبنّي .وإذا ما شردت بقرة عن باقي القطيع، كلّ ما كان يلزم جدّتي فعله هو تقطيع قطعة قماش لتجفيف الصحون، عائدة إلى صاحبة الأرض التي كانَت البقرة قد لجأت إليها، إلى قطع صغيرة، ورشّ الملح عليها، وقراءة تعويذة لا يعرفها أحد سواها، ثمّ إطعام البقرة ذلك الخليط؛ وكانت البقرة ستعود إلى القطيع في الحال، وتتبع البقرة التي في عنقها جرس بحيث لا تشرد بعد ذلك أبدا) .لم أعرف سوى في وقت متأخّر جدا أنّ الملح هو سبب عودة البقرة إلى قطيعها .(كما تحلّت

جدّتي بقوّة خارقة في السيطرة على الذئاب التي كانت تجوب الجبال في أوستيردالين، لا سيّما في فصل الشتاء .بل إنّ الذئاب التي كانت تهجم قادمة من فنلندا آثرت عدم إيذاء أيّ من خراف القطعان العائدة إلى مقاطعة هوغْسيث، مهما ابتعدت الخراف هائمة عن موطنها .في حين كانت الذئاب تفتك بأعداد كبيرة من الخراف العائدة إلى مزارعين آخرين في الجوار وتلتهمها.

رأت جدّتي ذات يوم شبحا حقيقيا .كان روح امرأة قتلت نفسها قبل بضع سنين . سبّب ذلك لجدّتي ذعرا شديدا إلى درجة أنّها ابتهلت إلى الله، بدون أدنى تفكير، ليحميها، وفي هذه اللحظة اختفى ذلك الشبح .لكنّ جدّتي ندمت لاحقا، لعدم سؤال الشبح، لاحتمال أنْ تكون من وراء زيارته لها غاية مهمّة.

لم تكن جدّتي تعرف القراءة ولا الكتابة؛ لكنّها كانت تنشد ترانيم كتاب التراتيل اللوثرية كلها مهما طالت مقاطعها، وحفظت عن ظهر قلب أدعية كانت من الطول بحيث أنّ تلاوة إحداها كان يستغرق نصف ساعة أو أكثر .وفي كلّ سنة كانت تبيع عُشْر الخراف وأفضل أصناف حليب الأبقار لديها وتتبرّع بثمنها للإرسالية الصينية .وكانت كثيرة الاهتمام بالمناطق الأجنبية، مع أنّها لم تغادر يوما الوادي الذي عاشت فيه، وعندما سافرت أمّي إلى أميركا خطّطت جدّتي للّحاق بها بعد بضع سنين .لكنّها مرضت وماتت، فلم يتسن لها أنْ ترى العالم الخارجي أبدا.

اعتاد والدي تسليةَ الأطفال بالقصص أيضا .وكان يحكيها لنا في ساعات الصباح من يوم الأحد، حيث كان يجلس واضعا أصغرنا على ركبته، فيما يلتفّ الآخرون حوله عند أدنى مسافة ممكنة .أغلب حكاياته مسجوعة، وكان يقصّها الواحدة

تلو الأخرى دون توقّف .وتحكي إحداها عن إمبراطور صيني ذاب في شحمه لأنّ حرارة الشمس في الصين حامية جدّا .وتحكي أخرى عن قزم يعيش تحت شلاّل . وتصف أخرى مآثر ملك نرويجي عظيم قُتل على متن سفينته" أورمين لانج ." وبعد ذلك قصّة عن" نيوت الحكيم "الذي يستطيع معرفة المستقبل والتنبّؤ بما سيحصل للناس .ولأنّه كان يتحتم على رأسه أنْ يستوعب كثيرا من الحكمة، فإنّه لم يكن في مملكة النرويج بأسرها قبّعة أو قلنسوة كبيرة بما يكفي لتناسب رأسه.

كنت فتاة صغيرة السنّ حين تمنّيت أن يأتي يوم أزور فيه أرض الجنّ الخيالية هذهِ في أقصى الشمال التي كان والداي قد جاءا منها.

في تلك السنين الأولى علّمتني أمّي مبادئ ديني كاملة في المنزل .وتحدّثت عن الله، كما لو كانت تعرفه خير معرفة، وغرست فينا، نحن الأطفال، الشعور نفسه . أيحبّ الله هذا؟ هل سيغضب بسبب ذلك؟ كنّا نجيء إلى أمّي بأسئلةٍ من هذا القبيل باستمرار .كانت تحكي لنا قصصا من الإنجيل كلّ مساء حين تضعنا في أسرّتنا، ومن ينبغي له أنْ يخلع ثيابه أولا كان له الحقّ في تحديد القصة التي ستُروى .حكت لنا أمّي تلك القصص بلغة سهلة ومشوّقة إلى حدّ أنّها زرعت في ذهني صوَرا محدَّدة عن كلّ شخصياتها، وكنت متأكّدة، رغم شدّة ضعف بصري، من قدرتي على التعرّف عليهم في الجنّة إذا ما دخلتها يوما.

بعد أن نهجع ليلا، كانت أمّي تتلو صلواتها دائما بصوتٍ مسموع .تجلس حانية رأسها ضامّة يديها بالقرب من سرير أصغرنا، وتقرأ بصوت خفيض وواضح بحيث يمكننا جميعا سماعه .واعتدت اختلاس النظر من خلال يديّ المضمومتين لأنظر إليها لأنّي ظننتُ أنّها جميلة جدّا .كانت ترتدي أثوابا منزلية

أنيقة مرقّطة باللونين الأسود والأبيض مع أكمام مشدودة وطوق أبيض أجعد مثبّتْ من الأمام بدبّوس ذهبي كبير، ومريلة نظيفة مربوطة عند خصرها .وفي بعض الأحيان كانت تتلو أدعية من عندها، ثم تُدرج فيها أيّ مناجاة خاصّة تُريد قولها لله .غالبا ما كانت تذْكرني في أدعيتها الخاصّة هذه وتسأل الله أن يمنحني بصرا جيدا يمكّنني من عيش حياة نافعة وسعيدة وأداء الأعمال التي قدّرها لي .لا أذكر أنّني تأثّرت بهذه الابتهالات، لأنّها كانت تقولها بهدوء وثقة إلى حدّ أنّ دعاءها لي كان طبيعيا كسائر أدعيتها بشأن أمور أخرى إلتماسا لما كان أشقّائي وشقيقاتي بحاجةٍ إليه .كانت أمي أحيانا تكرّر صلاة من صلواتها الطويلة التي كانَت قد تعلّمتها من أمّها، وكنّا كأطفال نُصغي بانتباه شديد، لأنّ تلك الصلوات كانت على ذاتِ الدرجة من التشويق التي للقصص الخيالية أو الحقيقية عن جدّتي في النرويج.

وعندما كان يبلغ بنا النعاس مبلغه إلى الحدّ الذي نُصبحُ فيه بالكاد قادرين على تلفّظِ نصف الكلمات، فإنّنا نردّد معا الصلاة التي تعلّمناها من أمّنا :الآن أُغمضُ عينَيّ

يا إلهي الذي في الأعالي.

تولاّني بحفظك.

منَ الخطيئةِ، مِنَ الأسى، من الخطر

يحرسني ملاكك

مَن قد هدى خُطاي اليومَ.

آمين.

كانت صلواتنا وشعائرنا الدينية باللغة النرويجية، وكانَ لديّ انطباعٌ بأنّ تلكَ اللغة هي لغة الله .علّمتنا أمّي القراءة بالنرويجية قبل التحاقنا بالمدرسة الأهلية ليتسنّى لنا تلقّي دروسنا أيام الأحد بكتبنا النرويجية .قالت لي بعد أن كبرت بأنّها تشعر بالقلق لعجزي عن الرؤية بوضوح كافٍ يمكّنني من القراءة، ولذلك أمهلتني وقتا أكثر من الآخرين قبل أن أشرع في دروسي باللغة النرويجية.

وجدتْ في أحد الأيام بأنّها لم يعد في وسعها تأجيل محاولة تعليمي أكثر من ذلك . فأحضرت من مكتبة في الزاوية كتابا صغيرا غلافه بنّي اللون، وأمسكتني من يدي وقادتني إلى كرسيّ هزّاز من الخيزران عند النافذة المُشرفة في غرفة الجلوس .ثمّ فتحت الكتاب البنّي الصغير عند الصفحة الأولى.

سألتني وهي تضع الكتاب أمامي» :أتساءل بأي درجة من الوضوح ترين هذه الحروف؟.«

حملتُ الكتاب بكلتا يدَيّ ودفنتُ وجهي فيه ضاغطة أنفي على صفحاته بحيث أصبحت عيني التي أرى بها أسفل الحرف الأوّل مباشرة .ثم وضعت الكتاب في وضع مائل، جاعلة الحرف أقرب إليّ وبزاوية تسمح بسقوط الضوء عليه.

قلت بعد أن عدّلتُ وضعية جلوسي" :هذا حرف' أي."'

قالت أمّي وهي تشجّعني" :جيّد .هل يمكن أن تقولي لي ما هو الحرف الذي بعده؟."

أجبتها" :الحرف' بي."'

قالت أمّي" :تابعي."

قرأت وأنا أحرّك رأسي فيما كنتُ أهجّئ كلّ حرف" :سي، دي، إي، أف."

ومع انتهاء السطر حرّكتُ رأسي نحو يسار الصفحة من جديد وثبّت عيني أسفل صف الحروف التالي مباشرة .وواصلت بهذه الطريقة إلى أن قرأت حروف الأبجدية كلّها، ولم أكن أرفع أنفي عن الصفحة إلاّ للانتقال من سطر إلى آخر.

قالت أمّي وهي تأخذ الكتاب منّي" :أنتِ تحفظين حروف الأبجدية بإتقان، والآن، يجب أنْ نحاول التعرف على كلّ حرف حين نصادفه على الصفحة .تناولي الكتاب واقرئي بصوت عالٍ حروف أوّل كلمة ترينها."

أمسكتُ بالكتاب بإحكام أيضا ودفنتُ وجهي فيه .رأيت صورة صبيّ يمدّ عظمة لكلب كان بجانبه يتوسّل من أجلها، ورأيت صورة هرّة تحمل فأرة بمخالبها .بدأتُ من دون التوقّف عن تهجئة الكلمات بقراءة الجمل القصيرة المطبوعة أسفل كلّ صورة، وتملّكتني الإثارة إلى حدّ أنّني لم أتوقّف إلى أن أنهيتُ الصفحة.

سألتني أمّي بصوت خفيض وهي تشير إلى صفحة أبعد تضمّ صورة لصبيّ يسقط من شجرة" :ماذا يحكي الكتاب عن هذا الصبيّ؟."

قرأتُ عن صبيّ شقيّ ترك المدرسة وهرب من منزله وتوجّه نحو الغابة .وبعد أن توقّفتُ ولم أسمع منها ما يجب علي فعله بعد ذلك، نظرتُ إليها مستفهمة .سقط شيء رطب على خدّي وأمسكت أمّي بمنديلها ومسحت بها خدّها وخدّي.

سألتني" :وهذه؟."

كانت قصّة عن فتاة صغيرة اسمها إيمّا، وكانت تأبى تناول الحساء الذي أعدّته أمّها للعشاء لأنّها لم تحبّه .وفي اليوم التالي تناولت إيمّا الحساء بشهيّة وقالت أمّها إنّه نفس الحساء، كانت إيمّا جائعة هذه المرّة. فقالت أمّها :كلّ الطعامِ يُصبحُ مُستطابا حين يكون المرء جائعا.

قالت أمّي بابتسامة" :أعتقد أنّكِ ترَين فعلا ما تقرأينه."

ومن دون أن أنتظر أخذها للكتاب منّي هذه المرّة، قلّبتُ الصفحات إلى أن وصلت إلى صورة أسرة تجمّعت حول شجرة عيد الميلاد .دافنة وجهي في الكتاب من جديد، قرأت ما هو مكتوب في الصفحة المقابلة.

قالت أمّي وهي تمسك بذراعي وتقبّلني" :هذا رائع يا عزيزتي، خشيتُ أنّك لا تستطيعين الرؤية بوضوح يسمح لكِ بالقراءة."

أنزلتني عن حضنها ثمّ توجّهتْ نحو الخزانة وعادت حاملة كتابا أصغر من الكتاب الذي كنّا نقرأ فيه للتوّ.

قالت بصوت فَرِح" :سنبدأ بكتاب التعاليم المسيحية، لنرَ الآن ما يمكننا فعله حيال الوصية الأولى."

غالبا ما كانت أمّي تعبّر عن دهشتها لتعلّمي القراءة بالنرويجية من دون أن يعلّمني أحد .كانَت تعتقد بأنّه من المحتمل أنْ أكون قد أصغيت إلى الأطفال

الأكبر منّي سنّا وتعلّمت اللغة بتلك الطريقة، لكنّني شخصيا لا أملك تفسيرا لكيفية حصول ذلك.

اشتملت معظم دروسنا في مدرسة الأحد على حفظ مقاطع كاملة من كتاب التعاليم الدينية، كتاب التفسير، وتاريخ الإنجيل، وفقرات طويلة من الإنجيل نفسه، وترانيم كنسية .طريقة التعليم هذه كانت رائعة لأنّها أتاحت لي تدريبا مثاليا على الاستحضار الذهني الدقيق الذي قد إحتجتُ إليه في كلّ يوم في حياتي.

اتّبعت أمّي نظاما فذّا لتعليم فتيات الأسرة كيفية أداء الأعمال المنزلية .لقد قسّمت المهامّ المنزلية إلى فئات بحسب المهارة اللازمة لتنفيذها، وبدأتْ أصغرنا سنّا بأبسط تلك الفئات.

أولى وظائفي كانت مسح الكراسي في مطبخ منزلنا القريب من البحيرة .وكانَ عليّ أنْ انتظر أسابيع قبل أنْ أسمعها تقول لي بأنّي أصبحت أكبر سنّا من أن أتولّى هذه المهمّة؛ لذلك شعرت بالغبطة عندما أعلنتْ على مائدة الإفطار صباح يوم سبت أنّي سأبدأ مهمات ذلك اليوم.

أحضرتْ الكراسيّ ووعاء معدنيا فيه مياه فاترة ووضعته على العشب أمامي، ثمّ بيّنت لي بالتفصيل كيف أُمسك بفرشاة الفرك والخرقة لأفرك الكراسيّ بالطريقة الصحيحة .ومع أنّها أدّت جلّ العمل، لكنها أثنت عليّ لبدايتي الجيدة وتركتْني وتركت الكراسيّ ومريلتي في الشمس لنجفّ.

ما هو إلاّ وقت وجيز حتّى أصبحتُ مستعدّة لوظيفة أخرى .كانت هذه الوظيفة أهمّ بكثير، وقد أحسست بفخر شديد لائتماني عليها .وهي تتلخص في التنظيف الأسبوعي المعتاد لدورة المياه في منزلنا المطلّ على البحيرة، أسهبت والدتي في شرح كيفية القيام بالعمل .أولا السقف والجدران والأرضية وكلّ شيء هناك كانَ يجب تنظيفه فركا بصورةٍ شاملة بإستخدام رغوة الصابون الحارّ من خلال مكنسة طويلة وقاسية .أُفرغت عدّة دلاء من الماء النظيف البارد، واستخدمت المكنسة القاسية مرّة ثانية للشطف .وبعد ذلك كانَ يتعيّن قطع فروع أشجار دائمة الخضرة .بعضها كان يُقطَع إلى قطع كبيرة نوعا ما، وتُعلّق على جدران دورة المياه بمسامير دُقّت خصيصا لهذا الغرض .وما تبقّى من فروع يقطَّع إلى قطع صغيرة ويُنثَر على الأرضية التي فُركت حديثا .أخيرا، كانَ يتوجب تقطيع الصحف إلى أوراق منتظمة الحجم، وكبيرة بما يكفي لوضعها في العلبة في إحدى زوايا الأرضية .نفّذتُ تعليمات أمّي حرفيا بادئ الأمر، لكن عندما اعتدت هذا العمل وتلاشت الجِدّة، أصبحتُ لا مبالية، وصرت أُلقي القطع المتغضّنة على الأرضية وأقوم بحشو الصحف في العلبة من دون أن أكلّف نفسي عناء تقطيعها .فما كان من أمي إلا أن وبّختني على أفعالي تلك.

"هل تريدين أن تقولي لي، بعد أن أظهرتِ لي قوّة نظرك لتعملي، بأنّك قانعة بترك دورة المياه على هذه الحال؟ لا يمكنكِ أن تتوقّعي مني أنْ أكونَ فخورة بكِ حين تخيّبين أملي على هذا النحو."

كان فرك سلالم القبو في منزل البحيرة ترقية مميَّزة مقارنة بتنظيف دورة المياه، والطريقة الوحيدة لأداء العمل في القبو أن أبدأ بالباب الأفقي في زاوية أرضية

المطبخ، وفي البداية فتحتْ أمي لي الباب .لكنّها نبّهتني أيضا إلى ضرورة توخّي الحذر والمحافظة على توازني وأنا أعمل، وشرحت لي كيفية مسح إطار الباب الأفقي، كي لا يعلوه الغبار ويسقط في القبو. لكنّها قالت إنّ الأهمّ هو وجوب مسح الدرجات لتجفّ تماما كي لا ينزلق عليها أحد ما ويسقط.

قالت لي" :لو لم أكن أعرف مدى دقّتك، ما كنت لأكلّفكِ بغسل درجات القبو، لكنّني متأكّدة من أنّكِ ستؤدّين عملك بإتقان."

مسحتُ كلّ درجة إلى أن أصبحت جافّة كما لو أنّها لم تُغسل على الإطلاق، لأنّي مؤتمنة على حياة جميع أفراد الأسرة.

أسهمتُ لاحقا في العمل في منزلنا بالمدينة في مينيبوليس، في هذا المكان، كان لون الأثاث والأرضيات داكنا وشديد اللمعان، وكان أدنى قدر من الغبار يظهر عليهما بوضوح.

»يمكنكِ القيام بما هو أفضل من هذا«، كانت أمّي تقول لي وهي تمسك بيدي وتشير إلى المواضع التي أغفلتها،» يجب علينا نحن الذين لا نتمتّع ببصر كبصر الآخرين أن نتحمّل مزيدا من الآلام في عملنا .عندما نُظهر إلى أيّ مدى يمكننا إتقان عملنا، فإنّه لن يتذكّر أحد أنّنا نعاني من مشكلة في عيوننا.«

وبعد أن كبرتُ سُمح لي بالإسهام في الغسيل والكيّ .وقد اعتاد أبي النهوض باكرا في صباح يوم الغسيل وتشغيل الغسّالة قبل توجّهه إلى المكتب .لقد تعلّمتُ أولا كيفية غسل الثياب ونشرها فوق الحبل .ووجب عليّ في بعض الأحيان إنزالها ثمّ تعليقها من جديد عدّة مرّات على النحو الذي ترتضيه أمّي.

قلتُ شاكية" :لا يهمّ كيف تظهر الثياب على الحبل، فهي ستجفّ على أيّ حال."

"هذا هو سبب وجوب نشرها بتأنّ شديد«، كانت أمي تُذكّرني، «فهي لن تجفّ تماما إذا تراكمت فوق بعضها البعض .كما أنّ هناك طريقة صحيحة وطريقة خاطئة في فعل كلّ شيء، وأنتِ تودّين تعلّم كيفية أداء الأعمال بالطريقة الصحيحة، أليس كذلك؟."

كانت أمّي أشدّ تطلّبا وإعتناء مما سبق بتفاصيل وظيفة الكيّ .أجمل ثيابنا الصيفية كانت بيضاء، وكنّا نحن الفتيات نلبس معها أكواما من ثيابٍ تحتية معالجة بالنشاء .كان أشقّائي يرتدون بلوزات رجالية بيضاء في أيام الأحد، وأبي كان يلبس قمصانا بيضاء وصدارٍ خفيفة .لذلك، كان غسيلنا الأسبوعي، لا سيما في منزل البحيرة، عملا ضخما يستلزم أداؤه شخصين، كانا يقفان طوال اليوم، من الساعة الرابعة أو الخامسة صباحا حتى وقت العشاء مساء، في حرارة موقد الحطب في المطبخ، الذي عليه كنّا نحمي المكاوي .ومهما استجدّ من واجبات أخرى كان علينا الانتهاء من كيّ الملابس في يوم واحد لأنّ أمّي عارضت ما وصفته : "استغراق الأسبوع كلّه في الغسيل."

لكنّ جهودها الجبّارة لم تُفلح في تعليمي الخياطة، بما أنّ الأشخاص المكفوفين تماما يؤدّون أعمالا يدوية رائعة، كان بالكاد يمكن إلقاء اللوم على عينَيّ في هذا الشأن .في الواقع، أنّني كنتُ عديمة الصبر على الأرجح.

سأل والدي أمّي على مسمعي" :لِمَ تُرهقين الصغيرة بهذه السخافات؟."

أجابت أمّي بحدّة غير معهودة" :هذه ليست طريقة للحديث .ليس أمرا جميلا تركها تكبر من دون تعليمها كلّ ما يمكن للأطفال الآخرين القيام به .كيف سيكون حالها عندما أرحل إذا لم تتعلّم كيفية الإعتماد على نفسها؟."

الفصل الثاني

عندما ناهزتُ الخامسة رجوت والدي ووالدتي كي يسمحا لي بالالتحاق بروضة الأطفال، كانت صديقتي الحميمة ألما قد التحقت فعلا، وكذلك هاتي التي كان والدها كاهن الكنيسة المعمدانية. لكنّ والدي لم يحبّذ الفكرة.

قال لأمّي" :لا يزال أمامها كثير من الوقت لتنكبّ على الكتب حين تلتحق بالمدرسة الأهلية، كما أنكِ قلتِ إنّها تقرأ كتاب التعاليم الدينية باللغة النرويجية، هذا كافٍ الآن."

أجابت أمّي بهدوء» :لن تنكبّ على الكتب في صف الروضة، فلا شيء يفعله الأطفال هناك سوى اللعب .وسيساعدها ذلك على اعتياد الروتين وعلى التعلّم من شخص غيري .وقد سمعتُ أنّ الآنسة سميث ومساعدتها الآنسة بايلي معلّمتان رائعتان .ولن يحدث أيّ ضرر في حالة السماح لها بالمحاولة ورؤية كيفية انسجامها مع الآخرين.«

أحببت الذهاب إلى صفّ الروضة .كانَ الأطفال يمارسون هناك ألعاب الجري ذاتها التي اعتدتُها أصلا، لكنّ ممارستي إيّاها في الروضة سيكون أيسر بكثير بسبب الدائرة المرسومة بخطّ أصفر ثخين على الأرضية الملساء، وهو ما كان يُظهر مكاننا بالضبط لكي نُبقي أنفسنا ضمن اللعبة .وعند الظهيرة نذهب في نزهة، ونبقى في الصفّ في الأيام الباردة والعاصفة، ونذهب إلى مرج الكنيسة في الأيام التي يكون فيها الطقس لطيفا .كنّا نلصقُ مربّعات ملوّنة ودوائر مصنوعة من الورق الزاهي على ألواح كرتونية، وكنت أختار دائما اللونَين الأرجواني والذهبي لجمالهما وبهائهما.

وفي صباح أحد الأيام عندما جاءت ألما باحثة عني، قالت لي» :سنلعب الهوكي اليوم.«

لم أكن أعرف ما تعنيه الكلمة، لكنّها بدت مثيرة للاهتمام فوافقتُ فورا على المحاولة، بقينا خارج الأبواب إلى أن تعبنا، ثمّ عدنا إلى المنزل .كان والدي في الفناء منتعلا حذاءه الطويل ومرتديا سرواله القطني المتين ومعطفا قصيرا من جلد الخروف كحاله عندما يعود إلى المنزل مساء بعد يوم كامل قضاه في مسح الأراضي.

سألته وأنا أجري نحوه لأساعده على حمل ثلاثي القوائم" :هل سيحلّ الليل في وقت وجيز؟."

أجابني وهو يخفض الحامل ثلاثي القوائم ليكون في متناولي" :لا، لماذا؟ لن يحلّ الظلام حتى وقت متأخّر .صدف أنّني أجري أعمال مسح كثيرة في جادّة فرانكلين، لكن لماذا لستِ في صفّ الحضانة؟."

قلت بسعادة" :آه، أنا وألما نلعب لعبة جديدة اليوم، إنّها لعبة الهوكي، وهي مشوّقة جدا."

وضع والدي الحامل على السقيفة، ثمّ جلس على الدرجات وسحبني تجاهه.

قال بلطف ولكن بحزم" :عليكِ ألاّ تلعبي الهوكي بعد الآن .هذا يعني أنكِ لم تذهبي إلى المدرسة .أحسستُ بالخوف عندما توسّلتِ كي تذهبي إلى الروضة، لأنّك ما زلتِ صغيرة السنّ، لكنّكِ قلتِ لي إنّك بنت كبيرة وتستطيعين فعل ما يفعله

الأطفال الآخرون .والآن، عليكِ أن تُثبتي لي بأنّكِ قادرة على فعل ذلك .نحنُ في منزلنا نُنهي دائما ما نبدأه."

في نهاية السنة ذهبنا نحن أطفال الروضة في نزهة إلى منتزه مينيهاها .أعطتني والدتي علبة فيها طعام الغداء وكنتُ أملكُ قطعة نقدية معدنية ثبّتتها في منديلي لأدفع ثمن ركوب الأحصنة القزمة .لم يكن بإستطاعتي الإنتظار كي أري ألما وهاتي القبّعة الجديدة التي زخرفتها لي أمّي .لقد كانت عبارة عن قشّ بنّي مذهّب مع حافّة مموَّجة وإكليل من نبتة أذن الفأر حول القمّة.

لقد قضينا وقتا رائعا في تلك النزهة .لكنّي لم أجد قبّعتي عندما حان وقت إيابنا . ساعدتني الآنسة سميث والآنسة بايلي وأطفال آخرون في البحث عنها، لكنّنا لم نجدها .بدت الحال في بداية الأمر كما لو أنّي كنتُ مضطرّة للعودة من دونها، غير أنّ الآنسة بايلي رأتها معلّقة في أعلى إحدى أطول الأشجار في المنتزه، وتبرّع جندي يرتدي بزّة رسمية زرقاء وذات أزرار ذهبية اللون بإحضارها لي.

سألتني الآنسة سميث بتعجّب" :كيف تعتقدين أنّها وصلت إلى هناك؟."

نكّست رأسي .مع أنّني لم أستطع التأكّد من كونها هي الشجرة بعينها التي كنتُ قد تسلّقتها في الصباح، وأنّني لا أذكر أنّي تركت قبّعتي على أحد أغصانها فيما كنتُ فوقها، إلّا إنّني أدركتُ بأنّي كنتُ قد اخترت أطول شجرة أمكنني إيجادها.

شعرت بسعادة غامرة في رحلة العودة في الترام وقد عادت قبّعتي إلى رأسي سالمة.

لقد تشوّقت للالتحاق بالمدرسة الأهلية أكثر مما كنتُ قد تشوّقت عند إلتحاقي بالروضة .كانت ساعات الدراسة تمتدّ في المدرسة الأهلية، أو المدرسة الكبيرة كما

كان أطفال صفّ الروضة يسمّونها، من الصباح وحتى العصر، ومع نهاية اليوم، كان الطلاب، الذي ذهبوا إليها، يعودون إلى المنزل في هيئة رصينة وأيديهم مليئة بالكتب والأوراق .التحقت شقيقتاي الأكبر منّي سنّا، إيلين وأولغا، وشقيقي الأكبر أوسكار، بالمدرسة الأهلية، وقد سمعتهم وهم يتحدثون عن مدى روعة هذا المكان .أجراس مُلفتة تُقرع من حين لآخر؛ المعلّمون يعلّقون الصوَر في جميع أنحاء الغرفة ويكتبون أشياء مثيرة للاهتمام على اللوح لينسخها الأطفال، والأطفال يقرأون الإنكليزية في كتب تضمّ صوَرا ملوّنة– عوضا عن قراءتها باللغة النرويجية التي يمكن لأيّ كان تعلّمها من دون الحاجة إلى الذهاب إلى المدرسة.

أحصيت الساعات طوال فصل الصيف منتظرة بدء المدرسة.

ثمّ جاء اليوم الموعود .نهضتُ والجوّ كان ما يزال مظلما .ولبستُ حذائي البنّي الجديد ذا العروات الذهبية، وكان أبي قد اشتراه لي من البلدة في الليلة السابقة، والثوب الأحمر الجديد المؤلّف من قطعة واحدة، وعباءة بيضاء كانَت أمّي قد أنهت العمَل عليها توّا.

عندما وصلنا إلى مبنى المدرسة، أرشدتني شقيقتي إيلين إلى صفي الدراسي؛ لكنّني قلت لها إنه ليست مضطرة للمضيّ معي أكثر من ذلك لأنّي أستطيع الاعتناء بنفسي.

دخلتُ الصف بثقة، ثم توجّهت نحو المعلّمة التي كانت جالسة عند مكتبها قريبا بالضبط من الباب، لم ترفع نظرها إليّ، بل واصلت القيام بكتابةِ شيء معين كانت منشغلة به.

»اسمي بورغيلد مارغريت دال«، أخبرتها.

سألتني وهي ما تزال تكتب» :ماذا؟.«

أعدت العبارة» :اسمي بورغيلد مارغريت دال.«

»هل يمكنكِ تهجئة اسمك لو سمحت؟«، سألتني بعد أن نظرت إليّ أخيرا.

قمتُ بتهجئةِ الإسم على النحو الذي علّمتني إيّاه أمّي بالضبط.

عبست المعلّمة وقالت شيئا لم أفهمه عن أسماء الأجانب الغريبة، كما أنّ نظرها، الذي بات مركّزا عليّ الآن، أزعجني.

قالت لي بعد برهة» :أخبريني، ماذا ترين على السبّورة هناك؟.«

قلتُ أنا لا أستطيع أن أرى أيّ شيء.

سألت بلهجة آمرة» :إذا، ماذا تفعلين هنا؟.«

"هذه ليست مدرسة للمكفوفين، ونحن لا نقبل الأطفال الذين لا يستطيعون الرؤية."

قلتُ في نفسي وقد أُصبت بالذعر فجأة :لن أُقْبَل في المدرسة الكبيرة؟ هذا مستحيل.

بقيَت المعلّمة جالسة وهي تعاينني عن قرب، وحاولتُ أن أفكّر فيما يجب عليّ فعله .لم أكن كفيفة، وأنا أستطيع أن أرى .صحيح أنّ بصري ليس بقوّة بصر بقيّة الأطفال، لكنّ أمّي تسمح لي بتقديم يد العون في كلّ شأنْ من شؤون المنزل

تماما كالآخرين، وهي قالت إنّنا عندما نؤدّي عملنا بإتقان، لن يلحظ أحد أيّ مشكلة في عيوننا.

لم أستطع العودة إلى المنزل، فقد قال لي أبي من قبل نحن في منزلنا نُنهي دائما ما نبدأه، وكان عليّ إفهام المعلّمة بأنّه بإمكاني الرؤية.

قلت لها" :أستطيع أن أرى، لكن ليس من مسافة بعيدة."

بقيت تنظر إليّ بطريقة توحي بأيّ شيء آخر عدا التطمين.

أُصبتُ باليأس .إذ كيف يمكنني إقناعها بأنّني لست عمياء؟ وأنّني أراها في الحقيقة وأرى الأطفال حولي الذين دخلوا القاعة فيما كنت أقف هنا؟ كانت هناك طفلة صغيرة غارقة بالدموع وهي تُمسك بتنوّرة أمّها، وأنا أيضا أوشكت على البكاء، لكنّي كنتُ أدرك بأنّي إذا ما بكيت فسأبدّد إمكانية السماح لي بالبقاء.

وكنتُ قد حسمتُ أمري بأنّي سأبقى في المدرسة مهما حصل.

ثمّ في ومضة عين خطرت ببالي فكرة رائعة، سُررت بها إلى حدّ أنّني جريت نحو الجانب الآخر من طاولة المعلّمة وأمسكت بيدها.

قلت بصوت مرتفع" : أجل آنسة' أي) 'سمعت اسمها عشرات المرّات على ألسنة الأطفال الأكبر منّي سنّا(، أستطيع أن أرى !وأستطيعُ، أيضا، أن أرى الثؤلول الذي يعلو أنفك تماما.«

لا أذكر ما عقّبَت على ذلك، لكن لا بدّ من أنْ أكون قد أقنعتها بأنّي قادرة على أنْ أرى، إذ ما أعرفه هو أنّه سُمح لي بالبقاء.

عندما خرجنا للاستراحة في ذلك الصباح، بحثتُ عن ألما وهاتي .لكنّني لم أتمكّن من العثور عليهما، ولا على أي شخص أعرفه .تجوّلتُ في أرجاء ملعب المدرسة ودقّقت في وجوه الأطفال بقربي لأرى إن كان بمقدوري التعرّف إلى أيّ منهم . اقتربتُ مباشرة من عدّة أشخاص اعتقدت أنّهم بعض أصدقائي، لكنّني وجدت نفسي مخطئة في كلّ مرّة .بعدها، وبعيدا بالقرب من السياج، خلتُ بأنّي رأيت ريتشارد، وهو صبيّ يقيم في حيّنا، فجريت نحوه.

صرخت» :ريتشارد، ما اسم معلّمتك؟ اسم معلّمتي' آي.»'

نظر إليّ الصبيّ مشدوها، ثمّ ضحك.

نادى بعضَ الصبيان الواقفين على مقربة منه» :انظروا يا صبيان، احزروا من جاء إلى المدرسة.«

تسكّع الصبية حولي، وبعد أن ألقوا عليّ نظرة فاحصة، إنفجروا في جوقة من القهقهات.

قال أحدهم بصوت مرتفع يسمعه الجميع" :خنزيرة عمياء."

وصاح آخر" :أيتها العنيدة."

وقال ثالث" :انظري حولكِ."

كما استفرد بي الصبية ذاتهم وأنا في طريقي إلى المنزل من أجل تناول الغداء، وعندما عدت إلى المدرسة من أجل حصص ما بعد الظهر .لقد كانوا بإنتظاري أيضا عند بداية استراحة العصر .وكانوا يجرون خلفي في كلّ مرّة يرونني فيها،

ويدعونني بأسماء يوحي بها مظهري، وبخاصّة عيناي .وعندما انتهى دوام المدرسة اخترت طريقا متعرّجة للعودة إلى منزلي للتخلّص منهم .لم أجد أحدا هناك . صعدت سلّم المنزل بسرعة وتوجّهت إلى غرفة نوم أمّي .أخذت المرآة اليدوية من خزانتها وصعدت السلّم مسرعة نحو العلّية، ثمّ توجّهت نحو النافذة الغربية حيث أشعّة الشمس، وألصقت المرآة بوجهي، ولأوّل مرّة في حياتي تمكنتُ من رؤية شكلي بالضبط.

كانت إحدى عينَيّ أصغر بكثير من العين الأخرى لأنّها كانت غائرة في رأسي .وكانت كتلة زرقاء باهتة ميتة، وأفتح بكثير من الثانية حدّقتُ في وجهي ورأيت بعد برهة بأنّ عيني السليمة كذلك فيها بقعة بيضاء في الجزء الأزرق منها .ولاحظت أيضا أن جفن عيني الضعيفة مغمض جزئيا بشكل دائم .في البداية، حاولت فتحها لتكون مثل أختها، وعندما ألفيتُ نفسي عاجزة عن ذلك، قمتُ بفتحِ جفني بأصابعي . سبب هذا لي أذى كبيرا للغاية بحيث إضطررتُ إلى إفلاتِ الجفن .ثمّ أغمضت كلتا العينين وحاولت أن أرى نفسي، لكنّني لم أنجح أبدا .اعتقدت بأنّي سأبدو كالآخرين وعيناي مغمضتين .آهٍ لو تسنّى للناس رؤيتي وأنا نائمة !تمدّدت على الأرضية وأغمضت عينَيّ وتظاهرت بأنّني غفوت بسرعة.

بعد أن فتحت عينَيّ ثانية، ألقيت نظرة طويلة أخرى على نفسي، وبعد أن وعيت تماما كيفية ظهوري في عيون الناس أجهشت بالبكاء.

في المنزل لم يتم جعلي أشعر إطلاقا بأنّ عينَيّ تؤثّران على مظهري بأيّ شكل من الأشكال .كنت وشقيقتي إسثِر، وكانت جميلة جدا، نرتدي ثيابا متشابهة في العادة، وكانت أمي تخيط ثيابي بتأنٍّ شديد لتكون مماثلة لثياب الأطفال الآخرين .

وقد صنعت لي بمناسبة عيد ميلادي الأخير ثوبا صوفيا أزرق سماويا مع أزرار مذهَّبة ودرز زخرفة متعرج، فسمّيته ثوبي الذهبي .لكن الآن، بسبب عينَيّ، كما اعتقدت، لن أكون جميلة كالآخرين حتى لو لبست ثوبي الذهبي.

في صباح اليوم التالي كان الصبيان في الملعب عندما قدمت إلى المدرسة .وبما أنّني عرفتُ فظاعة مظهري في نظرهم باتت سخريتهم أشدّ إيذاء لي ممّا سبق. تجاوزتهم بسرعة ودخلت مبنى المدرسة، لكن كانت هناك معلّمة واقفة في مدخل الباب، أوقفتني قبل أن اجتازَه ببضعة أقدام.

»أخرجي في الحال«، أمرتْ، «ألا تعرفين أنّه لا يُجدر بكِ الدخول قبل أن يقرع الجرس الأخير؟."

وجدت مدخلا لقبو، فدخلته ونجحت في الوصول إلى صفّي من دون أن ألتقي بأحد، لكنّ معلّمتي قابلتني عند الباب هناك.

قال بلهجة صارمة" :بورغول، إذا كنتِ تودّين البقاء في المدرسة، عليكِ أن تتعلّمي إطاعة قوانينها، أخرجي حالا والعبي مع الأطفال الآخرين إلى أن يُقرع الجرس الأخير."

بقيت في المنزل ظهيرة ذلك اليوم إلى أن تأكّدت أنّ جميع الصبيان قد دخلوا مبنى المدرسة .ثمّ انطلقت راكضة بأقصى ما أستطيع .لم يضايقني أحد هذه المرّة لأنّ الساحات كانت خالية تماما، لكن عندما وصلت إلى صفّي وبّختني معلّمتي أمام الجميع لتأخّري.

وفي عطلة نهاية الأسبوع اصطحبنا والدي إلى البحيرة، وأخبرتُ أمّي بما يفعله الصبية في المدرسة .فترجّتْني والدموع تنساب على خدّيها ألاّ أعيرهم اهتماما . قالت إنّهم لا يعون ما يصنعون، وإلا ما كانوا ليتفوّهوا بهذا الكلام .وأبدت ثقتها بأنّهم سيكفّون عن فعل ذلك، إذا ما تظاهرتُ بأنّي لا أُلقي لهم بالا.

ربّما كان كلامها صحيحا .ربّما وقف الصبية الذين في صفّي ضدّ الصبية الآخرين، إذ إنني سرعان ما أصبحت على علاقة طيبة جدا مع جميع زملائي في المدرسة .أو ربّما كنّ المعلّمات قد سمعنَ بمشكلتي وبادرن إلى فعل شيء حيالها .بعد أن انقضى الأسبوع الأوّل لم أعد أعاني مزيدا من الإذلال من قبل الصبية، ولا أذكر أنّ طفلا ضايقني يوما ما في ملعب المدرسة بعد ذلك .وكلّ حالات السخرية من عينَيّ كانت تتم من قبل غرباء، وكان هؤلاء لا يواصلون فعل ذلك فترة طويلة إذا كان الأطفال الذين يعرفونني متواجدين على مقربة .لم أخبر أمّي متى حصل هذا . أعتقد بأنّي أدركت، بعد التجربة الأولى تلك، كم يؤلمها أنْ تسمعَ عن هذا الموضوع، وتملّكني شعور بأنّ لجوئي إليها ليس صائبا – من غير أن أكون قادرة شخصيا على تلقي اللكمة بنفسي.

إنّ تجربتي مع معلّمتي الأولى في ذلك اليوم، وهو يومي الأوّل في المدرسة، واستهزاء الصبية بي خلال الأسبوع الذي تلاه خلّفا في ذاكرتي ندوبا لم يكن بمقدور الزمن أنْ يمحوها على الإطلاق .كان ينتابني شعور في بعض الأحيان بأنّني لا أستحقّ الحياة، وبأنّي مذنبة بإرتكابِ شيءٍ ما – لم أعرف ما كان بالضبط – في الوقت الذي كان يلاطفني فيه الناس ويعاملونني كما لو كنت واحدة منهم.

من الأمور التي كنتُ قد سمعتُ عنها كثيرا في المدرسة كانَ ما يسمّيه الأطفال الأكبر سنّا امتحانات .تحدثّوا عن الامتحانات بطريقة يشوبها الخوف والفخر، وتملّكني فضول شديد ازاء معرفة ما تبدو عليه .لذلك، عندما ذكرتْ معلّمتنا في الصف الثاني ذات يوم بأنّنا سنُجري امتحانا في اللغة عصر اليوم التالي، انتظرتُ هذه التجربة الجديدة بفراغ صبريّ المتلهّف المعهود.

أخيرا جاء يوم الامتحان، وأُجري في الحصّة الأخيرة قبل الانصراف .كنّا ، نحنُ الأطفال، جميعا متأهبين وبأيدينا أقلام رصاص مبريّة بعناية، وأمامنا على المناضد الدراسية صفحات من الورق الخشن الرمادي اللون والمسطّر بخطوط زرق.

قالت معلّمتنا وهي واقفة أمامنا بجانب السبّورة» :تذكّروا، يجب عليكم ألاّ تساعدوا أحدا وألاّ تتلقَّوا مساعدة من أحد وأنتم تُجرون هذا الامتحان .وإذا فعلتم تكونون قد غششتم، وسيكون عليّ أنْ ألقي بأوراقكم في سلّة المهملات وأنْ أمنحكم صفرا في الامتحان .وسيعني هذا أنّكم لن تجتازوا هذهِ المرحلة مع نهاية الفصل الدراسيّ.«

لم أجرؤ على الالتفات يمنة أو يسرة مخافة أن تظنّ المعلّمة أنّني أنسخ من أوراق من حولي وأنْ تُلقي بورقتي في سلّة المهملات بسبب الغش .ورغم إنّي نظرتُ إلى السبّورة مباشرة حيث كانَتْ تَكتبُ الأسئلة وأجهدتُ عيني غاية الجهد كي أرى إلى درجة غدا معها كلّ ما حولي ضبابيا، إلّا إنّني لم أتمكّن من أن أبصر ولو كلمة واحدة من أسئلة الامتحان.

سمعت صرير أقلام الرصاص، وكان في مقدوري أن أرى، من دون أن ألتفت طيف رأس ثيلما في أحد جانبَيّ وطيف رأس ريتشارد في الجانب الآخر فيما كانا منكبَّين على عملهما .ثمّ وضعت المعلّمة الطبشورة والتفتت نحونا .حنيت رأسي كالباقين وتظاهرت بالكتابة أيضا؛ لكن خطر ببالي أنّ معلّمتي ستعرف بأنّني كنت أخادعها ما إن تنظر إلى ورقتي، ولقد أدركت حماقة تلك الخطوة.

حسدتُ ثيلما لسماعي قلمها وهو ينتقل بسرعة فوق ورقتها .لم يكن بوسعها أن تتذكّر أيّ شيء خارج المدرسة، لكنّها تمكّنت بالتأكيد من استذكار أمور كثيرة لتجيب بها المعلّمة في الامتحان .فقد عرفت الأسئلة، ولذلك سيكون كلّ ما كتبته صحيحا .فكّرتُ في التوجّه نحو السبّورة لأتمكّن من رؤية الأسئلة أيضا؛ لكن إذا كان الالتفات غِشّا، فلا بدّ وأنْ يكون المشي نحو السّبّورة أمرا أسوأ .ثمّ سمعت المعلّمة وهي في آخر الصف، تتنحنح، وبدا الصوت منذرا تماما إلى حدّ أنّني قرّرت عدم القيام بهذه المحاولة.

كنت في وضع بائس حقّا .عدم النجاح في نهاية الفصل، في نظري، كان أسوء أنواع الخزيّ التي يمكن أن تلحق بأيّ كان .ولقد أخفق اثنان من الصبية الذين في صفّي في الاختبار، وعرفتُ أنّني لن أنجو من هذا الإذلال الذي لا بدّ وأن يكونا قد كابداه .كانت الفترة الزمنية توشك على النهاية، وقريبا سيكون قد فات الأوان لفعل شيء يتيح رؤية الأسئلة التي على السّبّورة.

في النهاية استجمعت كلّ شجاعتي وسرتُ في الممرّ متوجّهة نحو المكان الذي كانت تقف فيه المعلّمة» .لماذا يا بورغيلد«، قالت بصوت مرتفع بعد أن أخبرتها بحراجة وضعي،» كان عليك أن تُخبريني في الحال بأنّكِ لا تستطيعين رؤية

الأسئلة .لقد نسيتُ مشكلتك .أسرعي الآن، وإلا فلن تُنهي الامتحان .فالوقت إنتهى تقريبا.«

عادت معي إلى مقعدي وأملتْ عليَّ الأسئلة .ثمّ بدأتُ بالكتابة كالمجنونة، وكانَ قلمي يصرّ بصوتٍ أعلى من صرير أيّ قلمٍ من أقلامِ الآخرين .وعندما قرع الجرس كنتُ في طورِ إنهاء إجابة السؤال الأخير، وتمكنتُ من تسليم ورقتي الإمتحانية مع الباقين.

تملّكني الخوف من الامتحانات طوال سنواتي الدراسية .ففي الغرف المكتظّة لم يكن من السهل أن تتذكّر المعلّمات بأنّي عاجزة عن رؤية السبّورات، وكان في إضطراري إلى تذكيرهنّ بذلك إحراجا لي .لكنّ بعض المعلّمات كنّ يكتبن الأسئلة على ورقة من أجلي عند بداية الإمتحان، وقد أحببتهنّ لمراعاتهنّ مشاعر الآخرين.

العمل اليومي على السّبورات لم يُزعجني .كان زملائي في الصف لطفاء للغاية بسماحهم لي نسخ أسئلة دروسنا، أو نسخ أيّ شيء آخر، عن دفاترهم، وإذا لم يتيسّر ذلك كنت أتسلّل إلى الصفّ إمّا باكرا قبل وصول المعلّمة أو مساء بعد مغادرتها .حينها يكون في وسعي الوقوف أمام اللوح وتثبيت عيني على الكلمة التي كنت أنسخها، وكنتُ أسير جيئة وذهابا قبالة السبّورة السوداء حيث توجدُ الكتابة، بنفس الطريقةِ التي كنت أحرّك بها رأسي يمينا ويسارا فوق الصفحة المطبوعة.

وفي الصفّ الخامس أصبحت، فجأة، كلّ الأشياء أسهل بكثير في المدرسة .كانت معلّمتي، الآنسة غرايس شيرْوود، تعرف أسرتي لأنّ أشقّائي الأكبر سنّا كانوا قد درسوا في صفّها .كانَت تدركُ مدى محدودية قدرتي على الرؤية، وبذلت كلّ ما في

وسعها لمساعدتي .لقد أصبحنا صديقتين وفيّتين، واعتدتُ البقاء بعد الدوام التزاور معها.

سرعان ما اكتشفنا أنّ لدينا أمورا مشتركة كثيرة بيننا .وُلد شقيقي روبرت في ذلك الشتاء، وكان للآنسة شيرْوود ابنة أخت حديثة الولادة .تبادلنا القصص عن الرضيعَين، وصار كلّ منّا يُخبر الآخر عن التقدّم الذي يُحرزه كلّ منهما.

»ابتسمت طفلنا هذا الصباح أثناء ما كانت تقوم والدتي بغسله«، أخبرتُ السيدة شيرwood في أحد الأيام.

»لقد تعرفت عليّ ابنة أختي ليلة البارحة«، قالت بعد بضعة أسابيع،» تخيّلي طفلة تعرف خالتها وهي لم تبلغ حتى سنّ الثلاثة شهور .سأمضي أيام عطلتي بأكملها في الاعتناء بها.«

عندما كنّا في منزل البحيرة في ذلك الصيف، جلست لساعات أهدهد أخي الصغير وأعرّضه للهواء وهو في مهده تحت شبكة البعوض .لم أمانع في التوقف عن اللعب، مهما كان نوع اللعبة، عندما كانت أمّي تناديني لأقوم بهذه المهمّة، لأنّي كنتُ أعرف بأنّ الغالية الآنسة شيرْوود كان تهدهد مهد ابنة أختها وتعرّضها للهواء أيضا، وهو ما أشعرني بأني ذات شأنٍ كبير كوني أقوم بما تقوم بهِ هي تماما.

كان الحظّ حليفي في الصفّ السادس .إذْ إنّ الآنسة إفيرهارت، معلّمتي في المدرسة، كانت من الجنوب، وكانت رقيقة ومعسولة الكلام كحالِ لهجتها الجنوبية.

درسنا تاريخ الولايات المتّحدة في صفّها، واستفاضت في الشرح عن الحرب الأهلية لأسابيع .أخبرتنا أنّ والدها خرّ صريعا عندما كان يقاتل في صفوف الجيش الكونفدرالي، وأجهشت في البكاء وهي تحكي القصّة .فشعرنا بالحزن لأجلها مع أنّنا تعلّمنا في مرحلة سابقة أنّ الجنوب كان على خطأ لأنّه أراد كسر الوحدة الفيدرالية والاحتفاظ بالعبيد .وفي» يوم الذكرى «قدِم جنديان من» فورت سنيلينغ «ليتحدّثا إلينا في المدرسة ويُطلعانا على تجربتِهما خلال مشاركتهما في القتال في صفوف جيش الشمال .المثير أنّ الآنسة إفيرهارت عاملت هذين الرجلَين الأشيبَين بزيّهما الأزرق المزّين بالجدائل والأزرار الذهبية بحفاوة بالغة كما لو أنّهما قاتلا في الصفوف التي قاتل فيها والدها.

كان يوم الذكرى، بالنسبة لي، مناسبة سعيدة بشكلٍ إستثنائيّ، لأنّ الآنسة إفيرهارت كانت قد كلّفتني بقراءة" خطاب غيتيسْبورغ "[1]في برنامج الإحتفال، ثمّ جاءت لزيارتي وكلّمتني بشأنه.

قالت لي" :لقد قرأتِ الخطاب بشكلٍ ممتاز .أنا متأكّدة بأنّ لينكولن نفسه ما كان ليضع فيه من الأحاسيس بقدر ما فعلتِ هذا العصر."

كانت الآنسة إفيرهارت محقّة في اعتقادها بأنّي قد تأثّرتُ كثيرا في أثناء إلقاء الخطاب لأنّه كان واحدا من الفرص النادرة التي أتاحت لي المشاركة في أيّ عمل في المدرسة .عندما كان يُطلب من الأطفال أن يكونوا ممثلين لصفوفهم في فعاليات المراحل الدراسية الأدنى، كان يقع الاختيار على الفتيات الصغيرات الساحرات، أو على أقل تقدير، من لم تكن عيونهم مثل عينَيّ .ولم يُطلب منّي أن أمثّل دور ملاك في موكب المسيح في السنة التي قرأنا عنه فيها، أو دور جِنّيّة في تابلوه

المدرسة، أو جندي في المناورة البطولية في يوم الذكرى، أو دمية في استعراض عسكري بالبزّات الرسمية، أو زهرة في باقة الزهور البشرية في» يوم الشجرة .«وفي الوقتِ الذي كان يُرسَل فيه بعض الأطفال إلى المكتبة المركزية وسط المدينة، كنت واحدة ممّن يأتون إلى المدرسة كالمعتاد لتلقّي دروسهم، متظاهرة بأنّي لم ألاحظ المقاعد الفارغة لأولئك الذين قد كانوا محظوظين كفاية لكي يُدعَوا إلى حضور الاحتفال الذي يعمّ المدينة بأسرها.

وفي أثناء تمثيلية سندريلا وقفتُ خارج المسرح ممسكة بحذاء البطلة الثقيل، فيما كانت ترقص بخفّها الزجاجي في الواجهة .لكنّني أصغيت إلى أدوار كل الممثّلين والممثّلات، وفي غضون وقت وجيز حاكيتُ المسرحية في الإسطبل، ودرّبتُ الأطفال في حيّنا على أدوارهم.

نظرا للازدحام الزائد في مدرستنا نُقل تلاميذ الصف السابع إلى مبانٍ أخرى لينهوا السنتين الأخيرتين في التعليم الثانوي .لذلك وجبَ عليّ، بعد ذلك، أن أمشي مسافة ما يزيد عن ميل لأصل إلى المدرسة، وكانت أبعَد من أن أعود معها إلى المنزل لأتناول طعام الغداء .كنتُ مرعوبة في محيطي الجديد، وسار كلُّ شيء على عكس ما أشتهي منذ البداية .ففي فصل الخريف أصيب شقيقي روبرت بمرض التيفوئيد، ووجب علينا الاعتماد على أنفسنا بطريقة أو بأخرى.

لم أكن أنا ومعلمتي الجديدة نفهم إحدانا الأخرى .الخطأ كان خطئي أكثر مما كان خطؤها، لكنّني كنت أخشاها ولم أكن لأخبرها بعدم إستطاعتي رؤية السبورات . كما أنّني افتقرت إلى الشجاعة اللازمة لأن أطلعها أو أطلع أيّا من زملائي في الصفّ عن مدى حاجتي إلى تقريب الكتب والأوراق إلى عينَيّ كي أتمكن من

قراءتها .ولم ألبث أنْ أُعتبرتْ من قبل كلٍ من معلّمتي ومن باقي التلاميذ، على حدّ سواء، مغفَّلة الصفّ.

في أحد الأيام، كنّا نقرأ قصيدة The Courtship of Miles Standish في حصّة المطالعة، وطلبت منّي المعلّمة إلقاء القصيدة .قلت إنّي لا أعرف موضعها . فدلّتني عليه .لكنّني لم أستهلّ القراءة .طلبت منّي النهوض، ففعلت؛ لكنّي لزمتُ الصمت.

قالت المعلّمة" :أنا بالإنتظار."

لم تصدر عنّي أيّ إجابة.

سألتني بحدّة" :هل تعنين القول إنّك بلغتِ الصفَّ السابع ولا تُحسنين القراءة؟."

شعرتُ بأنّ خديّ أصبحا ساخنين، وأنّ المقاعد في الغرفة والرؤوس التي فوقها بدأت بالدوران حولي.

أدركتُ بأنّي حتى لو ألصقتُ عيني بالصفحة الآن، فإنّي لن أتمكّن من رؤية كلمة واحدة .بدأ بعض الصبيان بالضحك بصوت مكبوت.

قالت لي المعلّمة آمرة» :رددي ما أقول ورائي .أنت، يا جون ألدِن، صديقي.«

في تلك اللحظة لم أقدر على ابتلاع ريقي ولا على إصدار صوت من حلقي.

قالت المعلّمة باشمئزاز" :لا أعرف إن كنتِ بلهاء أو أنّكِ لا تُحسنين القراءة .أنا أميل إلى الإعتقاد بصحّة الوصفَين."

في نهاية الشهر الأول أحضرت إلى المنزل شهادة مليئة بالعلامات الحمر، وهو ما كانَ يشير إلى أنّني أخفقتُ في دراستي بالمدرسة .ذهبت شقيقتي أولغا الأكبر سنّا منّي لتتحدّث إلى المعلّمة، فقالت لها المعلّمة إنّ سلوكي قادها إلى الاعتقاد بأنّي لستُ ذكية جدّا .حاولَت أولغا أنْ تبيّن لها أنّ بصري ضعيف للغاية، وأنّ تغيير المدرسة بالتالي صعبٌ عليّ .أعربت المعلّمة عن أسفها عمّا وصفته بمحنة إضافية، لكنّها أصرّت على رأيها في أني متخلّفة عقليا.

بدأت نتائجي بالتحسّن عقب زيارة أولغا للمدرسة .وتعافى شقيقي الأصغر روبرت من مرضه وصار في مستطاع أمّي إيلاء بقيّة أبنائها اهتماما أكبر .وفي نهاية الفصل رُفّعت ونُقلت إلى صفّ جديد تُشرف عليه معلّمة أخرى .تنبّهتْ معلّمتي الجديدة إلى مشكلتي على الفور وكنّا في انسجام تام.

وفي ضرب من ضروب القدر الغريبة التي يزخر بها هذا العالم، أصبحت المعلّمةُ التي كانَت تراني متخلّفة عقليا إحدى أعضاء هيئة التدريس في المدرسة التي صرت ناظرتها في السنين اللاحقة.

جلستُ في الصفّ السابع قبالة صبيّ اسمه أنديرز كارلسون .كان أنديرز يتأتئ، وكان شغوفا بالفنّ .لكنّه لم يبالِ بشيء آخر في المدرسة، وكان يراقب المعلّمة باستمرار كي لا تضبطه متلبّسا وهو يرسم في الوقتِ الذي يجدر به القيامِ بشيء آخر .الفنّ كان نقطة ضعفي، وكنتُ مفتونة بموهبته التي كانَتْ تمكّنه من إنتاج رسومات بالغة الجمال ببضعة خطوط عشوائية ظاهريا.

وفي فصل الربيع قام تلاميذ صفّنا بإعداد أغلفة للكتب باستخدام الألوان المائية .كانت محاولتي في هذا المشروع أسوأ من أداء أنديرز في الجغرافيا والتاريخ.

لكنّ هذا الواجب المدرسيّ كانَ في نظر أنديرز مسألة حياة أو موت .وبلغ استغراقه فيه حدّا جعله لا يكلّف نفسه عناء محاولة إخفاء ما كان يفعله عن المعلّمة طوال الوقت، والمعلّمة المتفهّمة تركته يواصل عمله من غير أن توبّخه.

كان أنديرز ينسخ غلاف الكتاب الجديد Mrs. Wiggs of the Cabbage Patch لأليس هيغان رايس .راقبْته منذ البداية، وكان اهتمامي برسمه بمثل اهتمامه تقريبا .وقد تقرّر تنظيم معرض للأعمال الفنّية للمدرسة بأكملها، وتوقّع الجميع فوز أنديرز بالجائزة.

في عصر اليوم الأخير، الذي كانَ من المقرر فيه إرسال جميع الأعمال الفنّية إلى مكتب الناظرة، بقينا أنا وأنديرز في المدرسة بعد انتهاء الدوام .كنتُ أقومُ بنقل واجب في مادة الجغرافيا لليوم التالي، وكان أنديرز يرسم كالمعتاد .وبعد أن كنتُ قد انتهيتُ وجمعت كتبي استعدادا للعودة إلى المنزل، بقي أنديرز منكبًّا على غلاف كتابه .وحين التفتُّ لألقي على عمله نظرة أخيرة، لم ألحظ بأنّ وعاء الماء كان قريبا من حافّة منضدته، حركتُ مرفقي إلى الخلف، ثمّ سمعت صوت الكأس المعدنية وهي تتدحرج على منضدة أنديرز إلى أن وقعت على مقعده أولا، ثم على الأرضية .كانَ ثمّة تصبّب كريه للماء أيضا.

تلخبَطَت كوامني جميعها حين فطنتُ إلى مدى الضرر الذي لحق بغلاف كتاب أنديرز، ذابت قطعة أرض السيدة ويغز المغطاة بالكرنب وتحوّلت إلى فوضى من خطوط لونيّة ذائبة وفسد الرسم بالكامل.

تجرّأتُ أخيرا على النظر إلى أنديرز .لاحظتُ بأنّه تغيّر كثيرا .وجهه الممتقع، عوضا عن سماحته وتعبيراته الصافية، غدا الآن أحمر وعابسا وشرسا .بل إنّ عنقه غدت ذات لون قرمزيّ غامق وكانت يده المقبوضة تتحرّك نحو طرف مقعدي.

"يا-يا-يا-يا، دا-دا-دا-دا-دا-دا.«

هذا جلّ ما استطاع التفوه به .حتّى إنّ فروة رأسه الأبيض صارت حمراء، هي الأخرى، بسبب الجهد الذي كانَ يبذله في محاولة التعبير عن رأيه بشأني.

جلستُ بلا حراك، أحسست بألم في حلقي وبحرقة في عينَيّ.

سمعتُ نفسي أقول بعد برهة» :أعرف تماما ما تودّ أن تقوله لي ولستُ ألومك يا أنديرز .لكن لا تتكلّف مشقّة محاولة الحديث .لأنّها لَن تزيدك إلا إستياء .كما حينما أرغبُ بشدّة في أنْ أرى، ولا أستطيع.«

فجأة، لم تعد عيناي جافّتين وكذلك حلقي.

زالت تعبيرات الغضب عن وجه أنديرز، وأصبحت عيناه الزرقاوان الفاتحتان غامقتين وصافيتين كسماء تشرين.

»أو-أو .شا-شا-شاكس .لا-لا -لا تبالي، بـ- بـ- بورغيلد .لا-لا-لا بأس«، تمكّنَ من القول.

أدركتُ بأنّ أنديرز لن يجد بعد الآن شخصا يحبّه كما أحببتُه عصر ذلك اليوم.

تغيّرت معلّمات الصفّ الثامن في نهاية الفصل كما حصل معي في الصف السابع . فتتلمذت على يد الآنسة كاكس في الصفّ الثامن" باء"، وعلى يد الآنسة أوهيرن في الصفّ الثامن" ألف."

كانت الآنسة كاكس سيدة مسنّة ذكّرتني بصوَر الملكة فكتوريا .كانت أشبه بملكة في تصرّفاتها وفي مظهرها، وكان الجميع، حتى أكثر الصبيان مشاكسة، يقفون إجلالا لها .غير أنها كانت لطيفة أيضا، وأنا أحببتُها من البداية .وفي أثناء الفصل حصلت حادثة زادتني تعلّقا بها.

غبتُ عن المدرسة في أحد الأيام، وعندما عدت في اليوم التالي تجمّعت الفتيات حولي وصرن يناديني مُدللة المعلّمة.

"سألتهنّ" :لِمَ تلقبّنّني بهذا الإسم؟."

ثمّ حكَين لي القصّة .عندما نادت الآنسة كاكس على الأسماء وعرفت أنّني لستُ في مقعدي، قالت بأنها تُدرك أنّه لا بدّ من وجود أمر هام يمنعني من القدوم إلى المدرسة لأنّني واعية جدّا؛ وعلاوة على دقّة مواعيدي واجتهادي، أُعجبتْ بي لشجاعتي في الكفاح من أجل التغلّب على إعاقة عينَيّ، وأخبرت التلاميذ أنها فخورة بكونها معلّمتي.

لم أصدّق ما سمعته في البداية، لكنّهنّ أصررن على صحّة كلامهنّ .لم أستطع أن أفهم كيف تفتخر معلّمة بوجود فتاة بشعة المنظر بين تلاميذها .لكنّ الثناء وقع في قلبي وجعلني أبذل جهدا أكبر ممّا سبق للسير قدُما.

وفي الفصل الثاني وجدتُ أنّ معلّمتي الآنسة أوهيرن تحبّ الأدبَ أكثر من أيّ موضوع آخر كانت تعلّمنا إيّاه؛ ولولعها به، جعلتنا نقدّره أيضا .صرنا نألف عدّة قصص من الأدب الكلاسيكي، وكانت تشرح لنا معانيَها بلغة مبسّطة للغاية إلى حدّ أنّه كان يسهل متابعة ما كانت تقوله .درسنا" :يوليوس قيصر"، وفي أثناء ذلك أدّينا تمثيلية لجزء منها وحفظنا فقرات طويلة منها.

دعت الأنسةُ أوهيرن الدكتور جَي أس مونتغمري، الذي قد كان في مقاطعة ستراتفورد-أون-أفون، ليتحدّث إلينا. ولن أنسى الأثر الذي تركه حديثُه في نفسي .تلك كانت المرّة الوحيدة التي وقف فيها شخص يملك معلومات تتصل بشكلٍ مباشرٍ بدراستي ليتحدّث عمّا رآه وسمعه .كنتُ قد رأيتُ الرئيس ماكينلي في أثناء ركوبه في استعراض النصر في مينيبوليس في نهاية الحرب الإسبانية الأميركية، لكن حتى الرئيس لم يكن في نظرنا نحن الأطفال آنذاك بمثل أهمّية شخص كانَ قد استنشق الهواء في ستراتفورد أون أفون، ومشى في الشوارع القديمة وكان في المنزل الذي كان قد عاش فيه شكسبير مع آن هاثاواي وأطفالهما الثلاثة.

شجّعتنا الآنسةُ أوهيرن أيضا على القراءة الصامتة خارج المدرسة، وذكرت كتبا رأت أنّنا قد نستمتع بها .وباستثناء الروايات الكلاسيكية الأسكندنافية التي أحضرها والدانا إلى المنزل، مثّل ذلك أوّل توجيه حقيقي تلقّيته في المطالعة . ورغم وجود مكتبة فرعية ليست بعيدة عن منزلنا، إلّا إنّه كانَ من الصعب عليّ أنْ أرى بوضوح يمكنني من أنْ أختار كتابا ما، ولأنّ أمين المكتبة لا يحبّ الأطفال، فإنّه لم يقدّم لي أيّ مساعدة.

طالعتُ في فصل الصيف كلّ الكتب التي أمكنني وضع يديّ عليها – تلك الكتب التي سمح لي أصدقائي في المدينة بأخذها معي إلى البحيرة، وبعد أن كنتُ قد إلتهمتها قمتُ بقراءة كلّ كتاب أمكنني الحصول عليه من المنازل القريبة من المزرعة .بالكاد كان سيوافق المستشارون الحديثون، المختصون بكتب الأحداث، على كثير من الكتب التي حصلت عليها بهذه الطريقة – فقد ضمّت المجموعة مؤلّفات بيرثا كلاي، وأوغوستا إيفانز وماري كوريلّي وغيرهم – لكنّي لا أجد أيّ ضررٌ محدّد تسبّبت لي بِهِ تلك الكتب، وصرت أعرف كثيرا من المؤلّفين المرموقين.

بالممارسة المستمرّة اصبحتُ قارئة سريعة جدّا .الكتب التي هي أضخم من أن أضعها في حضني، كنت أضعها على الأرضية وأقرأ وأنا منحية فوقها .الكتب الصغيرة، التي كانَ من الصعب حملها بشكلٍ مريح، مثل كتب الجغرافيا المدرسية، كانَ عليّ أنْ أغوص فيها، وحتى مع ذلك، فقد كان يصعب عليّ قراءة ما في ذلك الجزء من الصفحة الذي في وسط الكتاب .الكتاب الصغير الحجم كان يسبّب لي أكبر المشكلات، لأنّه كانَ يتعيّن عليّ وضع عيني فوق كلّ كلمة مدّة طويلة تستلزم كثيرا من التركيز إلى حدّ يمنعني من المضيّ في قراءتِهِ.

كنت أغنّي كثيرا وأنا فتاة صغيرة، لكن بعد إصابتي بمرض الخانوق، فقدتُ صوتي بالكامل مدّة من الوقت .وعندما استعدته غدا مبحوحا ولم أعد أستطيع الغناء، ولذلك جلست على مقعد البيانو ونقرت بإصبع واحدة على المفاتيح التي تقابل نغمات الأغاني التي اعتدت غناءها.

عندما بلغت التاسعة بدأت بتلقّي دروس في العزف على البيانو.

لم أستطع قراءة النوتات الموسيقية إلاّ بتقريب عيني من الورقة المنصوبة أمامي، وتعيّن عليّ تحريك عيني بعيدا عن كلّ ميزان أقوم بعزفِه .ولكي أسهّل التمرين على نفسي صمّمتُ نظاما خاصّا بي .ثبّتُّ أولا بضع نوتات في ذهني، ثمّ تعلمتُ كيفية عزفها على لوحة مفاتيح البيانو .حفظتُ بقيّة النوتات والوضع الصحيح للأصابع بالطريقة ذاتها .ثمّ حاولت تذكّر الميزان بأكمله، وبعد إتمام ذلك بدأت بالعمل على الميزان التالي .واظبت على المحاولة إلى أن حفظتُ السطر الأوّل كلّه عن ظهر قلب .وصرت بعد أنْ أحفظ اللحن أعزف بيسر لأنّني أتمكّن عندئذٍ من تخمين النوتات المرافقة التي تناسبه وإدراك التشكيلات المتنوّعة لهذا اللحن في كلّ مرّة تكرّر فيها ضمن القطعة التي أتدرّب على عزفها.

وَجَب عليّ أن أعود للتدرّب على الأجزاء الأصعب لأتمكّن من عزفها دون أخطاء . كانت نوتات التزيين الموسيقية أمر سيء، لصغر حجمها إلى حدّ أنّني كنت أغفلها أحيانا حتى عندما أقرّب عيني إلى النوتة .واتبّع أستاذي هاينريخ غونارسون، الذي درّسني الموسيقى سنوات طويلة، طريقة صارمة جدّا معي، وبذل جهدا كبيرا من أجلي بالمطالبة بأن أعزف كلّ لحن أختاره بدقّة متناهية.

بما أنّه وجب عليّ حفظ كلّ لحن أعزفه، بقي تقدّمي في تعلّم العزف على البيانو بطيئا جدّا مدّة من الزمن .لكنّني درّبتُ أذني وأصابعي في النهاية بحيث أصبح بإمكاني أن أعزف قطع موسيقية بسيطة بعد أن أكرّرها عددا قليلا من المرّات وحسب .ولقد جمعت ذخيرة فنّية جيدة لم أحتج معها إلى نوتات مكتوبة.

في فصل الربيع الذي أكملتُ فيه الصفَّ الثامن أدّيت معزوفتي الأولى على البيانو، كانت» :حلم ليلة في منتصف الصيف «لميندلسون، وصنّفني الأستاذ غونارسون التلميذة الأكثر تفوّقا.

وفي أثناء السنة الدراسية ذاتها حصلت حادثتان أخريان كان لهما تأثير كبير في حياتي في السنين اللاحقة.

الأولى ميلاد شقيقتي الصغرى .كانت طفلة صعبة الإرضاء، لكنّها بعد أن كبرت وصار التعامل معها أيسر، صرت أهتمّ بها وألعب معها متى ما كنتُ في المنزل، وأحببتها أكثر من أيّ شيء آخر في حياتي.

الحادثة الثانية التحضير للمعمودية .كان قسّسينا رجلا بسيطا مخلصا تكبّد مشقّة تفسير تعاليم المسيح لنا نحن الصغار .وكان إيمانه قويا إلى حدّ أنّه ألهمنا الإيمان أيضا بأنّه مهما حصل لنا، هناك الإله الواحد الذي يوجّه حياتنا ويعيننا حين نكون في أمسّ الحاجة إلى العون .ولم تعد عينَيّ على ذلك القدر من السوء بعد أن أصغيت إلى حديثه إلينا.

في أثناء القدّاس بعد تعميدي، عُمّدت شقيقتي الصغيرة، وسُمّيت دوروثي إفيلين.

أخبرتني المعلّمة التي سجّلتني في الفصل الأول بالمدرسة الثانوية أنّ الرسم الحرّ إلزامي لجميع طلاب الصف الثانوي الأول.

اعترضت قائلة" :أوه، لكنّني لا أقدر على ذلك، أنا لا أستطيع الرسم، بالفعل لا أستطيع."

ابتسمت المعلّمة وسألتني" :ألا ترَين أنّها فرصة ممتازة لتتعلّمي؟ في النهاية، هذا هو المراد من المدارس."

ارتجفت خوفا عندما دخلتُ الصفّ في اليوم الأوّل .بدا المدرّب مقتدرا ولطيفا، وكانت انطلاقة بقيّة الطلاّب رائعة بخلافي .وقدّمت لي المعلّمة عونا إضافيا، لكن إنْ طرأ أيّ تطوّر، فقد كان نحو الأسوأ – أو هذا ما بدا على الأقل عند المقارنة بأعمال بقيّة الطلبة .وفي آخر المطاف استدعتني المعلّمة إلى مكتبها.

قالت لي" :ليس لديكِ حسّ فنّي، التناسب، الخطوط، الألوان، الواضح أنّها لا تعني لكِ شيئا."

بدت بالغة اللطف معي إلى حدّ أنّني لم أُجرَح بكلامها .وعلاوة على ذلك وافقْتها القول بأنّي لست بفنّانة .لكنّي لم أكن لأخبرها عمّا اشتبهتُ أنّه المسؤول عن مشكلتي، ولو جزئيا، وهو أنّني لا أستطيع أن أرى بالوضوح الكافي لأرسم: إذا قرّبت وجهي من النماذج أفقد حسّ المنظور، وإذا نظرت إليها من بعيد تَتَضبّب ولا يعود لها شكل محدّد.

قرّرتُ أن أتوجّه إلى السيد أوزْياس ناظر المرحلة الثانوية لأطلب نصيحته، قلت له" :يا سيّد أوزْياس، أنا متأخّرة في الرسم بالنسبة لطلاّب المرحلة الثانوية، أنا أسوأ رسّامة في مدرسة ساوث هاي، ومادّة الرسم إلزامية للتخرّج، ووالداي يريدانني أن أتخرّج، فماذا عليّ أن أفعل؟."

ضحك السيد أوزْياس وقال'» :الكلب لن يعضّ خنزيرا، والخنزير لن يقفز فوق السور، وأنا لن أصل إلى المنزل الليلة .'أمر شبيه بقصّة اعتدتُ قراءتها وأنا صبيّ.«

لا بدّ أنّ شيئا بدر منّي وأنبأه كم أنا جادّة لأنّه توقّف عن الضحك فجأة وبدأ بالتحدّث إليّ بجدّية.

قال وهو يستدير نحو طاولته" :حسنا، لنرَ، هذا مخطّط يحتوي على برنامج دراسي للمدرسة، هل فكّرتِ بمادّة بديلة عن الرسم إذا سُمح لكِ بطرحها؟."

أجبته على الفور" :اللغة الفرنسية."

"اللغة الفرنسية؟ أنتِ طالبة في الأوّل ثانوي، أنتِ متأخّرة شهرا الآن وبالكاد نستطيع إلتماس السيد دي بوسير."...

"إلتمستُه للتوّ وقال إنّه لا يجد مشكلة في ذلك، قال إنّ صفّ المبتدئين لم يدرس سوى الأفعال حتى الآن، وأنّه سيساعدني على تعويض ما فاتني بعد انتهاء الدوام . سأتعلّم كلّ موادّ اللغة الفرنسية التي تُدرَّس في ساوث هاي إذا سمحتَ لي بطرح مادّة الرسم الحرّ."

أجابني السيد أوزياس مبتسما" :لا يظهر على الأقلّ بأنّكِ تحاولين التهرّب من فروضك."

أحببتُ اللغة الفرنسية كثيرا إلى حدّ أنّني درستها طوال سنتين، ثمّ أصبحت شغوفة بدراسة اللغات إلى حدّ أنّني قضيتُ ثلاث سنوات في تعلّم اللغة الألمانية واللغة اللاتينية قبل تخرّجي من المدرسة الثانوية.

فطنتُ لاحقا، خاصة بعد أن أصبحتُ معلّمة، إلى مدى لطف السيد دي بوسير عندما بذل في تعليمي جهدا إضافيا بعد إمضائه يوما كاملا في التدريس، وبقيتُ ممتَنّة له طوال حياتي بسبب ذلك.

كانت قاعة اجتماعات الصفّ الأوّل ثانوي معتمة جدا، وتملّكني الخوف دائما من أن أسير في الممشى الخطأ عند دخولي الغرفة من الواجهة، وهو ما كان يتحتّم عليّ فعله، ومن أنْ لا أتمكّن من العثور على مقعدي .وكنت متوتّرة أيضا وأنا أمام هذا العدد الكبير من الطلاّب مخافة أن أخطئ في القيام بشيءٍ ما يُظهرني أضحوكة في نظرهم.

تأخّرت أكثر من المعتاد في اليوم الأخير من الفصل الأول في العودة إلى القاعة لأنّه تعيّن عليّ التوقّف لأسأل معلّم مادّة الجبر عن أمر لم أفهمه .وعندما سرتُ عبر الحيّز الرحب قبالة القاعة بدا لي أنّني الطالبة الوحيدة التي لم تكن في مقعدها . توجّهت نحو الممشى ومشيت نصف المسافة إلى أن أصبحت على مقربة من مقعدي في مؤخّرة الصفّ عندما سمعت تصفيقا بالأيدي وضحكا في شتّى أرجاء الغرفة .أحسست باحمرار وجنتيّ وشددت نطاقي وطوقي وحزامي لأتأكّد من إنّها في أوضاع صحيحة، ونظرت إلى أسفل لأرى إن كانت تنوّرتي الداخلية ظاهرة .وبما أنّني لم أجد ما يعيب، شاركتهم الضحك والتصفيق، مدّعية أنّي أتحلّى بروح رياضية حيال ما يجري مهما كان.

لازمني القلق لبقيّة اليوم ممّا كان قد حدث في قاعة الطلاّب .وفي نهاية المطاف، عندما تهيّأتُ و"ويني"، وهي الفتاة التي تجلس في الجهة المقابلة لي، للعودة إلى المنزل وأصبحنا بمفردنا في غرفة الملابس، استجمعتُ شجاعة كافية لأسألها عن ما كان قد سبب الهياج بين جموع الطلبة في الصباح.

صاحَت متعجّبة» :لماذا يا بورغيلد، ظننتُ أنّكِ تعرفين .اسمك واسم تشارلز هيكسونس وأديل أيد سوينْبورن على لوحة الشرف لطلاّب الأوّل ثانوي لهذا الفصل."

كان ضربا من السخف من ناحيتي أنْ أكون متحمسة تجاه الفتيان والفتيات في مدرسة ساوث هاي .لقد عاملوني طوال السنين الأربع التي قضيتها هناك بلطف ومراعاة بالغة .وكانوا مجموعة ديمقراطية حسنة الأخلاق، وعلى استعداد دائما لمنح أيّ شخص فرصة عادلة .وأصبحت صديقة مقرّبة للكثير منهم، وأحسست معهم بسعادة غامرة إلى حدّ أنّي نلت علامات غير مُرضية في السلوك لأنّي كنت أهمس كثيرا في ساعات الدراسة.

واجهتُ صعوبة في متابعة طرائق إثبات نظريات الهندسة على اللوح ما لم أكن مستعدّة بشكل كامل، وحتى في حال استعدادي لم أكن مطمئنّة أحيانا إلى اتّباعي الطريقة الصحيحة .مع ذلك، بإستثناء بضع نقاط وضحّها لي والدي، فإنّي تمكّنت من أن أبلي بلاء حسنا في الصفّ.

ذاتَ يوم، ولأنّي كنتُ عاجزة عن رؤية ما كان يجري، نلتُ ثناء سبّب لي إحراجا كبيرا .كان الموضوع الزوايا المتوازية، والمسألة التي سعيت لحلّها كانت تعتمد على شيءٍ ما كنتُ قد أغفلته في حصّة اليوم السابق .ولأنّ والدي كانَ خارج البلدة،

جاهدتُ لحلها بنفسي على مدار ساعات .وفي آخر المطاف اعتقدت بأنّي قد وجدت حلا صحيحا.

وفي اليوم التالي طُلِبَ إلي برهنة النظرية الأصلية .كنت متوتّرة وأنا أقف أمام السبّورة لأنّي كنت متأكّدة من عدم إستخدامي الطريقة الصحيحة .وعندما انتهيت هتفَتْ معلّمتي، الآنسة سواين" :لماذا يا بورغيلد، هذا عمل عبقري .إنّه يُظهر تفكيرا إبداعيا، أتمنّى لو أنّ بعضا منكم يتحمّل عناء البحث خارج الكتب الدراسية."

بعد تلك الحادثة، بتُّ أُسأل عن رأيي دائما بشأن النظريات الأصلية .كانَ حصول ذلك قُبَيل انتهاء الفصل الدراسي مصادفة سعيدة، لأنّ الأمر لم يكن سيطول بالبعض قبل أن يكتشفوا أنّ ما كنت أعرفه عن الهندسة أقلّ بكثير مما كانوا يعتقدون.

وعندما أصبحت في مرحلة التخرّج، صرتُ تحت تأثير الآنسة إيلين واتس، الناظرة الأولى ومعلّمتي التي درّستني مادّة الأدب .كان في صفّ التخرّج أكثر من مئة طالب، وكان صفّ الأدب كبيرا جدا، ولم يتعرّف أحد بالآنسة واتس عن قرب .لم تكن من الأشخاص الذين يألفهم الطلاب على أيّ حال، لكنّها جعلتنا نحسّ بأنّ أيّ عمل نؤدّيه يعني لها الكثير، وكان لها أسلوب ذكي في إطلاعنا على نقاط قوّتنا ونقاط ضعفنا.

استعرضت الشخصيات الخيالية في صفّ الأدب بطريقة حيّة للغاية بحيث إنّي لم أنسَ أبدا تلكم الشخصيات .وبعد أن كانت تنتهي من محاضرتها حولَ مؤلّف

ما، كنتُ أشعر كما لو أنّي أعرف بدقّة أيّ نوعٍ من الأشخاص هو، وما الذي كان قد حاولَ الإفصاح عنه في كتبه.

كنّا نقومُ بدراسة أديسون وستيل، وعندما فرغنا من القراءة عنهما وأنصتنا إلى محاضرة الآنسة واتس، طلبت منّا كتابة موضوع له صلة بالعمل الذي قد درسناه .كتبت ورقة عن السير روجر دي كوفرْلي، وحاكيتُ أساليب المؤلّفَينِ ووضعتُ السير روجر في حلبة تزحلق حديثة.

قالت لي الآنسة واتس» :لقد أدّيتِ مهمّة محاكاة أديسون وستيل بطريقة متقنة، أعتقد أنّه سيأتي يوم تصبحين فيه قادرة على الكتابة بأسلوبك المميَّز الخاصّ .« ولا بدّ أنّ أمارات التشكيك ظهرت عليّ، لأنّها أضافت" :أنا أعني حقّا ما أقول."

أسعدني ثناء الآنسة واتس لأنّها لم تكن تجامل كثيرا، وتمنّيت في نفسي أن أتمكّن من الكتابة بإتقان في يوم من الأيام، رغم أنه بدا لي هدفا أبعد بكثير من أن آمل بتحقيقه .لكن حين أصبحت في الصفّ السابع، وافقت" جورنال جونيور"، وهي صحيفة تابعة لصحيفة" مينيبوليس جورنال"، وكانت مكرّسة بالكامل لقصص الأطفال المهتمّين بالكتابة، على نشر إحدى قصصي .وكانت لي إسهامات منتظمة وأنا في المرحلة الثانوية في" جورنال جونيور "وفزت بجوائز عدّة .عيّنتني محرّرةُ هذه الصحيفة، الآنسة ماي هاريس أنسون، كمراسلة للصحيفة في ثانوية ساوث هاي .لكن في النهاية لم يكن من الممكن عدّ أيّا من هذه الأعمال إنجازا أدبيا حقيقيا.

كان ثناء الآنسة واتس حافزا لي لأزيد جهدي المبذول في الكتابة، وكوفئت باختياري شاعرة الصفّ، وعندما صدر العدد السنوي لطلاب المرحلة الثانوية، نُشرت قصيدتي فيها.

سعيت للمشاركة في المناظرات، وشاركت في مسابقات شفهية كثيرة، لكنّني لم أفز في أيّ منها، وعقب محاولتي الأخيرة في الصف الأول ثانوي شعرت في أحد الأيام بإحباط شديد .استدعتني الآنسة واتس إلى مكتبها عصر اليوم التالي.

قالت لي" :كنتُ أراقبكِ اليوم، بدأتِ تشعرين كما لو أنّك أخفقتِ في خطبة عامّة لأنّه لم يقع عليك الاختيار كأحد الفائزين .سواء وقع الاختيار عليكِ أم لا، فإنّ المسألة في هذهِ المسابقات، التي شاركتِ فيها، هي مسألة رأي خاصّ بالحكّام، كما تعرفين .وإذا واظبتِ على المحاولة، فستلتقين في أحد الأيام بحكَم يعجبه ما تقولين .وعندئذٍ تكونين مُستعدّة للإنتصار الحقيقي لأنّك ستكونين قد تعلّمتِ تقدير ثمنه."

ثمّ طُلب منّي في نهاية المرحلة الثانوية أن أكون في عداد المتكلّمين في تمارين حفلة توزيع الشهادات.

في اليوم الذي أعقب تخرّجي في المدرسة الثانوية، التقيتُ إحدى جاراتنا في الشارع .فقالت لي" :كنتِ رائعة ليلة أمس .كنتِ ترتدينَ واحدا من أجمل الفساتين وسطَ سائر الخرّيجات؛ وكانت كلمتكِ رائعة أيضا .لكنّني قلتُ لزوجي كم كان سيئا أنكِ قرأتِ برنامجك في أثناء الحفل بحيث أظهرتِ للجميع كم ضعيفة البصر أنت .لقد كانَت الأضواء منعكسة على نظّارتكِ، وما كان لأحد أنْ ينتبه إلى عينيك، لو لا أنْ فعلت ذلك."

لقد جرحتْ مشاعري بملاحظتها، لكنّني كنتُ أعرف بأنّ ما قالته كان صحيحا . ففي غمرة تلهّفي لرؤية اسمي على البرنامج المطبوع، نسيت أن أمارس حذري المعتاد في الانتظار ريثما أعود إلى المنزل لأنظر إلى أيّ شيء مُنحتُه علانية.

لم أجبْ، لكنّني قلت في نفسي، بأنّه لن أتيح الفرصة، إنْ قدرتُ على ذلك، لأيّ كان للإدلاء بمثل هذه الملاحظة بعد الآن.

الغريب أنّ التمرين البدني أقلقني كثيرا في سنتي الأولى في الجامعة .كنت أدرس مادّة الرياضيات فور فراغي من التمرين، وكانت هناك مسافة تفصل بين مكانيّ الحصّتين .ووجب عليّ الإسراع دائما في ارتداء ثيابي والانتقال من آرموري إلى قاعة فولويل؛ وإذا استبقَونا في الطابق الأرضي لإجراء التمرين البدني ولو لدقيقة بعد قرع الجرس، أنفعل إلى حدّ الجنون كنتُ أتخيّل بأنّي قد أقوم بإرتداء بعض ثيابي على غير وجهها الصحيح في غمرة العجلة، وأنّني سأجعل من نفسي أضحوكة، أثناء قيامي بشرح مسألة في صفّ الرياضيات أمام السبّورة .فارتداء الثياب مسألة يسيرة بالنسبة إلى الفتيات الأخريات .فبلمحة واحدة إلى المرآة، يعرفن إن كان مظهرهنّ على ما يرام .لكنّني اعتدت ارتداء ثيابي بتأنٍّ، وتحسّس كلّ قطعة، وهو ما جعل ارتدائي لثيابي عملية بطيئة جدا .كنتُ ألبسُ ثلاثا وعشرين قطعة ثياب في تلك الأيام، إذ إنّني أحصيتها ذات مرّة، وكانت ثيابي نموذجية لفتاة جامعية عادية .بل إنّ مجرّد تعهّد كلّ هذه اللوازم في خزانتي كان مهمّة في حدّ ذاتها.

ارتدينا لحفلة الكريسماس ثيابا أنيقة عوضا عن ثيابنا الرياضية العادية، وبعد انتهاء الحفلة وضعت نصف ثيابي في حقيبتي المدرسية وذهبت إلى حصّة الرياضيات.

»لكِ أنْ تحلّي أوّل مسألة رياضيات اليوم على السبّورة«، قال لي البرفسور شومْواي، ما أن دخلتُ القاعة في عجلة.

قلت" :أنا غير مستعدّة."

شجّعني قائلا" :حاولي."

أجبته" :لكنّني لا أستطيع."

نظر إليّ باشمئزاز وقال" :قطعنا شوطا طويلا الآن، لذلك يجدر أن تكوني قادرة على حلّ هذه المسألة من دون أيّ تحضير."

لم أستطع إخباره أنّني لا أضع طوقا ولا زنّارا، وأنّني أمسك بحزامي بيدي بعد أن كان قد انحلّ.

ولاحقا عندما بدأنا باستخدام مضمار الجري من أجل التمارين البدنية، بقيت أعاني من أوقات عصيبة بسببه .إذ كان المضمار يمتدّ بموازاة الشرفة العالية فوق الطابق الرئيس، وكان مُضاءا بصورةٍ سيئة .وبعد أن نجوت بأعجوبة عدّة مرات عندما كدت أنْ أسقط على رأسي في الساحة الرئيسية لمبنى الألعاب الرياضية، أدركتُ بأنّ عليّ فعل شيء إذا كنت أنوي الاستمرار مع الآخرين .لذلك ذهبت باكرا صباح أحد الأيام إلى أرموري قبل وصول الآخرين إلى هناك ومشيت

ببطء حولَ المضمار .عاينتُ كلَّ جزء بدقّة، وحبوت على يدَيّ وركبتَيّ في الأماكن المعتمة لأتأكّد من أنّني لم أُغفل شيئا يمكن أن أتعثّر به .وبعد أن اقتنعت بأنّي ألِفتُ المضمارَ تماما، جريت على سبيل التجربة .بعد ذلك، لم تحصل لي أيّ حادثة ولم أعد أخشى من شيء.

خلال الفصل الثاني من سنتي الجامعية الأولى، عانيت من صعوبات في علم المثلّثات، والتي كانت مادّة إلزامية على الجميع .ولم أستطع متابعة ما يُكتب على السبّور لعدم قدرتي على رؤية الأشكال .كما كان من الصعب عليّ أيضا قراءة جداول اللوغاريتمات، المطبوعة بحروف صغيرة جدا في كتابنا .ومع دنوّ نهاية الفصل ألفيتُ نفسي ضمن مجموعة قريبة بشكلٍ خطير من الرسوب.

قال لي والدي حين أطلعته على ورطتي" :سأشعر بالخجل من الاعتراف بأنّ ابنة لي رسبت في مادّة الرياضيات .ما الذي يبدو المشكلة؟."

لم أرغب يوما في الاعتراف لوالدي بعجزي عن الرؤية، لكن لم يكن هناك مفرّ هذه المرّة.

سألني" :لِمَ لم تُخبريني من قبل؟ أنا متأكّد من قدرتي على مساعدتكِ."

أمضينا أمسيات على مدى أسابيع بعد ذلك في الدراسة معا .كان يقرأ أعمدة الجداول اللوغاريتمية بصوت عالٍ، ويدرّبني على الصيغ الأساسية ويساعدني في المسائل القياسية.

وفي نهاية الفصل نجحت في مادّة علم المثلّثات بتقدير جيد.

قال لي البروفسور شومْواي حين التقيته لاحقا" :قدرتكِ على استيعاب الموضوع أكبر بكثير ممّا كنت أعتقد. فقد أجبتِ عن كل الأساسيات في أسئلة الامتحان."

في نهاية الفصل الأول من سنتي الجامعية الثانية، وقُبَيل بدء الامتحانات، تُوفّي والدي فجأة إثر إصابته بنوبة قلبية .وكانت هذهِ هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بحزن كبير، ولم يعد العالم كما كان بعد وفاته .لقد خسرتُ صحبته الطريفة واهتمامه البالغ في كلّ شيء كنتُ أفعله.

اشترى معزوفاته الموسيقية المفضَّلة وجلس ساعات يُنصت إليّ ليتأكّد من أنّني أعزفها على الوجه الصحيح .وخلال إنتقالنا إلى منزلنا المطلّ على البحيرة في فصل الصيف، كان يتوجّه إلى المحطّة كل يوم أحد ليشتري صحيفة لأتبين ما إذا كانت قصّتي قد نُشرت على صفحات جورنال جونيور لذلك الأسبوع .رسم لي خرائط جميلة في الجغرافيا والتاريخ .وحثّني دائما على تقديم أفضل ما عندي في واجباتي المدرسية المنتظمة في المدرسة.

كان يسألني" :ألا تستطيعين تقديم أداء أفضل ولو بقليل؟."

سألني في إحدى المرّات بحكم العادة ذلك السؤال حين أحضرت من المدرسة بطاقة علاماتي المدرسية.

»لكنّني حصلتُ على ثمانية وتسعين في مادّتين «قلت له، شاعرة بالألم لعدم تقديره لجهودي.

ساءت الأحوال في المنزل أيضا بعد رحيله .أصاب أمّي حزن وقلق، واعتمدت عليّ من البداية في مساعدتها على إدارة أعمالها المهنية والمنزلية) أجّرنا عدّة غرف في

منزلنا في الحال(، ومساعدتها في رعاية أبنائها الصغار .تنبّهتُ إلى حاجتي إلى كسب قوتي في أسرع وقت ممكن، فقرّرت أن أصبح معلّمة لغة إنكليزية .كان يمكن لي البقاء في المنزل ريثما أنال شهادة البكالوريوس من الجامعة .وتوقّفت عن تلقّي دروس في آلات النفخ الموسيقية بعد أن كان والدي قد ألحقني بها مؤخّرا، وفي المقابل أمّنتُ أكبر عدد ممكن من التلاميذ الذين يودّون تعلّم العزف على البيانو لأحصل على ثمن كتبي وكلفة تعليمي الجامعي.

بقيت أؤجّل اختيار تخصّصي لعدم قدرتي على حسم رأيي فيه .وكنت قد جرّبت مادّة الفيزياء في المدرسة الثانويّة، لكن تعيّن عليّ التوقّف عن دراستها لأنّها تتطلّب عملا دقيقا في المختبر .وبما أنّ مادّة الفيزياء في الجامعة اختيارية، فإنّ ذلك لم يُشعرني بالقلق؛ إذ كان أمامي عدد وافر من حصص اللغات التي يمكنها أن تحلّ محلّ حصة الفيزياء. لكن، في الكليّة، كان عليّ دراسة الفيزياء كمادّة مكمّلة للعلوم.

درست الفهرس، وحاولت اختيار موضوع معيّن، وفي النهاية اعتقدت أنّني عرفت التخصّص المناسب؛ وجدت مقرّرا من أربعة فصول في الجيولوجيا وليس فيه أعمال مختبر.

سارت السنة الأولى في دراستي للجيولوجيا على خير ما يرام .غطّتْ الكتبُ الجامعية والمحاضرات التي ألقاها الأساتذة الجامعيون كلَّ ما إحتجتُ إلى معرفتِه، وكلّ ما كان عليّ فعله هو كتابة ملاحظات دقيقة حول مادّة الكتب ومادّة المحاضرات وحفظها عن ظهر قلب .لقد كانت الرحلات الميدانية الخاصة بالجيولوجيا والجغرافيا بولاية مينيسوتا مسليّة، وكنتُ قد بدأتُ أشعر بالارتياح

لأنّي قد أوشكت على إنهاء الموادّ العلمية التكميلية، حينَ وجدت نفسي فجأة غارقة في مشكلة مستعصية جعلتني أعتقد بأنّي لن أكون قادرة على التخرّج من كلّية العلوم والآداب والفنون في الجامعة.

سجّلت اسمي في أعمال الفصل الأخير في مادّة بدت جيّدة في الجدول كبقيّة المقرّرات، وشرعت في دراستها وأنا مملوءة ثقة بالنفس .مع ذلك، بعد أيام قليلة بدأت تساورني الشكوك؛ إذ حين كان البروفسور يحضر صخورا إلى الصفّ ويسأل عن مكوّناتها الكيميائية، بدا الجميع قادرين على تقديم الإجابات الصحيحة إلا أنا .لم يتسنى لي أنْ أعرف من أين حصل الطلاّب على معلوماتهم، وبعد أن أخفقت للمرّة الرابعة أو الخامسة، سألتُ شابّا جالسا بجواري عن كيفية تعرّفه وتعرّف كلّ شخص آخر على محتويات الصخور بالنظر إليها.

أجابني" :الأمر يسير، درسنا ذلك في مقرّر الكيمياء."

سألته" :هل تلقّى كلُّ من في الصفّ مقرّرَ الكيمياء؟"

أجابني" :بالتأكيد، تلقّيه شرط مسبق لتلقّي هذا المقرّر."

فهمت ما حصل.

سألني" :هل تعنين القول بأنكِ لم تدرسي مقرّر الكيمياء؟"

اكتفيت بالتحديق في وجهه.

هزّ كتفيه، لا مباليا، وقال" :ستقضين وقتا مسلّيا هنا من دونه."

قلت له" :لكن وجب عليّ ببساطة دراسة هذه الحصّة لأكمل موادّي العلمية التكميلية .ماذا سأفعل بحقّ العالَم؟ أليست هناك طريقة لأتعلّم المركّبات الكيميائية للصخور وأجمع ما يكفي من المعلومات لأنجح في المقرّر؟."

فكّر دقيقة» لديّ في المنزل كتاب ربّما يساعدكِ«، ، ثمّ قال،» لكنّي أشكّ أنْ يكون بمقدورك تذكّر نصف ما فيه من دون الدراسة في الصفّ.«

أجبته» :يمكنني المحاولة.«

أحضر الشابُّ الكتاب، وواظبت طوال أسابيع على حفظ قوائم لا نهاية لها من الصيغ التي لم تعنِ لي شيئا على الإطلاق .وفي نهاية الفصل أحسست أنّني تلقّيت ثلاث حصص في الرياضة العقلية عوضا عن علم الحفريات القديمة، وهو الإسم الذي يرد تحته المقرّر في الفهرس.

واصلتُ دراستي للغتين الألمانية والفرنسية في الجامعة، ودرست اللغة الإنكليزية القديمة والإنكليزية الوسطى أيضا، وكانتا أشبه بلغتين أجنبيتين أخريَين.

»لِمَ تدرسين هذا العدد الكبير من اللغات من غير أن تفكّري قطّ في لغة قومكِ؟«، سألتني أمّي في أحد الأيام عندما سمعتني أقرأ قطعة من Song Of the Creationلكادمون :أجبتها بحيوية» :لم أدرس كلّ اللغات بعد، فهناك الإسبانية والإيطالية و.«...

قاطعتني قائلة» :أنتِ تفهمين ما أعنيه، سبق أن علّمتكِ القراءة باللغة النرويجية قبل التحاقك بالمدرسة الأهلية وكنتِ متمكّنة منها، وسيكون تعلّمك إيّاها من جديد سهلا.«

"لكن لماذا يا أمّي؟."

»النرويج لديها أدب جميل ولن يضيرك قراءة بعضه بلغته الأصلية .كنت أظنّ أنّك أحببتِ اللغة النرويجية وأنتِ فتاة صغيرة«، أنهتْ كلامها بحزن.

لذا، إرضاء لأمي، اخترتُ النرويجية كواحدة من موادّي الاختيارية العليا .لكنّني خشيت تكبّد مشقّة الشروع في مقرّر تمهيدي آخر للغة أجنبية وقرّرت ألاّ آخذ مقرّرات تمهيدية في اللغة النرويجية إن قدرتُ على ذلك.

ذهبتُ إلى البروفسور باثني، رئيس قسم اللغة النرويجية، وقلت له إنّني من أصول نرويجية، لكنّني لا أريد إضاعة وقتي في مقرّرات تمهيدية، سلّمني كتابا صغيرا بنّيّ اللون كان موضوعا على طاولته وقال" :اقرئي كتاب قواعد اللغة هذا، وعودي بعد أسبوعٍ، وسنُخضعك لإمتحان عندئذٍ لنعرف إن كنتِ متمكّنة من اللغة النرويجية بقدر ما تظنّين."

أحسست بإحراج شديد، ولم أكنْ أقصد إشعاره بالدهشة بمدى إلمامي باللغة النرويجية، لكنّني أصبحت أمام أمر واقع الآن، ولم يكن في مقدوري فعل شيء غير المضيّ في الأمر.

عدت في غضون أسبوعٍ كما طلب منّي.

قلت وأنا أجلس في انتظار بدء الإختبار» :الأمر الوحيد الذي لاحظته وينفرد به النحو النرويجي أنّ أداة التعريف تصبح لاحقة بالاسم من دون معدِّلات.«

بدت وكأنّ الملاحظة أبهجته، وبعد بضعة أسئلة بسيطة،أطْبق كتابه.

قال وهو ينظر إليّ مبتسما" :أعتقد أنّكِ ستحضرين غدا إلى صفّ الأدب الذي أدرّسه."

كانت تلك في نظري بداية رحلة ممتعة في الأدب النرويجي .قرأت إبسين، وبيورنسون، ويوناس لاي، وفيرغيلاند، وفيلْهافين، وفينيي، والكثير من المؤلّفات الكلاسيكية القديمة الأخرى، والمؤلّفات الحديثة أيضا، ووجدت بأنّي أقوم بما يتجاوز، إلى حدّ كبير، مسألة إرضاء أمّي في دراسة الأدب النرويجي بالكلّية.

لكن برغم كلّ الجهود القصوى أشكّ في أنّني كنت سأتمكّن من مواصلة دراستي الجامعية لولا دماثة أخلاق أصدقائي فيها .كانت صديقتاي الحميمتان، نيلي ويلوك ولورا أوبيرغ، تهتمّان بي .كانتا تحجزان المقعد لي في الصفوف المكتظّة، وتساعدانني في استعمال السلالم المُعتمة وغير المألوفة، وتعيرانني ملاحظاتهما التي نسختاها عن اللوح ولم أستطع رؤيتها، وتحددان لي الأماكن والأشخاص في الساحات، وأسديتا لي ألف صنيع آخر وفّرت لي الوقت وأغنتني عن تكبّد المشاقّ.

وغالبا ما كانتا تتركان لي ملاحظات في صندوقي البريدي.

"بورغيلد، هل عرفتِ أنّ هناك ملصقا في' قاعة فولْويل 'يقول إنّ صفّ اللغة الإنكليزية لن يجتمع اليوم؟."

"سأشتري كتاب التاريخ الجديد الذي أوصى به البروفسور وايت البارحة .لِمَ لا تخطّطين للّقاء بي فوق السلالم قبالة المكتبة ونذهب معا إلى محال بيع الكتب؟ ألم تقولي لي إنّكِ تريدين شراء بعض الكتب من هناك أيضا؟."

"وودرو ويلسون، حاكم ولاية نيوجرسي يلقي كلمة في الكنيسة اليوم .تعالَي بأسرع ما يمكن .سأتوجّه للقائك عند الباب الغربي."

شاركتني نيلي ويلوك كثيرا من صفوف اللغة الإنكليزية والتاريخ .كانت هناك العديد من جولات المطالعة في الهواء الطلق والتي تطلّبها هذين المقرّرين، وقد إعتادت أنْ تقرأ لي بصوت عالٍ على مدارالساعة .وقد أغناني ذلك عن إجهاد عيني، كما أنّها ثبّتت المعلومات التي كانت تغطّيها قراءة في ذهني إلى حدّ أنّني لم أحتج إلى مراجعتها قبل الامتحانات إلاّ نادرا."

انتسبت نيلي ويلوك ولورا إلى مجموعة صغيرة من الفتيات تسمّى سيغما بيتاس وكنتُ قد رافقت هذهِ المجموعة منذ سنتي الجامعية الأولى .في البداية، قلّة منّا، القادمات من ثانوية ساوث هاي-لورا أوبيرغ وآنّا هانسون وميرتل تورنْكويست وإبّا نورمان وأنا-إنخرطت في عادةِ إحضار طعام الغداء من المنزل وتناوله معا في غرفة الطعام الصغيرة في قاعة شيفْلين .وسرعان ما تعرّفنا إلى عصبة من 'سنترال 'ممّن كنّ يجلسن إلى طاولة قريبا منّا .ثمّ انضمّ إلينا عدد قليل من الفتيات القادمات من خارجِ البلدة .وما هي إلاّ مدّة وجيزة حتى صرنا نتنزّه معا ونقيم حفلات صغيرة، ثمّ تحوّلنا إلى جمعية منظّمة أطلقت على نفسها اسم سيغما بيتاس .كنّا منظّمة اجتماعية بالكامل، لكنّ هذه المجموعة الصغيرة عنت لي ما هو أكثر بكثير من ذلك .لقد رفعت معنوياتي بجعلي ضمن فتيات فاتنات ومثيرات للإعجاب بشكلٍ كبير، وأيضا لكونهنّ كنّ متنبّهات إلى كلّ ما كان يحدث حولَنا في الحرَم الجامعيّ، فإنّ مجرد وجودي برفقتهنّ، جعلني أتعلّم أمورا كثيرة كان من الجيد معرفتها.

في الربيع جميعنا، نحنُ طلابَ السنة الأخيرة، الذين كنّا ننتظر أنْ نحظى بمناصب تدريسيّة، كنّا مُتحمّسين .قارنت الفتيات صوَر الطلبات وتبادلْنها، وتحقّقن من الموادّ الأساسية والتكميلية لمعرفة أنّ ما يذكرنه في الطلبات يمكنهنّ تدريسه، وتحدّثن عن التوصيات التي حصلن عليها من أساتذتهنّ الجامعيين.

أصغيتُ إلى كلّ هذه الأحاديث من غير أن أشارك في أيٍّ منها .فحاجتي إلى أن أكسب لقمة عيشي فاقت حاجة أيّ من الفتيات الأخريات بسبب عبء القيام بأعمال منزلنا الكبير، ولأنّ وجودي ووجود إسثِر في الجامعة معا كان يُثقل كاهل أمّي .لقد ساورها القلق باستمرار بسبب وضعنا المالي، وبدا لي أنّ حزنها على والدي يشتدّ أكثر فأكثر .لكن ما من مرّة فكّرت فيها في التدريس إلاّ وتساءلتُ إن كانت عيناي ستجعلان الأمور صعبة عليّ كما قد فعلتا في كلّ شأنٍ قد سعيت للقيام بِه.

لذلك عزمت على فعل ما يمكنني فعله لتأمين منصب في السنة القادمة من غير أن أناقش خططي مع أحد .كنت على ما يرام على صعيد المواضيع الخاصّة بالتدريس .درستُ اللغات الألمانية والفرنسية والنرويجية والإنكليزية وكذلك التاريخ، وكان في وسعي من الناحية النظرية تدريس الجيولوجيا، لكنّني لم أشأ المجازفة بإيجاد صعوبات لا داعي لها بالإشارة إليها في طلبي .طلبت التقاط صوَر فوتوغرافية لي من أجل الطلب، وغمرتني سعادة لا توصف عندما عرفت أنّ عيني المصابة لم تظهر على الإطلاق في الصورة الجانبية التي التقطها المصوّر. تدرّبت على كتابة كلمات الطلب إلى أن تمكّنت من كتابتها على نحو مُرْضٍ .ثمّ

ذهبت إلى واحد من أساتذتي الجامعيين وطلبت منه أن يكتب لي توصية لإكمال طلب التدريس.

سألني" :لماذا تودّين العمل في مجال التعليم؟."

أجبته" :أحتاج إلى كسب لقمة عيشي، كما أنّني كنتُ أتهيّأ لهذا منذ أن دخلت الكلّية."

سألني" :رغم مشكلة عينيكِ؟."

أجبته وقد تسارعت خفقات قلبي" :عشتُ معهما طوال حياتي، وهما لم تمنعاني من دخول الجامعة، وأتوقّع أن أتخرّج هذا الربيع."

قال" :هذه مسألة مختلفة تماما."

سألته" :لماذا مختلفة؟."

نظر إليّ مباشرة وقال" :سأكون صريحا معكِ، أشكّ كثيرا في إمكانية إقناع أيّ مجلس إدارة أو مدير في مدرسة بتوظيفكِ .ومع أنّك أمّنتِ منصبا، إلّا إنّي أرى بأنّكِ لن تتمكّني من الاحتفاظ به .فالطلاّب هذه الأيام لن يتحمّلوا معلّمة بعينين كهاتين .سيضحكون عليكِ ويهزؤون بك؛ وأخشى أنّكِ ستجدين صعوبة في كسب ثقة الآباء أيضا، لأنّهم لن يصدّقوا أنّ لديك القدرة على أنْ تري بالقدر الكافي من الوضوح الذي يمكنك من تأدية العمل."

»لكن«، تلعثمت،» ماذا تقترح عليّ أن أفعل؟.«

فكّر لدقيقة ثمّ قال" :لا أجد إجابة فعلا .عليكِ أن تحلّي تلك المشكلة بنفسكِ . ففي النهاية أنتِ أفضل من يعلم بوضعك .وأنا آسف أنّه عليّ قول ذلك، إذ أنّ أداءك في الصفّ كانَ مقنعاُ للغاية؛ لكنّني لا أستطيع ببساطة أن أشجّعك على التدريس، وأنا متأكّد، بشكلٍ منطقيّ، من أنّك لن تكملي فصلا واحدا."

بقيت في حالةِ تعاسةٍ شديدةٍ طيلة أيام عقبَ تلك المحادثة مع أستاذي إلى حدّ ظننت معه بأنّي لن أتمكّن من مواصلة الحياة .وصرت أشعر بالأسف حيال وجودي في الجامعة بالمطلق .لقد تحاشيت التحدّث إلى الطلاّب الذين أعرفهم، مع أنّني كنت أتعرّف عليهم .وحاولتُ إخفاء وجهي كي لا ينظر إليّ أساتذتي الجامعيون.

أخيرا، تخلّيت عن جهد المحاولة برمّته في عصر أحد الأيام، وعوضا عن التوجّه إلى محاضرة الأدب، سلكتُ الطريقَ الذي كان يودي إلى ضفّة النهر.

سألتُ نفسي بمرارة" :ما الفائدة من المحاولة على أيّ حال؟."

جلستُ على ربوة خضراء ناتئة وسط الماء، وراقبت التيار السريع لنهر المسيسبي وهو يندفعُ مارّا من أمامي .كان النهر مرتفعا، وإندفعَتْ أمواجَه إلى الجرف في الجهة المقابلة لمكان جلوسي .وما هي إلاّ برهة وجيزة حتى جذبت انتباهي دوّامات دوّارة أوقفت جريان المياه المستقرّ، لكنّ التيار المتدفّق على مسافةٍ أبعد واصلَ إكتساحَه كما لو لم يكن هناك ما يعترض طريقَه.

سألت نفسي، لماذا، تسير الأمور معي على هذا النحو .العوائق تعترض طريقي بلا انقطاع، لكنْ لا يمكنها إيقافي .لن توقفني ما لم أسمح لها بذلك كما بدأت أفعل الآن.

مسحتُ دموعي ونهضت، وبعد أن أخذت نفسا عميقا من الهواء المنعش الذي هبّ من النهر، عدت إدراجي إلى الجامعة.

أمسكت بمقبض الباب للحظة قبل دخولي صفّ الأدب حيث كان يجب عليّ مواجهة الطلاّب الذين سيتساءلون عن سبب مجيئي قبيل انتهاء الحصّة.

قلت في نفسي" :سأكون مدرّسة اللغة الإنكليزية في مدرسة ثانوية، أقول لكم إنّي سأفعل، وسأكون مدرّسة جيدة أيضا."

وفي اليوم التالي استجمعت ما يكفي من الشجاعة للذهاب إلى الآنسة ويتني، مدرّسة البلاغة، وأخبرتها عن تجربتي حين سعيت للحصول على توصية تسمح لي بالتدريس.

سألتني بشيء من الفظاظة" :هل ترغبين فعلا في التدريس؟."

أجبتها" :أجل."

"أكثر من أيّ شيء آخر؟."

"أكثر من أيّ شيء آخر أعرف كيفية القيام بهِ في الوقتِ الحاضر."

نظرتْ إليّ بإمعان لدقيقة، ثمّ قالت بلطف» :إذا، اذهبي وافعلي ما تريدين، كانت إحدى أفضل المعلّمات اللاتي عرفتهنّ تدير حصصها وهي ممدّة في جبيرة من الجص .وأنا لا أتذكّر أنّ أحد طلاّبها رمى عليها حجرا واحدا.«

كنت شديدة الامتنان إلى حدّ أنّي عجزتُ عن الكلام.

ومضت تقول" :سأرسل توصياتي اليوم."

نهضتُ وحاولت أن أشكرها.

قالت" :أنا في قمّة السعادة لقيامي بذلك، وآمل أن تنجحي بقدر ما أعتقد أنّكِ ستفعلين."

وعندما التفتُّ لأنصرف قالت" :مهلا، أودّ منكِ الذهاب لرؤية ماريا سانْفورد، لم يسبق أن علّمتكِ، لكنّها تعرفكِ ومهتمّة بأمرك."

لا بدّ وأن علامات الدهشة كانَتْ قد بانَت عليَّ .فربّما كانت ماريا سانفورد أكثر الأساتذة الجامعيين تفوقا وتمتّعا بالمحبّة في الحرم الجامعي .وبدا أنّه من غير المعقول أنّها تعرف بوجودي، لعدم حصول أيّ مناسبة تدعوني للذهاب إليها في السابق.

علّلت الآنسة ويتني طلبها قائلة" :أخبرتُها عنكِ."

وفيما كنت أمشي في الممرّ في الطابق الثالث في فولْويل هول أحسست كما لو أنّني أمشي على الهواء .المفترض أنّ الآنسة ويتني واحدة ممّن لا يمكن التعامل معهم

في هيئة التدريس، لكنها كانَت قد أثنت عليّ كثيرا أمام ماريا سانفورد وجعلتها تهتمّ بأمري.

وجدتُ ماريا سانفورد جالسة إلى مكتبها .شعرها الأبيض، كما الثلج، مفروق في المنتصف، ومُسرّح بإستقامةٍ إلى الوراء، وكانَتْ ترتدي، كالمعتاد، فستانا أسود خاليا من الزركشة خلا كشكش أبيض اللون عند أعلى ياقتها المرتفعة، وسلسلة ساعة طويلة من الذهب .أصغت باهتمام دون أن تقاطعني إلى أن أنهيتُ ما أردت قوله .ثمّ نهضت عن كرسيّها واقتربت منّي ووضعت يدها في يدي.

قالت بصوت غنائي عميق" :لن أدع عينَيّ تقلقاني كثيرا لو كنتُ مكانكِ؛ لأنّك أنجزتِ بالفعل، رغمَ حالتِهما، أكثر ممّا أنجزَ معظم الشباب ممن هم في سنّكِ . كلّنا لدينا إعاقات، كما تعرفين .إعاقات عقلية، وأخلاقية، وروحية .لكنّ إعاقتكِ بدنية وحسب."

[1]خطاب شهير من خطابات الرئيس الأميركي السادس عشر أبراهان لينكولين

الفصل الثالث

في صباح أحد الأيام، فيما كنت أساعد أمّي في غسل الثياب قبل توجّهي إلى حصّتي الأولى في الجامعة، رنّ جرس المنزل.

»أنا سأفتح الباب«، قالت أمّي، «إذ عليّ الصعود على أيّة حال لأصنع النشاء.«

وبعد لحظات سمعتُها تناديني، قالت بلهفة" :تعالَي بسرعة."

صعدتُ السلّم مسرعة، ماسحة يدَيّ بمرِيَلتي وأنا أركض.

قالت وهي تسلّمني مغلّفا طويلا أبيض اللون" :هناك رسالة من سكرتير مجلس إدارة مدرسة توين فالي."

ارتجفتْ يداي إلى حدّ أنّني بالكاد استطعت فتحه، لكن بعد أن قرأتُ الرسالة التي فيه، ظننتُ أنّني أسأت فهم ما ورد فيها.

سلّمتُ الرسالة لأمّي وقلتُ لها" :اقرئيها بنفسكِ."

وبعد برهة قالت" :سيرسل إليك عقد التعليم .ستكونين مساعدة ناظر للمدرسة."

عاينّا معا وثيقة قانونية مرفقة مع الرسالة.

قالت أمّي بصوت عالٍ" :مدّة العقد تسعة شهور، وستنالين ستين دولارا في الشهر."

انقطع صوتها وجلستْ على الكرسيّ الهزّاز بالقرب من النافذة المُطلّة على الخارج في غرفة الجلوس حيث كنّا نقف.

قالت وقد شبكت يديها" :حمدا لله، لقد أُجيبت دعواتي."

وبعد بضعة أيام وصلني عقد آخر .هذه المرّة من مجلس إدارة مدرسة ساكريد هارت بمينيسوتا.

قالت أمّي" :الأفضل أن توقّعي عقد مدرسة توين فالي .إينوش وإليزابيث هناك، وقد دعياكِ إلى الإقامة معهما كما تعرفين .سأكون مرتاحة أكثر بشأنك، خلال السنة الأولى، على الأقلّ، إنْ بقيتِ هناك."

عملتُ بنصيحة أمّي وقبلت المنصب الذي عُرض عليّ في مدرسة توين فالي.

وبعد ذلك أخبرتُ الفتيات بالجامعة عن حظّي السعيد .كان في وسعي مناقشة المناصب التعليمية معهنّ ومشاطرتهنّ المرح الذي كنّ فيه – تخيّل الالتقاء بالآباء الغاضبين، والمدراء غريبي الأطوار، ومجالس إدارات المدارس البطيئة – بعد أن أصبحتُ أوّل من سينال وظيفة في السنة القادمة من بين سائر المجموعة.

»السيدة ذات العقود التعليمية المتعدّدة«، لقبّنّني.

مشيتُ ولورا أوبيرغ في الموكب الأكاديمي عند مكتب خدمات البكالوريا يوم حفل التخرج، ولم أستطع متابعة كلمة مفتتح الحفل لأنّني كنت في قمّة السعادة.

قلت في نفسي وأنا أجلس بجانب لورا" :حسن يا بورغيلد دال، بعينَين أو من دونهما، نجحتِ في قطع هذه المسافة على أيّ حال."

خلال الصيف الذي أعقب تخرّجي، كنتُ منشغلة تماما إلى درجة أنّي لم أكن قلقة بقدر ما كنتُ سأكون في وضعٍ مختلف ربّما .عملتُ وإسثِر في مينيبوليس، فيما أقامت بقيّة الأسرة في منزلنا القريب من البحيرة .بالمال الذي جنيناه إبتعنا موادا صنعت منها أمّنا ثيابا جميلة لنا.

"ربّما لن يبالوا بمظهري كثيرا إذا لبستُ ثيابا أنيقة جدّا"، قلت لنفسي وأنا أنظر إلى المشغولات الجميلة التي كانت أمي تنهي صنعها من أجلي :شال صوفي أسمر اللون ومقلَّم مع صوف مخملي أزرق فاتح؛ طقم بحّار من السيرج الأزرق مع جديلة حمراء فوق الطوق والكمَّين؛ طقم أزرق داكن مع بلوزات جميلة كثيرة تُلبَس معه؛ ورداء فرنسي منقوش ارتديته في أوّل يوم لي في التدريس.

مع ذلك، بقيتْ كلمات الأستاذ، الذي لم يقدر على منحي توصية لنيل منصب تعليمي، ترنّ في أذني» :فالطلاّب هذه الأيام لن يتحمّلوا معلّمة بعينين كهاتين.«

توجّهت بمفردي بالقطار من مينيبوليس إلى توين فالي، استغرقت الرحلة نحو ستّ ساعات، وقبل أن أصل إلى هناك أصبت بنوبة من التوتر الشديد .لنفترض أنّني أصبحتُ أضحوكة المدرسة، ستكون إقامة ابنة أخت مثل هذه مع خالي إينوش والعمة إليزابيث مصدر إحراج كبير لهما .لِمَ لم أفكّر في الأمر قبلا وأذهب إلى مكان لا يعرفني فيه أحد، لأكون الوحيدة، لا غير، التي تدفع الثمن لو حدَثَ أسوء ما يمكن أن يحدث.«

لكنّ الترحيب الصادق من جانب خالي إينوش والعمة إليزابيث حين ترجّلت من القطار جعلني أنسى قلقي مدّة من الزمن .بيد أنّه عندما كنت مستلقية على

السرير في تلك الليلة ساء وضعي أكثر ممّا سبق، كلصّ سرق واختبأ في مكان ليس له أيّ حق في أنْ يكون فيه.

خرجت العمة إليزابيث معي إلى الشرفة في صباح اليوم التالي عندما انطلقتُ إلى المدرسة، وقالت" :أنا أعرف أنّكِ ستؤدّين عملك بشكل رائع، فأنتِ تفعلين ذلك دائما، كما تعرفين."

شخصا كانَ يجزّ الأعشاب الطويلة الضارّة في ساحة المدرسة، وكان الهواء شديدا وأزيزه حادّا .وداخل المدرسة أُستُقبِلتُ برائحة سائل التنظيف وغبار الطبشور.

توجّهت مباشرة إلى مكتب المدير في الطابق الثاني.

قال لي وهو يصافحني بمودّة" :أخبرني دوك بقدومكِ، وأنا كنت أتوقّع مجيئكِ."

وفيما كان يتحدّث إليّ لم ألحظ أدنى أمارة على أنّه وجد في مظهري أمرا غير عادي .لقد عاملني تماما كما كان سيعامل أيّ فتاة أخرى تأتي للتدريس تحت إشرافه.

ومضى يقول" :نحنُ نحاول إتاحة أربع سنوات من التعليم الثانوي لأوّل مرّة في تاريخنا، وأنا آمل بالظفر بثلاثة شبّان أو أربعة ممّن كانوا في سنة ما قبل التخرّج في العام المنصرم ليبقوا هنا ويكملوا دراستهم؛ رايموند هانسوم شخص مثالي، والفتاتان :آنّا هولم ومابيل سيثني، طالبتان ممتازتان."

هو وأنا سنقوم بتدريس كلّ الموادّ في المدرسة الثانوية. مضى في القول، وأنا سأتولّى أيضا تدريس تاريخ الولايات المتّحدة في الصفّ الثامن.

وأضاف" :لسنا مدرسة معتمدة، ولذلك لن يحصل طلاّبنا على علاماتهم ما لم ينجحوا في امتحانات الولاية، ويجب أن يكون أداؤهم حسنا بما يكفي ليكونوا مهيَّئين للنجاح في امتحانات الدخول في المؤسّسات الأكاديمية العليا إذا ما قرّروا الالتحاق بها."

ثمّ توجّهت مع المدير إلى غرفة الاجتماعات في المدرسة الثانوية، حيث كتب على اللوح قائمة بالموادّ التي سنتولّى تدريسها .قال إنّه سيدرّس مادّتَي الرياضيات والعلوم، وسيترك لي اللغة الإنكليزية والتاريخ واللغات.

قدِم عدد من الطلاّب إلى غرفة الاجتماعات في المدرسة قبل أن نُنهي مناقشتنا.

قال المدير" :ربّما نبدأ في الحال بالبرامج المؤقتة للأشخاص الموجودين هنا، وعلينا أن نتوخّى الحرص بشأن علامات طلاّب السنة الأخيرة ليكونوا مستعدّين للتخرّج في الربيع .كما يستحقّ طلاّب سنة ما قبل التخرّج المراقبةَ أيضا .ويمكننا التحلّي بمرونة أكبر في التعاطي مع طلاّب السنة الأولى والسنة الثانية لأنّه سيكون أمامَهم متّسع من الوقت لتلقّي الموادّ التي يحتاجون إليها."

بحلول الظهيرة نجحتُ والمدير في إعداد جدول مؤقّت وحسب لأنفسِنا .تقرّر أن أضمّ مادة اللغة الانجليزية لطلبة السنتين الأولى والثانية في صفّ واحد، وإنجليزية طلاّب السنة ما قبل الأخيرة وطلاّب السنة الأخيرة معا في صفّ آخر . سيكون تاريخُ الولايات المتّحدّة للصفّ الثامن مادّتي الثالثة، وبعض مقرّرات

التاريخ للمرحلة الثانوية مادّتي الرابعة .الألمانية والنرويجية متوفرة لمن يرغب . وربّما يتعيّن وجود صفَّين للّغة الألمانية، الأوّل لتدريس المبتدئين والثاني لمن أمضوا سنة أصلا في دراستها، لكن لن يكون هناك سوى صفّ واحد للغة النرويجية .اقترح طلاّب كثر دراسة اللغة اللاتينية، وأراد عدد كبير منهم دراسة المحاسبة كانت هذهِ الأخيرة شائعة خصوصا في أوساط الطلاّب الأكبر سنّا ممّن التحقوا بالمدرسة بعد سماعهم خبر تقديم مقرّر دراسي ثانوي كامل مدّته أربع سنوات .وبما أنّ وقت المدير مستنفَد، فقد وجب عليّ تدريس المادّتين الأخيرتين.

سألتني إحدى الأمّهات عصر ذلك اليوم" :هل حقا سيكون أبناؤنا خرّيجيّ دراسة ثانويّة بعد أن يُنهوا دراستهم هنا؟."

أجبتها" :أجل، بشرط نجاحهم في امتحانات الولاية، وسنبذل كلّ ما في وسعنا لمساعدتهم على ذلك."

»لم أتوقّع أبدا أن أتمكّن من تأمين تكلفة التعليم الثانوي لجميع أبنائي«، قال لي مزارع ببذلة عمل زرقاء» .لكن إنْ كان في استطاعتهم العودة إلى المنزل ليلا والمساعدة في الأعمال المنزلية وأنْ لا أكونَ مضطرّا إلى دفعِ تكلفةِ طعامِهم ومبيتهم في مكانٍ آخر، فأعتقد بأنّي سأكون قادرا على تأمينها.«

عندما غادر آخر طالب مساء ذلك اليوم، كنت منهكة .جلت النظر في غرفة الاجتماعات الصغيرة في المدرسة الثانوية، كانت أشعّة الشمس لا تزال تتسلّل عبر الستائر البيض المتموّجة عند النوافذ الغربية، لتنعكس على الزجاج الذي يغطّي وجه الساعة، وتلوّن الجدار الأخضر حولها بلون ذهبي دافئ .كانت هناك قصاصات ورق تُركت على صفوف من المناضد التالفة أمامي؛ كانت كرة العالم

الضخمة فوق القاعدة المذهَّبة ولفائف الخرائط مكوَّمة في الزاوية عن يساري، حيث كانَتْ قد جُمعت ليتمكّن الطلاّب من رؤية كتابة المدير وكتابتي على السبّورة.

ثمّ تذكّرت الضحك والاستهزاء الذي كان من المفترض أنّ أثيرَه في أوساط الطلبة . كنتُ شديدة الانشغال طوال اليوم إلى حدّ أنّي نسيت أن أفكّر في الأمر ولو للحظة حتى حين .وكان ما يزال بإمكاني رؤية أولئك الآباء الجدّيّين الذين ما ونيتُ أتحدّثُ إليهم – كان معظمهم سكانا إسكندنافيين أصليين يقيمون في منطقة رد ريفر فالي – أما أبناؤهم فقد كانوا أقلّ منهم تشوقا إلى التعليم الذي كنا نحاول تقديمه لهم .وأدركتُ بأنّه لو كنتُ سأُعَدّ أضحوكة في نظرهم، فإنّ الأشخاص الذين يُفترض بهم أن يعدوني كذلك لم يظهروا إلى الآن.

وعلى الرغم من إنّني كنتُ أعمل مع مجموعة مثالية، إلّا إنّي أدركتُ منذ البداية بأنّي كلّما جعلت أفرادها أقلّ وعيا بحالةِ عينَيّ، كلّما كان الوضع أفضل بالنسبة لي .لم يكن في مقدوري تغيير مظهر عينَيّ على نحو جيّد، لكنّه كان في مقدوري، إلى حدّ ما على الأقل، أنْ أخفي عن طلاّبي في المراحل الثانويّة مدى الضعف الذي كانتا عليه .وكنتُ ما أزالُ أذكر ما قد قالته لي الجارة في اليوم التالي لتخرّجي من الثانوية العامّة.

اتّضح لي على الفور أنّ من الأهمّية بمكان بالنسبة لي أنْ أكون حذرة في حصة التاريخ للصفّ الثامن .فقد ضمّ الصفّ نحو أربعين تلميذا، وبالنّظر إلى صغر سنّهم، فقد كانوا أكثر ميلا إلى المشاغبة من طلاب الثانوية .كنت قد حفظت عن ظهر قلب في الكلّية ترتيب أسماء رؤساء الولايات المتّحدة بحسب التسلسل

الزمني لتواريخ تولّيهم الحكم . وبوساطة هذه المعلومات سهل عليّ تحديد تفاصيل الحوادث التي حصلت في عهد كل من الرؤساء .وقد احتوت الفصول في الكتاب المدرسي على دروس متوافقة مع ما أحفظه، لذا لم أجد داعيا إلى القلق من الحاجة إلى القراءة أثناء تدريس هذهِ الحصّة.

وجدت في تدريس التاريخ الإنكليزي والأدب الإنكليزي أنّي أتمتّع بمزية مماثلة لأنّي كنتُ قد حفظتُ تواريخ ملوك إنكلترا من ألفْرِد الكبير إلى جورج الخامس .وبما أنّي كنتُ قد أجريت بحثا مسهبا في التاريخ الإنكليزي وفي الأدب الإنكليزي، فإنّي لم أكن بحاجة سوى إلى صقل معلوماتي في هاتين المادّتين لأتمكّن من تدريسهما لطلاّبي .مع ذلك، لقد توجب عليّ الاعتياد الكامل على الكتب المدرسية التي استخدمها الطلاّب لأعرف محتوياتها، لا سيّما عندما أتظاهر بالقراءة من الكتب لتحديد واجبات اليوم التالي.

تعلّمتُ سلوك طرق مختصرة في تنظيم مادّة الأدب الأميركي .مثال على ذلك، عندما أردت حفظ أسماء مجموعات المؤلّفين سعيت للتفكير في أمرٍ مشترك بينهم .واعتمدتُ سنة 1809 التي بدت قريبة من وقت ولادة معظم المؤلّفين الذين كنتُ ملزمة تدريس أعمالهم .ثمّ أضفت إلى ذلك مدّة الحياة العادية 70 – سنة – لأصل إلى التاريخ 1879 وهي السنة التي يُفترض، عموما، أنّها سنة وفاتهم .وبعد أن قمت بجدولة الاستثناءات الرئيسية، وحاولت أن أتذكّر أسباب عدم بلوغهم تلك السنّ، قُمتُ كذلك بتدوين ملاحظات بشأن الأشخاص الذين عاشوا مدّة أطول بكثير.

وبما أنّني كنتُ على إلمامٍ بالحوادث الرئيسية التي حصلت في التاريخ الأميركي في أثناء تلك السنين، فإنّه كان من السهل إدخالها في نسيج الحوادث التي حصلت في فترات حياة كل من المؤلّفين .لنأخذ لونغْفيلو على سبيل المثال، لقد أمكن إحصاء صداقاته على نطاقٍ واسع بهذه الطريقة، بل وحتى أمكن تحديد تواريخ صدور أعماله وما كتب .فقد عاش في زمن جماعة حملة الأقلام العظيمة في كونكور، ولم يكن منزله في كامبرج بعيدا عن كونكورد؛ لذلك من الطبيعي أنّه لازم هؤلاء المؤلّفين .بتذكّر هذه التفاصيل، أعددتُ قائمة بالمؤلّفين الذين عاشوا في كونكورد فعلا.

وجدت أنّ استحضار قصص صغيرة تشي بمعلومات حولَ مؤلّفين وأماكن ذات أهمية، ساعدني على حفظها؛ كما أنّ التلاميذ كانوا يستمتعون بالقصص أيضا . سؤال ثورو لإميرسون عن سبب عدم مجيئه إلى السجن معه عوضا عن دفع الضريبة؛ ركضات وِتيَر الحثيثة سعيا للهرب من النساء المتطفّلات اللائي كنّ يتدخّلن في خصوصية بيت عزوبيّتهِ؛ صداري لونغْفيلو الزاهية وأعماله الطائشة حين كان أرملا مثليا– جميعها وقائع أحبّ التلاميذ سماعها وقاموا بحفظها.

وإذا وُجدت قوائم طويلة أحتاج إلى معرفتها، كنت أرتّبها حسب التسلسل الأبجدي أولا، ثمّ أتعلّمها .وإذا كانت هناك حوادث تاريخية أضعها بتسلسلها الزمني .تكرار المعلومات مرّة تلو الأخرى أثناء ذهابي مشيا إلى المدرسة، أو أثناء ارتدائي ثيابي أو قيامي بأي عمل آلي، أمرٌ ساعدني على تثبيت الحقائق في ذهني.

اخترتُ مدنا شهيرة في العالم، وحاولت أن أتذكّر الأشخاص المهمّين في التاريخ والأدب ممّن كانوا قد عاشوا فيها .لقد أظهرت لندن وإدينبرغ وباريس ونيويورك وفيلادلفيا بأنّها مناجم لمعلومات من ذهب بالنسبة لي .كنتُ كذلك أسرد الأنهار والبحيرات والجبال والغابات في قوائم، وأربطُ بينها وبين الحوادث والأشخاص . وكم تفاجأت من مدى ما كانت تقدّمه هذه الطرائق، مع أنّها بدت بلا معنى لأشخاص آخرين، من عونٍ في تدريب ذاكرتي وفي وضع كمّيات هائلة من الموادّ، التي كنتُ أقوم بتجميعها تدريجيا، في آخر المطاف، في شكلٍ منظّم للإستخدام الجاهز.

تطلّب تدريس اللغات دراسة أشدّ تركيزا بكثير مقارنة بتحضير مادّتي التاريخ والأدب .وتعيّن أن تكون تراجم تلامذتي في الصفّ دقيقة وحسنة الصياغة .عنى هذا أنّه لغرض تدريس المادّة من دون النظر إلى ما في الكتاب، كان عليّ أنْ أحفظ عن ظهر قلب بالكامل تقريبا كلّ الموادّ الكلاسيكية المراد تدريسها .لقد اعتدت البدء بقراءة كلّ جزء من المادّة الكلاسيكية أوّل الأمر قبل أسبوع تقريبا من تقديمها في الحصّة الدراسيّة .وبمراجعة المادّة يوميا، أكون قد حفظتها عن ظهر قلب بحلول وقت ترجمة الطلاب لها .بعد أنْ فرغَ الطلبة من دراسة Immensee لستورم، و Peter Schlemihlلتشاميسو، و A Happy Boyلبيونْسون مثلا، أحسست بأنّي آلفها كما لو أنّني كتبتها بنفسي.

بدا من المهمّ بالنسبة لي أيضا أن أتعرّف إلى طلاّبي في أقرب وقت ممكن، وأن أكون قادرة على التمييز بينهم بعد ذلك من دون الحاجة إلى الاقتراب منهم .وجب عليّ الإمعان في التفكير والتخطيط لإنجاز ذلك.

مع أنّ أصوات اليافعين جدّا ليست صفّة مميّزة لهم بوجه عام بقدر ما هي كذلك في البالغين، إلّا إنّي أدركتُ بأنّ عليّ الاعتماد كثيرا على الأصوات في التمييز بين طلبتي .في نهاية اليوم الأول تعرفتُ على كثير من أصواتهم .ومع نهاية الأسبوع الأوّل تعرّفت إلى أصواتهم جميعا.

بعد أن أجلستُ طلاّبي في مقاعدهم حسب الحروف الأبجدية في قاعة الاجتماعات وفي صفوفي، بدأتُ بحفظ أسماءهم من سجلّ الأسماء لديّ .وفي كلّ يوم وضعت لنفسي مهمّة التمكّن من اختيار عدد معيّن من تلاميذي .كرّرتُ أسماء الشهرة أوّلا، ثمّ توليفة أسماء الشهرة مع الأسماء الأولى .مثال على ذلك، ربّما كان هناك خمسة مقاعد في المقدّمة في صفّ الإنكليزي لطلاّب السنة الأخيرة، وبناء على المخطّط الذي لديّ فإن هذه المقاعد عائدة إلى فروشوغ وهانسون وهولم وسيثني وسولين .وبعد أن ثبّتُّ هذه الأسماء في ذاكرتي رحت أقول في نفسي إنّ المقاعد عائدة إلى إسثِر فروشوغ ورايموند هانسون وآنّا هولم ومابل سيثني وكلارا سولين .وإذا وُجد عدد من الطلاّب الذين تتشابه أسماء شهرتهم، أو إذا كانت أسماؤهم تبدأ بالحرف ذاته، سهل عليّ حفظ أسماء الصفّ .والأمر نفسه يصحّ إذا وُجد طلاّب تتشابه أسماؤهم الأولى.

بعد ذلك صرتُ أنظر بإمعان إلى الطلاّب لأتبينَ ما إذا كانَ هنالك شيء يميّزهم، ويساعدني ربما في التعرّف إليهم حين لا يكونون في مقاعدهم .فحاولت أن أتذكّر ثيابهم . لم يكن ذلك صعبا في تلك الأيام في مدرسة توين فالي لعدم امتلاك أغلب الأطفال غير طقم ثياب واحد أو طقمين طوال العام .كما ارتدى كثير منهم ثيابا

من صنع أمّهاتهم، ولذلك كان يوجد هناك تميزا في خصائص ملبَسِهم أكثر بكثير مما كان سيكون لو أنّهم إبتاعوا ثيابا جاهزة.

تعلّمتُ أيضا كيف أربط بين الطلاّب وأنواع الأوراق التي يسلّمونني إيّاها .وقد أتيحت لي فرص كثيرة لفعل ذلك لأنّ تدريسي للّغة الإنكليزية والمبادئ الأساسية للّغات الأخرى كان يعني إنتاج أكوام لا نهاية لها من هذه الأوراق .ظنّ خالي إينوش والعمة إليزابيث أنّني أتعامل بيقظة ضمير مبالغ فيها مع أوراقي، لكنّي كنتُ أعلمُ بأنّي، إلى جانب الفائدة التي يجنيها الطلاّب من التأشير إلى أخطائهم، كنتُ أجازى على عملي بمكافأة إضافيّة من خلال ما كنتُ أكسبه من هذه الأوراق من معلومات تخصّ طلبتي.

وجدتُ في كثير من تلك الأوراق معلومات قيّمة :الشكل العامّ، والخطّ، والمحتوى. وبعد مراجعة أكوام من هذه الأوراق ربطت بين الروائح المنبعثة منها والنفحات التي أتحسّسها حين يكون طلاّب معيّنون قريبين منّي .مثال على ذلك، انبعثت من إحدى الأوراق رائحة تبغ رخيص، وسرعان ما وجدت صبيا ممتلئ الجسم في صفّ السنة الأولى وثيابه مشبعة بالرائحة ذاتها .وهناك فتاة لا بدّ أنّها أنفقت كلّ مصروفها على عطر قويّ متبول الرائحة، لأنّها كانت ترشّه على كلّ ورقة تسلّمها وعلى كلّ شيء تلبسه .كان بعض الفتية الريفيين يعملون في حظائر الماشية في قراهم، وكنتُ أستشمّ في العادة رائحة خفيفة منبعثة من ثيابهم، ومن أوراقهم في بعض الأحيان، مع أنّ الحال لم تكن كذلك دائما .ولا بدّ أنّ عددا من الطلاّب كانوا يأتون من منازل لا تتمتّع بتهوئة كافية، لانبعاث رائحة عفونة من أوراقهم وثيابهم توحي بأطعمة مطبوخة .واعتاد صبي في المقعد الأمامي في غرفة

الاجتماعات على مضغ حبوب القرنفل باستمرار، ووجدتُ آخر لا بدّ وأنّه كان يعيش على البصل، وفتاة كانت تفوح منها دائما رائحة صابون آيفوري.

حاولت أن أحفظ أيّ شيء أسمعه عن طالب معيّن، لأنّ ذلك كان يساعدني على استحضار ذلك الصبي أو تلك الفتاة في ذهن .أحد الصبيان، وهو صبيّ كان غالبا ما يحضر إلى المدرسة متأخّرا، كان يعيل أمّه الأرملة وشقيقته وشقيقه . وعمل صبيّ آخر في متجر لبيع المعدّات مساء وفي أيّام السبت، ولذلك لم تسنح له فرصة ليدرس خارج المدرسة إلاّ نادرا .شقيقة فتاة تحضر عددا من حصصي هجرها ليلة زفافها مَن كان يُفترض بأنّه شابّ نموذجي في المجتمع .وكان والد أحد صبيان صفّي بخيل البلدة، وشقيقتان في المدرسة الثانوية كانتا تعيشان في أجمل بيت في البلدة .إحدى الفتاتين، كما تمّ تناقل ذلك همسا، لم تكن جميلة؛ وكانت الثانية تواعدُ رجلا أكبر منها سنّا بكثير وكانَت ستتزوّجه على الأرجح ما أن تُنهي دراستها الثانوية، إن لم تفعل قبل ذلك.

لم أشأ معرفة هذه الأخبار، لكنّها وصلتني من غير سؤال لصغر البلدة ولأنّ الجميع يعرفون خبايا بعضهم.

عصر يوم الجمعة الذي سلّمني فيه المديرُ شيكا براتبي لشهر أيلول/سبتمبر، أحسستُ بأنّي أغنى الناس في العالم وأسعدهم .كما لم ألحظ أي تلميح من أيّ كان بأنّ ذلك آخر راتب أقبضه أو أنّني لا أستحقّه .ولم تزل الوظيفة لي وأنا أؤدّيها بشكل جيّد.

هرعتُ إلى المصرف لأصرف الشيك.

سألني الموظّف" :هل ستضعينه في حساب ادّخار أم في حساب جارٍ؟."

نظرتُ إليه بإنشداه، وتخيّلت تسليمه إيّاي ستين دولارا فضّيا من خلال فتحة النافذة.

أجبته بتلعثم" :آه، حساب جارٍ."

سألني" :ألن تضعي بعضا من المبلغ في حساب ادّخار؟."

قلت له" :لا، لست مُستعدة بعد."

كتب شيئا في دفتر صغير، ووضع حزمة من القسائم الصُّفر في حقيبة جلدية وسلمني إيّاها.

أسرعتُ إلى المنزل لأُري خالي إينوش والعمة إليزابيث حسابي المصرفي الجديد، فتلك كانت أوّل مرّة أملك فيها حسابا مصرفيا.

قال لي خالي إينوش» :خمسون دولارا من هذا المبلغ لكِ، كانت أمّكِ تتقاضى منّي عشرة دولارات فقط في الشهر حين كنتُ في الجامعة، وأنا لن أتقاضى منكِ أكثر من هذا.«

ستّون دولارا في الشهر، عملتُ وادّخرت طوال السنة لتغطية مبلغ العشرين دولارا الذي دفعته لدراستي في الجامعة.

أمكنني بمبلغ خمس دولارت أن أشتري بسهولة كلّ الطوابع البريدية التي أحتاج إليها، ومئات الأشياء الأخرى .وأمكنني أن أرسل لأُمّي خمسة وأربعين دولارا كلّ شهر، ولن يكون عليها أنْ تقلق بشأن المال بعد ذلك.

عملت بسرعة حتى آخر دقيقة في المدرسة قبل عيد الميلاد .وتعيّن توزيع الامتحانات والتقارير الخاصّة بالشهر الرابع قبل العطلة، ووضعنا آخر سلسلة من برامج الإعانات لصفّ بيانو اشتدّت الحاجة إليه، وقد عاد علينا هذا البرنامج بإيرادٍ كاف بحيث أنّ إخترتُ البيانو في مينبوليس عندما ذهبتُ إليها.

وفي آخر يوم قبل العطلة تجمهر طلاّب المدرسة كلّهم في غرفة اجتماعات الثانوية العامّة ليغنّوا ترانيم عيد الميلاد .أدّى البوّاب دور سانتا كلوز ووزّع الحلويات والفشار على الجميع .تلقينا نحنُ المدرسين أيضا هدايا من طلبتنا .وكانت هديتي ملعقة تذكارية نُقشت في قعرها صورة مبنى المدرسة واسم توين فالي، مينيسوتا على جزئها الأعلى.

وعندما كنتُ مسافرة بالقطار في ذلك اليوم غمرتني سعادة لا تُوصف .ها أنذا عائدة إلى المنزل لقضاء عطلة كأيّ معلّمة أخرى في مدرسة ثانوية، حقائبي مليئة بالهدايا التي تلقّيتها من أسرة الخال إينوش، ومن المعلّمات والطلاّب الذين عملتُ معهم، ومن أصدقاء آخرين تعرّفت إليهم في توين فالي، كما أحضرت هدايا لكلّ فرد في المنزل.

بدا المنزل في مينيبوليس، الذي افترضتُ دائما أنّه منزل سعيد، أدفأ وأجمل مما خطر في بالي .كانت أمّي قد نظّفته وفركته إلى أن صار يلمع، وأعيد تجهيز البيانو استعدادا لقدومي .كما أنّ أمّي خبزت وطهت كلّ أصناف الطعام اللذيذة، وبدا لي أنّ هناك مفاجأة في كلّ مرّة أزوره فيها.

مرّت الأيام بسرعة، وكان آخر يوم من أيام العطلة قد حلّ، قبل أنْ أشعر بذلك.

قلت لأمّي" :مع كلّ هذه الأوقات المسلّية التي قضيتها في المنزل، لا أمانع البتّة في العودة إلى العمل، ففي توين فالي كثير من التسلية أيضا."

كنتُ قد وضّبتُ أمتعتي وكنت على وشك الذهاب إلى الفراش باكرا قليلا، لأكون مستعدّة لركوب القطار في الصباح، حين نادتني أمّي.

قالت" :تعالَي إلى غرفة الجلوس، فهناك شيء أودّ أن أقوله لكِ."

أغلقتِ البابَ كي لا نُزعج بقيّة أفراد الأسرة في الطابق العلوي .ومع ظهور علامات الحزن على وجهها شعرتُ بالخوف على الفور، لكنّها ابتسمت لي حين رأت ذلك.

قالت" :ليس هناك ما يستدعي أن تقلقي بشأنه .كنت قد عزمتُ على عدم ذكره، لكنّكِ ستغيبين مدّة طويلة الآن – إنّها تقريبا ثلاثة شهور قبل عيد الفصح– ولذلك وجدت أنّه من الأنسب أن أصارحكِ."

سألتها" :لكن ما الخطب يا أمّي؟"

"الآن، الآن، لا تشعري بالقلق .فكما قلتُ إنّه أمر ليس بذي بالٍ، كلّ ما في الأمر أنّه يبدو أنّني لم أتعافَ من تأثيرات نزلة البرد التي ألمّت بي في الخريف الماضي . وحتى بعد تلك الزيارة مع أولغا حين أمضيتُ فترة نقاهة جيدة، بقيت متوعّكة ولم أستطع العودة إلى ما كنت عليه قبلها."

لا أذكر يوما مرضت فيه أمّي، فاستبدّ بي خوف شديد .وقلتُ لها إنّه كان يجدر بها أن تُخبرني بسوء حالها ما أن وصلتُ إلى المنزل.

قالت بصوت ناعم ودموع تنهمر" :لم أملك الشجاعة لأفعل ذلك، فقد كنتِ في غاية السعادة."

أصرّيتُ على البقاء في مينيبوليس بضعة أيام وعلى مرافقتها إلى طبيب.

قالت وهي تحاول تصنّع القسوة" :لا تكوني حمقاء، فأنتِ تعرفين جيّدا أنّ أفضل شيء يمكنك فعله لي هو عودتك إلى التدريس .لقد كانَ أمرا رائعا أنْ لا أقلق بشأن المال هذا العام."

وعدتني بالذهاب إلى طبيب بنفسها في اليوم التالي، وبالكتابة لي لتخبرني ما قال لها بالضبط.

ما أن عدت إلى توين فالي حتى أخبرتُ العمّ إيونش عن حال أمّي، بدا حزينا وسألني بضعة أسئلة، لكنّه لم يقل الكثير سوى أنّه لا يمكن لأحد تشخيص حالة مَرَضية من دون رؤية المريض .وبعد بضعة أيام قرّر فجأة التوجّه إلى مينيبوليس لرؤية أمّي، وعقب عودته عرفتُ أنّ أمّي خضعت لجراحة إستكشافيّة، وأنّ الجرّاح وجد أنّها مصابة بمرض السرطان في مراحله الأخيرة .أيّ شخص ضعيف كان سيموت قبل وقت طويل من ذلك .لكنْ مع حيويّتها، كان من المرجّح أنْ تعيش أمي خمسة أو ستّة شهور إضافية.

في ذلك اليوم الكئيب في كانون الثاني/يناير، حين قال لي خالي إينوش ذلك، دقَّتْ ساعة الصفر في حياتي.

بعد أن صار في مقدورنا الحديث بمزيد من الهدوء، قرّرنا أنّ الأفضل لي هو أن أستمرّ في التدريس خلال شهرَي شباط وآذار .ستقدّم إلين وبيرثا سوان، ابنة عمّ

أمّي، الرعاية لأمّي حتى الأول من نيسان حين سيكون على بيرثا أنْ تُغادر، والمساعدة المالية التي يمكنني تقديمها في هذه الشهور ستكون مصدر عون كبير.

رافقتني العمة إليزابيث عندما حان وقت مغادرتي إلى مينبوليس، وأحضرت طفلها معها لتراه أمّي.

وبعد أن عادت العمة إليزابيث أدراجها إلى توين فالي، تُركنا وحدنا مع أمّنا . أمضيت ساعات وأنا أقرأ لها بصوت عال قصصا وروايات، ثم اقتصرت لاحقا على مقاطع من الإنجيل .وكان القدّيس جون أحبّ القدّيسين إليها، وبدا لي كما لو أنّ الكلمات الجميلة التي كنتُ أقرؤها من هذا الإنجيل هي كلمات أمّي، لا كلمات المسيح.

لم يعد في استطاعة أمّي التمدّد على الفراش في آخر أيامها .جلستْ على كرسيّ موريس بجانب المدفأة، لأنّ فصل الربيع تأخّر، ولذلك بقينا نشعل النار في الموقد طوال الوقت.

وفي ليلةٍ من أواخر الليالي التي عاشتها، حين كان الآخرون جميعا نائمين، بدأت بالتحدّث إليّ.

قالت بصوت ناعم" :عرفنا منذ مدّة طويلة كيف لهذا الأمر أنْ ينتهي .لكنّ الحديث عنه ليس سهلا لكلينا، أليس كذلك؟."

سكتت كما لو أنها كانت تتوقّع منّي أنْ أجيبها، لكنّني عجزتُ عن الكلام .ثمّ تعالى لهب النار فجأة، فأنار الغرفة وتمكّنتُ من رؤيتها بوضوح، كانت عيناها مثبّتتين عليّ بعطف.

»كلّ منّا قد فهم الآخر جيّدا«، مضت تقول،» ربّما لأنّنا احتجنا إلى إحدنا الأخرى كثيرا .لقد كنتِ مصدر بهجةٍ عظيمة لي، وجعلتِني في غاية السعادة .ربّما يكون عزاء لكِ في وقت ما أن تتذكّري مدى حبّي لكِ وما أنوي قوله لكِ الليلة.«

"اعتدت القلق على عينيكِ .لكنّني لم أعد على هذا القدر من الحماقة منذ زمن بعيد .أعلمُ أنّ الله، مهما حصل، سيحرسكِ ويُرشدكِ .قطرَ قلبي دما من أجلكِ فقط حينَ كانت عيناكِ قد شُفيتا بعد الالتهاب الذي أصابهما، و أخبرني الأطبّاء بأنكِ أصبحتِ عمياء تماما، وبأنّكِ لن تتمكّني من الرؤية أبدا .كنتِ طفلة صغيرة آنذاك، وكانت الوساوس تراودني كلما فكّرتُ في مستقبلكِ."

"عرضتكِ على جرّاحي عيون كثر أملا بأن يتمكّنوا من مساعدتك، لكنّهم جميعا أجمعوا على أمر واحد .ثمّ سمعت عن الطبيب بنديك وأخذتكِ إليه .لقد قَبِلَ بالعمل على حالتك، لكنّه حذّرني من كون النتيجة غير مؤكَّدة أبدا."

"على مدار ثلاثة أيام، عملت على تحضيركِ للعملية، لكنّ الدكتور بنديك لم يظهر على مدى الأيام الثلاثة .لقد كان الانتظارُ فظيعا، لكنّني لم أفقد الأمل، وكان هناك أمر يتعلّق بالرجل الذي قال لي إنّه يمكنني الوثوق به، وفي اليوم الرابع جاء."

"لم ألاحظ في البداية عقب العملية أيّ تغيّر فيكِ .ثمّ بدأتِ تمدّين إليّ يديكِ الصغيرتين، وكنتِ تبكين إذا حملكِ أحد غيري .وبدوت أيضا وكأنّكِ تظهرين إهتماما بالحُليّ التي أعطيك إيّاها لتلعبي بها .أخيرا ضحكتِ ملء فاهكِ في أحد الأيام حين أحضرت لكِ معطفكِ الأحمر والقلنسوة لآخذكِ في نزهة بعربتكِ .بعد ذلك زالت شكوكي إلى الأبد .وأدركتُ أنّكِ تستطيعين الرؤية."

"أخبرني الدكتور بنديك لاحقا إنّ سبب عدم مجيئه حسب الموعد، هو إنّه لم يكن قد تهيّأ لإجراء العملية في تلك الأيام الثلاثة الأولى .وقال إنّه لو لم تنجح العملية، فإنّ ذلك كان سيعني بأنّ فرصتكِ في استعادة الرؤية قد ضاعت."

واصلت أمّي حديثها، قائلة» :إنّه لفي هذا المكان الذي نجلس فيه الآن، هيّأتكِ في تلك الأيام، وهنا إنّما أعاد الدكتور بنديك إليكِ بصركِ.«

كانت ألسنة اللهب قد خمدَت كثيرا إلى درجة أنّه لم تتبقى سوى بضع جمراتٍ وسط الرماد حين أنهت أمّي حديثها لي عن قصّة معاناتي من العمى وأنا طفلة .لم أسمع القصّة من قبل، جلستُ صامتة بلا حراك.

همستْ أمّي بصوت خافت جعلني أركّز لأسمع كلامها" :قبل أن يُعيد لكِ الدكتور بنديك بصركِ، دعوت الله أن يُبقيني لأرعاكِ، وها أنتِ ترَين مدى كرمه في استجابته لدعائي، كما كانت بركتُه عظيمة عليّ وعليكِ .والآن أنا متأكّدة بأنّ أمورك ستكون على خير ما يرام."

جلستُ ساكنة أفكّر في ما قالته لي أمّي، لكنّها بقيتْ مضطربة كما لو أنّها لم تُنهِ ما كانت تودّ قوله.

قالت أخيرا" :المسألة تتعلّق بالأولاد بعد رحيلي، فقد أردتُ الحديث عنهم أيضا . دوروثي لم تتجاوز التاسعة، وروبرت في الحادية عشرة، وستمرّ سنوات كثيرة قبل أن تُكمل إستِر دراستها الجامعيّة وتصبح مهيَّأة لكسب لقمة عيشها .سيكون من الأفضل أن تصحبي الصغار معك إلى تَوين فالي حيث تزاولين التدريس . وسيكون خالي إينوش والعمة إليزابيث لطيفَين معكِ وسيقدّمان لكِ نصائح جيدة عندما

تحتاجين إليها .كما أنّ ذلك سيتيح منزلا للأبناء الكبار أيضا، إلى أن يمتلكوا منزلا خاصّا بهم."

وعدتها بأن أعتني بالصغار وأن أبذل كلّ ما في وسعي لأحافظ على شمل الأسرة.

قالت أمّي" :لم يعد يساورني قلق على الصغار الآن .لقد كانت فكرة ترككم جميعا صعبة في البداية .وبخاصّة روبرت ودوروثي، فهما لا يزالان صغيرَين جدا وسيحتاجان إلى رعاية أمّ، لكنّكِ ستحبّينهما، أنا أعرف ذلك .وسيلبك ذلك شبابكِ، لكنّكِ ستنالَين بركة ما تقومين به في يوم من الأيام."

تُوفّيت أمّي في العشرين من أيار، ووُري جثمانها بجانب والدي في عقار أسرتنا في مقبرة لايكْوود.

الفصل الرابع

بعد وفاة أمّي برزت مهمّة تفريغ المنزل من محتوياته ليتسنّى لنا تأجيره .كان المنزل كبيرا، وقد عاش فيه والداي نحو ثلاثين سنة .كانت الكيفية التي كان قد تراكمت بها الأشياء طوال هذهِ المدّة، أمرا مهولا.

قلتُ لأولغا" :لنبدأ بالعلّية ثمّ ننزل إلى الأسفل، عندئذٍ يمكننا أن نعرف على الأقلّ متى نكون قد وصلنا إلى نهاية العمل."

انتصبت في العلّية خزانة من خشب الأرز وضعنا فيها ثيابنا المصنوعة من الفراء والأغطية، كانت خزانة ضخمة أحضرتها أمّي من النرويج .كان إسمها قبل الزواج ، وهو إنجيبورغ هوغْسيث، وتاريخ زواجها1881 ، مكتوبين داخل الخزانة .امتلأ قلبي يأسا وأنا أنظر إليها .سمعتُ أمّي تقول غير مرّة إنّ الخزانة حُملت إلى العلّية في أثناء تشييد المنزل، وأنّ إخراجها من المنزل ثانية أمرا غير ممكن .بدا الأمر أشبه بهجر فردا من العائلة وتركه وحيدا.

كانت معرفة ما يجدر فعله بمكتبة والدي الهندسية أشدّ إيلاما .بدا أنّ الكتب التي فيها لا حصر لها .كانت مكُدّسة على رفوف مكشوفة في أحد جوانب الغرفة الكبيرة في العلّية وقد علتها طبقات من الغبار .لم يخطر ببالنا الاتصال بمخمّن لتحديد قيمة للكتب وبالتالي بيعها ربّما .كما وجدنا أن نقلها إلى توين فالي باهظ التكلفة، كذلك لن ما كان لنا أنْ عرف ما نصنع بها إذا ما نقلناها إلى هناك . وأخيرا قرّرنا إحراقها، فاستغرقت العملية يومين، أشعلنا نارا كبيرة في الهواء الطلْق بقدر ما وسعتنا جرأتُنا للتخلّص من الكتب جميعها.

تخلّصنا بأفضل الطرق الممكنة أيضا من أشياء أخرى وجدنا أنّنا لا نستطيع حملها معنا.

كاد يحلّ الظلام حين نقلنا آخر شحنة من أغراض منزلنا إلى ساحة الشحن في مينيبوليس .كان الأطفال مع أصدقائهم في المكان الذي عزمنا على قضاء ليلتنا فيه، وكنتُ أنا وأولغا وحدنا في المنزل.

مسحنا الأرضيات، وحين فرغنا كان آخر بصيص لضوء النهار قد تلاشى.

سألتني أولغا" :ما رأيكِ لو نمسح كلّ الأبواب والنوافذ؟."

استعرتُ مصباحا يعمل على الكاز من إحدى جاراتنا، ورافقتني أولغا في التنقّل في أرجاء المنزل وتوجّهنا نحو المخزن .كان وقع أقدامنا عاليا ونحن نمشي على الأرضيات العارية.

لم ننطق بكلمة، كانت ظلالنا سوداء وغريبة فوق الجدران في الغرف التي نمر بها . بدا من الصعب تصوّر أنّ هذه الفراغات المُعتمة كانت غرف النوم الهنيئة التي نام فيها والداي ونحن الأطفال سنين عديدة .لم يكن أمرا سديدا أنْ يشغلها غرباء ما عمّا قريب ويعدّونها غرفهم.

أسقطت إنارةُ الشارع أعمدة من النور على الأرضية قبالة النافذة الكبيرة في الأسفل حيث الصالة .وأذكر أنّ تلك الناحية بالتحديد كانت المكان الذي وضعت فيه نعوش كل من أمّي وأبي وشقيقتي روث وخالتي ماري وابن عمّ والدي، الذي انطلقت جنازاته من منزلنا.

قلتُ لأولغا" :لنسرع، فأنا لا أستطيع البقاء هنا مدّة أطول."

وصلنا إلى توين فالي يوم الثالث والعشرين من آب قرابة الساعة الثالثة عصرا، واستقبلنا خالي إينوش والعمة إليزابيث في الموقف.

قال لنا خالي إينوش ما أن وصلنا إلى منزله" :لم نستطع تدبّر منزل لكم حتى وقت متأخّر من ليلةِ يوم أمس، خفنا ألاّ نتمكّن من العثور على واحد أبدا .إنّه المنزل الوحيد الشاغر في البلدة."

وقالت العمة إليزابيث" :إنّه منزل متهالك فعلا، لكن عندما تُقمن فيه أيتها الفتيات، لا أعتقد أنّه سيكون على هذا القدر من السوء."

وأضاف خالي إينوش" :المضخّة التي في الفناء لا تبعد كثيرا عن باب المطبخ، لذلك لن يكون عليكنّ حمل الماء سوى بضع خطوات .أنا أعرف أنّ الماء نقيّ، ولذلك لا تخفن من شربه .لقد طلبتُ من السيد رامزي أن يبحث من أجلكم عن فرن جيد للمطبخ وسخّان يعمل على الفحم بسعر معقول .وعليكنّ أن تُبقين النار مشتعلة فيهما في فصل الشتاء، فالأرضيات في هذه المنازل القديمة تسرّب الهواء."

لم يكن المنزل بالغ السوء .احتاجت المضخّة إلى جهد كبير لتشغيلها، لذلك حرصنا على الاقتصاد في استخدام الماء كي لا نضطر لاستخدامها كثيرا .وكان الطريق إلى المرحاض يمر عبر الحظيرة؛ لكن بما أنّه لم يكن فيها خيل، فإنّ ذلك لم يشكّل مشكلة تُذكر، باستثناء أنّ دوروثي قالت إنّها تخشى الذهاب إلى هناك في الظلام .كنتُ مسرورة لكون أنّ الغرف الأربع التي سنستخدمها في المنزل

موجودة جميعها في الطابق الأرضي ومتّصلة ببعضها .كانت غرفة النوم كبيرة بما يكفي لنضع فيها سريرين، وكان في مقدور روبرت النوم على الأريكة في الصالة . لكنّ غرف العلّية، التي كانت تستخدم سابقا كغرف نوم، كانت معتمة وكئيبة، وقمنا بخزن كل ما لا حاجة لنا به فيها .وبدا غريبا، لا سيّما ليلا، أن نعيش بمفردنا في هذا المنزل الغريب.

قالت لنا العمة إليزابيث" :خير لكم أن تبقوا معنا ريثما تستقرّون، سيكون ذلك سهلا عليكم وستتمكّنون من العمل بشكل أسرع بهذه الطريقة، سننقلكم بالسيارة لتناول الطعام ونعيدكم إلى المنزل بعدها."

عندما بدأنا بتنظيف المنزل غمرتنا السعادة لكوننا قبلنا بدعوة إليزابيث الكريمة .لقد وجدنا أنّ غرفة النوم في الأسفل مليئة بالقرّاد، ومرّت أيام كثيرة قبل أن نرتاح لوضع أسرّتنا فيها .فركنا كالمجانين كلَّ شيء يمكن غسله بالماء والصابون، وقمنا بتنظيف الأجزاء الخشبية بكلوريد الزئبق الذي أعطانا إيّاه خالي إينوش.

بعد أن قمنا ببعض أعمال الدهان والتلميع، ورتّبنا أثاثنا في الغرف وعلّقنا الصوَر على الجدران ووضعنا الستائر عند كلّ النوافذ، أصبحَ المكان في حالٍ أفضل للعيش فيه.

حين وصلنا إلى المنزل لم يكن فيه إنارة، لكنّ السيد جاي أف هايبيرغ قدِم لإسعافنا، وهو من روّاد سكنة ذلك الجزء من ريد ريفر فالي، والذي كان قد شيّد مؤخّرا محطّة لتوليد الطاقة بالقرب من توين فالي وكان يركّب أجهزة إنارة كهربائية في كثير من منازل البلدة .مدّ الأسلاك الكهربائية في المنزل ووضع مصباح

متدلي واحد في كلّ غرفة من غرف النوم الأربع في الأسفل، رافضا أن يتقاضى مالا على خدماته.

قال لنا جار في إحدى الأمسيات بُعَيد انتقالنا إلى المنزل" :بالكاد أستطيع التعرّف على المكان مع هذه الأنوار اللامعة التي تتسلّل خارج النوافذ وطريقتكم الرائعة في إصلاح الأشياء."

لكن بعد أن جنينا ثمار الحديقة ووضعنا حصّتنا منها في القبو الدائري الصغير من أجل فصل الشتاء، وجدنا أنّ هناك مسألة أخرى تحتاج إلى رعاية ليتسنّى لنا الاستقرار على نحو مريح.

قالت إيلين في أحد الأيام بعد أن كنّا في القبو" :هناك شيء يقرض القرع واليقطين .إنّ فيها ثقوب كبيرة وهناك أكوام من لبّ الثمار في كلّ مكان هناك."

أخبرنا العمة إليزابيث بالأمر فقالت" :لا بدّ أنّ القبو مليء بالجرذان، يجب أن تفعلوا شيئا في الحال وإلاّ ستتلف ثماركم."

مرّة أخرى هبّ خالي إينوش لمساعدتنا، لكن بمواد مبيدة للجرذان هذه المرّة .أدّت عملها على أكمل وجه كالموادّ الكيميائية الخاصة بالتنظيف، وتخلّصنا في وقت وجيز من الجرذان.

أحسستُ بقلق شديد أوّل شتاء أمضيناه في تُوين فالي، لا سيّما حيال الأطفال . خشيتُ أنّني لا أقوم بالعمل الكافي الذي كانت ستقوم به أمّي للاعتناء بهم لو كانت على قيد الحياة .إنْ مرضوا لم أنمْ الليالي، وإنْ بكى روبرت أو دوروثي، بكيتُ معهم.

حاولت أن أقدّم لهم التدريب الذي اعتقدتُ أنّ أمّي كانت ستقدّمه لهم، وأصبحت متعوّدة على التحدّث بالنرويجية كما كانت تفعل هي متى ما كانت تريد تعليمنا شيئا .ثمّ صرت أستحضر الكلمات التي كانت تقولها، تذكّرتُ كلماتها بالحرف الواحد ووجدت نفسي أستخدمها مع الأطفال.

"الجوع أمهر الطبّاخين."

"مادح نفسه كذّاب."

"لا تكن غير جدير بالثقة كماء يجري في غور."

"السكينة موجودة لا محالة في كلّ منزل حسن الترتيب."

ولتأكيد هذه الأمثال أخبرتُ الأطفال أنّ والدتنا كانت معتادة على ذكرها .وبعد مدّة وجيزة بدا وكأنّ أمّي التي تتكلّم وتقدّم النصائح الجيدة للأطفال وليس أنا، مع أنّها لم تعد معهم.

في آذار، بيع المنزل الذي كنّا نُقيم فيه، فاضطررنا إلى الإنتقال منه قُبيل عيد الفصح .استأجرنا من جديد المنزلَ الوحيد الشاغر في البلدة، وهنا وجدنا قرّادا أيضا، وبما أنّه كانت توجد هناك ثلاثة غرف نوم، لا واحدة، فإنّ مشكلة القرّاد بدَتْ أكبر .أغلقنا الطابق العلوي تماما، ونمنا في الصالة وفي غرفة الجلوس في الأسفل حتى انتهى العام الدراسي حيث بذلنا عندها جهدا كبيرا للتخلّص من هذه الحشرات.

مع قدوم الطقس الحارّ ملأت الصراصيرُ الحظيرةَ الطويلة المُعتمة التي كان علينا المرور فيها للخروج من أبواب المطبخ .ومع أنّ خالي إينوش أعطانا أنواعا مختلفة من السموم لنجرّبها في مكافحة الصراصير، لكنها لم تكن فعّالة في التخلص منها . ولو كانت مقولة أنّ الصراصير تجلب الحظّ السعيد صحيحة، لكان يجدر بنا التمتّع بالوافر منه في ذلك المنزل.

وفي شهر تشرين الثاني التالي جفّت المياه التي نحصل عليها من المضخة الشبيهة بتلك التي كانت موجودة في المنزل السابق، واضطررنا إلى نقل المياه من مضخّة جارتنا التي لم تكن تبعد كثيرا.

وفي أحد الأيام، وبعد أن بقينا على هذه الحال طوال أسابيع، جاءنا جار آخر يُدعى هيرمان كليميتْسرود ليقترح علينا حلا.

قال" :رأيتكنّ تحملن المياه من منزل شقيقي أُولي، وهذا عمل شاقّ، وبخاصّة في هذا الوقت من السنة .إذا اشتريتم الأنابيب، سأحفر لها الخنادق وأصل منزلكم بمياه المدينة، ولن أتقاضى منكم على هذا العمل سنتا واحدا."

بحلول عيد الميلاد أصبح لدينا مياه جارية في المنزل .وغدت الأعمال المنزلية سهلة بعد ذلك .نادرا ما لَاحظنا بأنّ الصنبور قد تم وضعه في جدار حجرة المؤن الطويلة والضيّقة، تقريبا بجانب الأرضية بالقرب من الباب الأفقي المؤدّي إلى القبو، وأنّه يتعيّن الوقوف بظهرٍ منحنٍ لاستعمال المياه من تلك الحنفية.

خلال فصل الصيف الثاني الذي أمضيناه في هذا المنزل جززنا العشب أولا بوساطة منجل، ثمّ بواسطة آلة جز العشب .صنعت إسثِر، بمساعدة بعض

الفتية من أبناء البلدة، ملعبا بدائيا للتنس وملعبا للكريكيت في الفناء .واشتريتُ أنا نباتات" ابنة الراعي "المليئة بالأزهار من أجلِ أصيص النافذة الموجود خارج النافذة الكبيرة في واجهة المنزل .وأحاط بالمكان القديم جوّ منزلي، وبتنا سعداء للغاية هناك.

تزوّجت إيلين، وغادرت إستِر وأولغا للتدريس، ولذلك بقيت أنا وروبرت ودوروثي وحدنا في توين فالي، كانا مجتهدَين في مساعدتي وانسجمنا معا بشكل رائع.

كان روبرت يقول لي» :لا تخبري الأولاد أنّني أغسل الصحون، ولن يهمّني نوع العمل الذي أؤدّيه.«

استغلينا أيام عطلة الأسبوع لأداء كثير من الأعمال المنزلية الإضافية .كنتُ أحب النهوض في الخامسة من صباح أيام السبت لأتمكنّ من عجن الطحين، وفرك الثياب البيض وغليها قبل وجبة الإفطار .وكان روبرت يساعدني في غسل أرضية المطبخ وفركها بعد ذلك، وكانت دوروثي تتولى مهمّة تنظيف الغرف الأمامية الثلاث في الأسفل .وبحلول الساعة الرابعة عصرا يصبح المنزل في غاية الترتيب والأناقة، والثياب جافّة وفي السلّة، أو معلّقة حول فرن المطبخ إذا كان الطقس سيئا، وطاولة المطبخ مغطّاة بالخبز الطازج، والكعك المحلّى، ولفائف القرفة، وربّما مجموعة من قطع الدونات أو كعكة أو فطيرة .كما أننا نكون قد أخذنا حمّامنا في هذا الوقت، وكنا نرتدي ثيابنا للتوجّه إلى وسط البلد للتسوّق الأسبوعي بعد أن نحتسي قهوة العصر .كانت أمسيات السبت خالية من الأعمال وأمضيناها غالبا مع خالي إينوش والعمة إليزابيث؛ لكنّنا كنّا نحاول العودة إلى

المنزل باكرا لكي نراجع دروس مدرسة الأحد، ودروس الأولاد ودروسي .كنتُ أقوم بمهمّة تدريس مادّة الكتاب المقدّس للأحداث.

كانت كنيستنا في توين فالي أقلّ بهرجة بكثير من الكنيسة التي انتمينا إليها في مينيبوليس، لكن كان حبّي لها أكبر .كان بإمكاني رؤية ما كان يجري في هذه الكنيسة الصغيرة، والأكثر تشويقا من ذلك القدرة على مراقبة الكورس وهو يغنّي، والكاهن في الهيكل وهو يلقي عظته .وبدا التعميد وتوكيد التعميد والعشاء الربّاني أشياء أكثر شخصية الآن بعد أن صار في مقدوري رؤية المشاركين في تلك الأنشطة.

كانت الرابطة اللوثرية تلتقي مساء كلّ يوم سبت .كنتُ رئيسة الرابطة مدّة من الزمن .لقد حفظت البرامج عن ظهر قلب لأعلنها، كي لا أضطر إلى جعل الورقة ملاصقة لوجهي في الكنيسة المليئة بالناس .كما كنت أراجع الترانيم مسبقا في كتاب التراتيل وأعلّمها بقصاصات ورقية لأتمكّن من الوصول إليها بسرعة في أثناء الملتقى.

كنت مشغولة في جميع أمسياتي .مرّت أوقات تمكّنتُ فيها من البدء بتصحيح الأوراق وتحضير دروسي لليوم التالي بعد وجبة العشاء مباشرة .لم يكن في وسعي البدء بذلك قبل الساعة التاسعة أو العاشرة غالبا .لكنّي قمت بأغلب عمليات الحفظ في لحظات غريبة .لقد تمكّنتُ من حفظ التواريخ في مادّة التاريخ فيما أنا أقوم بغسل الصحون وتجفّيفها، من حفظ قوائم الأسماء في الأدب أثناء غسل الثياب وكيّها، حفظ مفردات اللغة الألمانية وأنا أحضّر الوجبات أو أرتّب الأسرّة .

وكان مدهشا ذلك الوقت الكبير الذي وفّرته بعد أن تعلّمت كيف أجمع بين أعمالي المدرسية وأعمالي المنزلية.

بالإدارة الحريصة تمكّنا من تدبير أمورنا المالية .وقد أعطانا خالي إينوش والعمة إليزابيث نصائح ثمينة، وسمحا لي بإقتراض المال إنْ ساءت الأمور جدا .لكنّ رعب الوقوع في الدَّين استبدّ بي وبقيت بعيدة عنه بقدر الإمكان.

كان جيراننا، ممّن لديهم حدائق، كرماء في عطاياهم لنا .السيد ميغان، وهو أستاذ متقاعد كان يقطن في الشارع المقابل .وكان يبدأ العمل في حديقته مع بزوغ ضوء الصباح .وغالبا ما كنت أستيقظ على سماعِ صوته القادم عبر نافذتي المشرعة.

كان يناديني" :أيتها الآنسة دال، هذا قليل من حبات البازلاّء لك"، أو يقول" :هذه الخَسّة لن تبقى صالحة يوما آخر في الطقس الحارّ، تعالَي وخذيها قبل أن تذبل."

كان بعض الناس يقدمون لنا التوت والخوخ والتفّاح والراوند .وكنتُ أضيف تلكم إلى الفاكهة التي أشتريها وأقوم بتعلّيبها لفصل الشتاء .وغالبا ما كان مرضى خالي إينوش القادمون من الريف يسدّدون فواتيرهم بشكل كريما وزبدة وبيض ودواجن ولحوم أخرى؛ ومتى أحضروا هذه الأشياء يأمر خالي إينوش بإرسال بعضها إليّ، لأنه، بهذهِ الطريقة، كان يمكنني الحصول عليها بسعر أدنى .قبيَل عيد الميلاد كنت أشتري خنزيرا وعجيزة لحم البقر .أحفظ بعضا منه مجمدا في السقيفة، وأعلّب بعضه الآخر .كما أنني كنت أذيب شحم الخنزير وأطهي رأس الخنزير وأصنع نقانق بولونيا نرويجية تسمّى رول بولسي.

وفي الخريف كنت أشتري عشرين رطلا من البطاطا من أحد المزارعين، ورطلا من الجزر ومن اللفت السويدي ومن البصل .وكنت أطلب عشرين رطلا من الطحين من السيد جاي أف هايبيرغ الذي كان يمتلك منشأة الطاقة الكهربائية، وكان طحانا أيضا .كنت أشتري أيضا كمية كبيرة من الخشب الأخضر وأطلب نشرها وتقطيعها .ثم أقوم بمساعدة دوروثي وروبرت بتجميعها في الفناء الخلفي وتركها لتجفّ، ثم بخزنها لاحقا في الحظيرة لفصل الشتاء .كانت كمّية الخشب تتقلّص بشكل واضح وهي في الخارج، وكان ينتابني الشك حول جدوى هذه العملية، فأشتري الحطب الجاهز للحرق .كنت أبتاع مؤونة السنة من الفحم عندما يكون ثمنه أرخص ما يكون، وذلك خلال فترة إقفال المدرسة أبوابها .القيام بذلك كان يعني ضغط شديد في النفقات طوال الصيف، لكنّي كنت أُسَرّ دائما لرؤية البرميل مليئا بالفحم في فصل الخريف.

أمضيتُ وروبرت ودوروثي أوقاتا مسلّية كثيرة في تلك الأيام.

كانا يعشقان أن أقرأ لهما، حتى إنّنا وجدنا وقتا لقراءة بضع صفحات وقت الظهيرة إذا بدا الكتاب مشوّقا للغاية .كنّا نسابق الزمن في إعداد طعام الغداء وغسل الصحون، فيما تراقب دوروثي الساعة وأنا أقرأ.

كانت تقول" :انتهى الوقت"، في وقت متأخر للغاية أحيانا فكنتُ بالكاد أتمكّن من العودة إلى مبنى المدرسة قبل قرع الجرس الأوّل.

لم يبدو أنّ الطفلين كان يشعران بالإنزعاج من حاجتي إلى وضع الكتاب قريبا من وجهي وأنا أقرأ لهما، وكنت أستغرق في القصّة إلى حدّ أنّي كنتُ أنسى قيامي بذلك.

لعبنا وغنّينا معا في المنزل أيضا، وكان الطفلان يغنّيان فيما أعزف أنا أو روبرت الموسيقى المرافقة .أعطيته ودوروثي دروسا موسيقية، لكنّ دوروثي لم تحبّ الموسيقا بقدر ما أحبّها روبرت .كانَ روبرت يعزف ويغنّي بكل فرح إلى حدّ أنّ دوروثي كانت تغيظه بالقول إنّه يخيف الدجاج الموجود أسفل نافذة غرفة الجلوس فيدفعه إلى الزعيق.

معظم أوقات التسلية التي كنّا نقضيها خارج المنزل كانت إمّا في الكنيسة أو برفقة طلاّب من المدرسة .بدا أنّهم يحبّون وجودي معهم ولم ينتهكوا حدود علاقتنا الودّية خارج ساعات المدرسة باستغلالي أثناء تأدية عملي في المدرسة .في الواقع كان الصبيان الأكبر سنّا، والذين بقوا خارج المدرسة مدّة من الزمن، ثمّ عادوا لينهوا سنتهم الأخيرة، أكثر محافظة على الروح المرحة السائدة في المدرسة الثانوية.

كنّا ما نكاد ننتهي من غسل الأطباق بعد وجبة العشاء مساء، في بعض الأحيان، حتى نسمع جلجلة الأجراس.

»إنّهم الأولاد، هنا، يدعوننا إلى ممارسة التزلّج «كانَ روبرت يهتف بصوت عالٍ، وهو ينزع مريلته ويعلّقها خلف باب المطبخ بقصد إخفاءها.

وأسمعُ صوتا ينادي من الخارج" :تعالَي يا آنسة دال، فنحن في انتظارك."

لم يكن أمرا ذا أهمية، هبوط درجة الحرارة إلى ثلاثين أو أربعين تحت الصفر .كنّا نتهيّأ بسرعة ونخرج في كلّ الأحوال .فيما نتزحلق على سفوح التلال شرقيّ البلدة، كان الهواء القاسي يلفح قاطعا وجوهنا كالفولاذ .وكنّا نسقط في أكوام الثلج

أحيانا؛ غير أنّنا نعود وننهض ضاحكين ثمّ نشقّ طريقنا صعودا نحو أعلى التلّة من جديد لنتهيّأ لرحلة أخرى نحو الأسفل.

كلّ فرد في البلدة وأشخاص من الريف المحيط بتوين فالي كانوا يجيؤن من أجل الشؤون المدرسية .وفي سنتي الثانية التي أمضيتها في التدريس هناك، كتبتُ مسرحية قصيرة وعرضتها بالتعاون مع الآنسة إنيز هولم، معلّمة الصفّ الثامن . استخدمنا غرفتها لأنّها أكبر من غرفة الاجتماعات بالمدرسة الثانوية، ومع ذلك ضاق المكان بمن فيه .كانت تُنظّم مباريات كرة السلّة في مبنى شاغر في وسط البلدة، وكانت تحضر حشود كثيفة جدّا إلى حدّ أنّ اللاعبين كانوا يعلقون أحيانا وسط جموع المتفرّجين.

في السنة التالية لتخرّج روبرت من المدرسة الثانوية، رحلنا عن توين فالي .لم يعد بمقدور روبرت العيش هناك، إذ كان في طريقِهِ للإلتحاق بالكلّية .فيما ستكون دوروثي مستعدة للالتحاق بالجامعة في غضون سنتين.

قال لي خالي إينوش والعمة إليزابيث" :يجدر بكِ السعي الى نيل منصب أفضل، فالمدرسة صغيرة إلى بحيث ليس لكِ مستقبل فيها."

قدّمتُ طلبات لمنصب تعليمي في مدارس مينيبوليس، لكنّني لم أُوَفَّق في الحصول على واحد، ولذلك قبلتُ بعرض للتدريس في إندرلين بولاية نورث داكوتا. فذهب الأطفال إلى المدرسة في مينيبوليس ولم نعد قادرين على الاحتفاظ بمنزل يجمعنا كلّنا.

كانت سنة 1918 سنة سيئة بالنسبة لي للقدوم إلى إندرلين .فقد كانت البلدة مقرّا لشركة سكك الحديد سو لاين، كانت مكتَظّة بسبب الزيادة في النشاط التجاري على السكك الحديدية أثناء الحرب .كان من الصعب العثور على أحياء سكنية هادئة، وكان الحيّ الذي أقمتُ فيه غير مريح، كما أنّني اشتقت إلى الأطفال وقلقت عليهم كثيرا.

انتشر وباء الإنفلونزا حالما وصلتُ، ونتيجة لذلك عانى العمل المدرسي من انقطاعات كثيرة .وفي فصل الخريف الثاني الذي أمضيته في إندرلين انتشر وباء العِقْدية، وكان بمثل سوء الإنفلونزا وقد عمّ البلدة والريف المجاور لها.

كما كان لعينَيّ دور في صعوبة تكيّفي مع البلد .وهذا ما أحسستُ به فعلا، فلم أتمكّن من التعرّف إلى أعضاء مجلس إدارة المدرسة أبدا، وقبلَ أنْ أتعرّف إلى الناس كان مظهري يكون ضدّي دائما .خلال الأسبوع الأول، كان المتسكّعون الجالسون على امتداد الرصيف في الشارع الرئيسي يتمتمون بملاحظات جارحة بشأن عينَي بصوت يمكنني سماعه، وقام بعض الصبيان الصغار بالصراخ في وجهي مرّة أو مرّتين وأنا في طريقي إلى مكتب البريد .غير أنّ هذه المضايقات توقّفت بالكامل بعد مدّة وجيزة.

تناولت وجباتي في" ذي بينيري"، وهو مطعم السكّة الحديدية في المحطّة .كان أفضل مكان لتناول الطعام في البلدة، وكان يديره زوجان لطيفان هما السيد والسيدة ريد .كان يأتي إلى المكان عمّال السكك الحديدية من جميع الطبقات: رجال من ورشة تصليح القطارات، ورجال إطفاء، ومهندسون، وعمّال المكابح، وكاتبو البرقيات، ومراسلون، وقادة، والمسؤول عن حركة القطارات، ومدير

القسم .وكان كثير منهم أقاربَ لطلاّبي الثانويين .وبما أنّ غرفة الطعام لا تُستخدم إلاّ في المناسبات الخاصّة، كان الزبائن يجلسون على مقاعد مرتفعة في الغرفة الكبيرة .وفيما عدا النادلة كنتُ الإمرأة الوحيدة في ذلك المكان .وقد عاملني عمّال السكة الحديدة بلطف دائما، ولم يسبّبوا لي إحراجا بالإشارة إلى عينَيّ، على الإطلاق .واعتبرتهم مجموعة رائعة من السادة المحترمين، تحدّثنا عن المدرسة وقطاع النقل بالسكك الحديدية، وتعلّمت منهم كثيرا من الأمور المشوّقة المتّصلة بهذا القطاع.

إندرلين هي المحطّة التي بدا لي فيها لأوّل مرّة أنّ عينَيّ ليستا عائقا مطلقا لي في مهنة التعليم، بل إنني بسبب ما عانيته معهما من مشكلات جمّة صرت أهبّ لمساعدة أيّ شخص يحتاج المساعدة.

سبق أن قالت لي ماريا سانفورد" :كلّنا لدينا إعاقات"، وأنا أكتشف ذلك الآن في طلاّبي.

مثال على ذلك، كان يوجدُ في السنة الأولى صبيّ يُحضر البقّ والديدان إلى المدرسة لترويع الفتيات .وفي أحد الأيام وضع ضفدعا على الطاولة أمامه، وعندما قفزت على الفتاة الجالسة هناك أطلقت صرخة أزعجت كلّ من في قاعة المدرسة .استبقيتُ الصبيّ بعد انتهاء الدوام وسألته" :لِمَ فعلت ذلك؟."

في البداية لم يتقبّل ملاحظاتي، لكن بعدما كلّمته مدّة من الوقت أحسستُ أنّه بدا بينه وبين نفسه مُحرَجا ونادما على فعلته.

قلتُ له" :أنت أرقى من أن تعامل فتاة على هذا النحو."

سعيتُ للكلام معه على انفراد في الأسابيع القليلة التالية، ووجدتُ أنّه قد سافر أكثر من معظم الأطفال الذين في سنّه .شجّعته على أن يحدّثني ويحدّث الطلاّب بعد ذلك في صفّ اللغة الإنكليزية عن الأماكن التي كانَ قد زارها .وبعد وقت وجيز أحضر لنا صوَرا لنشاهدها :مشهد جميل من جبال الروكيز الكندية؛ مشاهد لشلاّلات نياغارا، وأحضر لنا ذات يوم صورة لمنزل مارك توين في هانيبال بولاية ميسوري .تأثّر زملاؤه كثيرا وغدا بطلا في عيونهم.

ثمّ عرفت الدافع وراء سوء سلوكه .كان صغيرا جدّا ونحيلا، ولذلك لم يستطع المشاركة في كثير من الألعاب الرياضية مع الصبيان والانضمام إليهم في الأنشطة الكثيرة التي يحبونها، وأورثه ذلك حزنا أدّى إلى نشوء عقدة دونية لديه .ولكي ينفّس احتقانه بدأ بإزعاج الفتيات، وسعى ليثبت لهنّ أنّه شخص مكتمل الرجولة لا يخشى شيئا.

وكان هناك صبيّ آخر يُزعج الصبيان الأصغر منه سنّا بطريقة فظّة، وقد نشأ في منزل علمتُ من إحدى المعلّمات أنّه بالكاد يسمع فيه كلمة لطيفة طوال الوقت . وقبل أن أسعى لأكلّمه على انفراد قرّرتُ أن أكون لطيفة معه على نحو فائق للعادة، وأن أمدحه لأنه يفعل أمورا وجب عليّ استخدام مخيّلتي لأكتشفها.

قلتُ له في أحد الأيام عندما أغلق الباب في وجهي بقوّة" :كان إبقاؤك للباب مفتوحا عملا جيدا."

أعاد النظر إليّ وعبس من غير أن ينطق بكلمة.

وفي حادثة أخرى التقط قطعة طبشور ومسح يده وأراد أن يلطّخ معطف صبيّ أمامه، فأخذتها منه مدّعية أنّي ظننتُ أنّه يريد إعطاءها لي.

قلت له" :أشكر لك التقاط تلك الطبشورة قبل أن يدوس عليها أحدهم ويسحقها."

بدا متفاجئا، لكنّني لاحظتُ في نهاية الصباح أنّه مشى خارجا بطريقة مؤدّبة من غير أن يُزعج أحدا.

وبعد نحو أسبوع سلّمني بحثا جيدا عن .The Man without a Country أثنيتُ عليه أمام الطلاّب الآخرين في صفّه، وطلبت منه قراءة مقطع قصير من البحث، فاستقام الصبيّ، وذُهلت لسعة المعلومات العامّة لديه.

قلتُ له بعد أن كنّا قد ناقشنا A Message to Garcia وكانت له بضعة إسهامات جيّدة فيها" :كنت رائعا في الصفّ اليوم، من أين حصلت على كلّ هذه المعلومات عن كوبا؟."

ابتسم وقال" :قاتل عمّي في الحرب الإسبانية الأميركية وأخبرني الكثير عن كوبا."

ثمّ أصبح أكثر الطلاّب الذين يمكن الاعتماد عليهم في المدرسة الثانوية.

ساعدتُ طلاّبا آخرين أيضا، فقد لفتت انتباهي مرة فتاة صغيرة تعاني مشكلة في السمع، ولم أجد مشكلة أبدا في نقلها إلى مقعد يمكنها منه أن تراني وتقرأ شفتَيّ . وعندما بدأ أداء طالبة مجتهدة بالتدهور فجأة عرفتُ أنّ شيئا ما قد حصل، ولم يطل الأمر قبل أن أُقنعها بإطلاعي عليه .وكان الأمر أن مرض أمها المصابة بالسل

قد اشتدّ، فوجب عليها أن تقوم بالأعمال المنزلية وتعتني بالأطفال الأصغر منها . فأطلعتُ المعلّمات الأخريات على حال الفتاة وقدّمتُ لها تدريبا إضافيا بحيث حقّقت نتائج مُرضية في نهاية السنة مع أنّها غابت عن الدروس أغلب الوقت.

كان قلبي يُشفق على هؤلاء الصغار، وعلى نحوٍ ما، بعد أنْ أكون قد تمكّنتُ من فعل شيء ما يسهّل عليهم حياتهم، كان ينتابني شعورٌ أفضل حيالَ عيني.

كنتُ محظوظة في الانتقال بعد ذلك إلى هارموني بولاية مينيسوتا للتدريس في بلدة صغيرة، إذ كانَ ذلك المجتمع الصغير عند حسن ظنّي.

أغلب منازل البلدة كبيرة، ومطلية باللون الأبيض الثلجي، وكانت تفصلها عن الشارع مسافة كبيرة .حيث تكون في الصيف مغطّاة بستار من الأشجار الباسقة التي تنبت في فنائها الأمامي .كان كل ساكن في البلدة يُحبّ الأزهارَ، وكانت الحدائق تمتلئ بها من أوائل فصل الربيع حتى قدوم الصقيع في فصل الخريف.

في الطرف الجنوبي للشارع الرئيسي، كانت كنيسة لوثرية وأخرى ميثودية، مُشيّدة هياكلهما بالطوب الأحمر الجميل، تنتصب كلّ منهما مقابل الأخرى، فوق مروج خضراء متدرّجة .كنّ العديد من النساء في البلدة يرتدنَ الكنيستين، ولذلك تناوبت الكنيستان على إقامة قداديسهما كي لا يفوت الناسَ أيٌّ منها .وتناوب الكهنة في تقديم العظات في احتفالات توزيع الشهادات وفي الدعاء والتبريكات في حفلات التخرّج لخرّيجي المدارس الثانوية.

عندما يكونُ الطقس معتدلا في أمسيات أيام الأربعاء والسبت، وكانَت المتاجر تفتحُ أبوابها حتى ساعة متأخّرة، كانَتْ الأسر القادمة من هارموني ومن الأرياف

حولها تُحضِرُ عشاءها إلى المنتزه، الواقع في وسط البلدة، وكانتْ تلك الأُسر تطلبُ من كلّ شخ، يصدف مروره بِها، الإنضمام إليها .وكانَ أيضا أمرا شائعا أن تدعو مدبّراتُ المنازل الضيوفَ إلى منازلهن لتناول العشاء أيام الأحد، وكنت أتلقّى في بعض الأحيان ثلاث أو أربع دعوات وأنا أشقّ طريقي عبرَ الممرّ المؤدي إلى الفناء الخلفي للكنيسة.

إذا طرأت حالة مَرَضية كنّ نسوة الجيران يبادرنَ إلى التواصل هاتفيا لإعداد ترتيبات بغية مساعدة الأسرة الواقعة في مشكلة .في حالات الوفاة كنّ يُزيّنَّ الكنيسة والقبر بالنباتات والأزهار التي يُحضرنها من منازلهنّ؛ وكنّ يقدّمن الطعام للأقارب الذين قدموا للمشاركة في الجنازة، ويقدّمن لهم المأوى إذا لم يكن هنالك مُتسع في المنزل الذي حدَثتْ فيه الوفاة .وفي مناسبات الزواج ترشُّ البلدةُ بأسرها العروسين بالماء.

كان هناك أشخاص في هارموني تطوّعوا للقيام بواجبات خاصّة، والجميع كانَ على علمٍ بذلك ويعدّونَه أمرا طبيعيا .كانت إيمّا ثاندايل وأمّها تحرصان على الاعتناء بالمعلّمات الجدد، مع أنّه لم يكن لديهما أبناء في المدرسة، وفي بعض الأحيان كانت معلّمتان أو ثلاث معلّمات يمضينَ نهاية الأسبوع معهما .السيدة إديتور جونسون، التي كانت أوّل امرأة في هارموني تشارك في الاقتراع عقب نيل المرأة حق التصويت، كانت ملمّة بكلّ قانون برلماني مدوَّن .وإذا أردت شتلة فما كان عليك سوى الذهاب إلى مالفيني ميلر؛ إذا أردت أنْ تتعلّم إعداد أيّ صنف من الطعام، فإلى السيدة كوامين؛ أنْ تتعرّف على طالعك، إلى السيدة كيركيلي . وأيّ طفل كان يرغب بشيء ما، فقد كانَ يذهب إلى آنّا سيم، التي كانت تعمل

معلّمة في المرحلة الابتدائية .عندما كانت تسير في البلدة من مبنى المدرسة إلى منزلها عبر الطرق الواقعة في الجانب الشمالي، فإنّ الأطفال من مختلف الأعمار كانوا يقولون لها بصوت عالٍ" :مرحبا يا آنسة سيم .رأيتكِ في الكنيسة يا آنسة سيم .سأقدّم لكِ هدية عيد ميلاد يا آنسة سيم ."ولم يحصل أن دخل طفل في هارموني المستشفى، أو عانى من إعاقة ما أو احتاج إلى أيّ مساعدة، إلا وتذكّرته آنّا سيم بطريقة ما.

لم يكن من الممكن الحديث عن المدرسة دون التطرّق إلى السيد باري، المشرف على دروس الموسيقا .كان رجلا ويلزيا ضئيل الحجم،كانَ قد أحضر معه إلى أميركا لهجته الويلزية وولعه بالموسيقا، وكان يمُثّل جزءا من التقليد في هارموني حين وصلت .وعادة ما يكون في أحسن حالاته عند المشاركة في برنامج عيد الميلاد الذي تنظّمه المدرسة الثانوية في مبنى الأوبرا الصغير القديم على مقربة من الشارع الرئيسي في صباح اليوم السابق على بدء العطلة .كانَ يقف بين شجرتين باسقتين دائمتي الخضرة، تفوح منهما رائحة زكية،و وجهه الأحمر محاطا بهالة من الشعر الأبيض، فيما يقوم بتوجيه الفتيان والفتيات أثناء الغناء، ويشارك بشخصه في ترانيم عيد الميلاد كما لو أنّ حياته تعتمد على ذلك.

ربّما كان للموسيقا في المدرسة، بالإضافة إلى المحيط المتناغم، أثر كبير في طلاّب المرحلة الثانوية .وما من شكّ في أنّ الانضباط هناك كان رائعا .فلم يكن هناك طفل مُدلّل بإمتلاكه الكثير، وليس هناك من فقرٍ حقيقي وسطهم .سلوكهم كان يذكّرني بطلاّبي في توين فالي .غير أنّ بلدة هارموني كانت تسبق توين فالي بجيل؛ ولذلك بدا كلّ شيء فيها أكثر رسوخا وبقاء.

بدأت أتعرّف في المدرسة، وفي الشارع، على الأشخاص بسرعة أكبر من أيّ وقت سبق .ربّما كنتُ أتبّنى دون وعي مني طرقا مختصرة بهذا الخصوص، مثلما كنتُ قد تعلّمتُ القيام بهذا فيما يتعلّق بحفظ الموادّ التي كنتُ أقومُ بتدريسها في المدرسة .لقد تمتّعت براحة بال مطلقة .سكنتُ مع جوليا سوم في السنة الأولى، ومع آنّا سيم في السنة الثانية، وفي كِلا المكانين أحسستُ وكأنّي في منزلي.

لكن، وعلى الرغم من بهجتي في عملي وسعادتي وسط سكّان البلدة، إلّا إن هناك أمرا كان يسبّب لي قلقا كبيرا .لم أكنُ أسمَح لَه بأن يضايقني في البداية .كنتُ أقول لنفسي بأنّ هذا من صنعِ خيالي، بأنّي، ولكوني لم أعتد على سير الأمور وفق مشيئتي، لا أمتلك حسّا كافيا لتقدير الجيد حين حصوله، بأنّي أسعى وراء المشكلات .لكن مع نهاية فصل الشتاء الثاني، عندما حان الأوان للتفكير بشأن توقيع العقود للسنة التالية وإقفال المدرسة أبوابها، فقد تحتّمَ عليّ أنْ أقرّ بأنّي أمام حقيقة واقعة، وأدركتُ بأنّي لن أعود إلى هارموني في فصل الخريف.

لقد كانت عيني.

الفصل الخامس

»أتساءل ما إذا لم يكن لدى أمّك مانع في بقائي حتى يوم الاثنين؟«، قلتُ لآنّا سيم ونحنُ في طريقِ عودتنا إلى المنزل بعد حفل تخرج طلاّب الثانوية العامّة.

أجابت آنّا بلطف" :بالطبع لا، فنحن نحبّ أن تبقَي مدّة أطول إذا شئتِ."

قلت لها" :لا، عليّ أن أغادر يوم الاثنين، وأنا أخطّط لركوب حافلة الظهيرة المتوجّهة إلى روشسْتر."

"لماذا يا بورغيلد، أنتِ لستِ مريضة، لستِ ذاهبة إلى العيادة، أليس كذلك؟."

"بلى، سأذهب إلى عيادة مايو، إنّها عيناي، كما ترَين، لم أفعل شيئا لمعالجتهما منذ أن تُوفّيت أمّي، كان رأيها دائما أن أزور العيادة مرّة على الأقلّ في السنة."

"هل ساءت حالهما أكثر من المعتاد مؤخّرا؟."

لم أُجب عن سؤالها، لم أكن أحدّث أحدا على الإطلاق بشأن عينَيّ، ولم أستطع حمل نفسي على الحديث عنهما الآن .أمِلتُ بألاّ تكون آنّا ووالدتها قد لاحظا مدى احمرار عينَيّ والتهابهما طوال العام، لا سيّما عيني التي لا أبصر بها .منذ شهر أو أكثر، كانت عيني السليمة تؤلمني هي الأخرى، إلى حدٍّ أكاد معه أنْ أصرخ.

ودون استفاضة في مناقشة الموضوع قالت لي آنّا مساء يوم الأحد إنّها سترافقني إلى روشستر، وقالت بأنّها تعرف البلدة والعيادة، وبهذه الطريقة تُسهُل المسألةُ عليّ كثيرا .هذا ما كانت عليه آنّا، مما جعلني أقبلُ عرضها بكلّ امتنان.

كان يصعب تصديق أنّ بلدة صغيرة مثل روشستر يمكن أن تحوي هذا العدد الكبير من المباني الشاهقة، وأنّ شوارعها مكتظّة في ساعات الصباح الأولى. السيارات كانت مزدحمة على امتداد حافّة الرصيف بقدر ما كان يسمح المجال، وتبيّن من أسماء الولايات التي قرأتْها آنّا على لوحات السيارات أنّ الناس قدموا من جميع أنحاء البلاد .التقينا بمرضى على كراسٍ مدولبة، وبممرّضات في أثواب بيض، ورجال شرطة، وحمّالين، ورجال ونساء بملابس فاخرة، بدا وكأنّهم يملكون من المال ما يكفي لشراء العالم.

بعد أن تناولنا وجبة الفطور ونحن في طريقنا إلى العيادة، أشارت لي آنّا إلى أماكن، لم أكنْ قادرة على قراءة لافتاتها :مطاعم، فنادق، مقاهٍ، سكن مشترك وسكن داخلي، بيوت للنقاهة، مستشفيات، وفي وسط كلّ ما تقدّم، العيادة.

سألتني الفتاة عند مكتب التسجيل في عيادة مايو إن كنتُ قد حدّدت موعدا مع أحد الأطبّاء هناك، فأجبتها بالنفي، ثمّ سألتني إن كان هناك طبيب معيّن أودّ رؤيته، فقلتُ لا، ثمّ سألتني إلى أيّ قسم أودّ الذهاب، فأجبتها أنّني لا أعرف أيضا، لكنّي قد أتيتُ لاستشارة شخص بشأن عينَيّ.

كان قسم العيون يقع عند نهاية ردهة طويلة وضيّقة ومُعتمة جدا .صُفّتْ الكراسي على كلا الجانبَين، وكان العديد منها مشغولا .جلستُ وآنّا عند أقرب مقعدين إلى مكتب كانت تجلس وراءَه إمرأة شابّة .سلّمتها المغلّف الذي كانوا قد أعطوني إيّاه عندما سجّلت اسمي، وبعد وقت وجيز جاءتني وطلبت منّي مرافقتها. كنت متوتّرة ورجوتُ آنّا أن تأتي معي، ثمّ دخلنا إلى غرفة استشارات صغيرة.

فاجأني وجود هذا العدد الكبير من الأطبّاء الذين جاؤوا لرؤيتي هناك .في البداية نظر شخص أسمر قصير القامة في عينَيّ مدّة طويلة من خلال زجاجة، ثمّ أجرى لي شخص طويل فحصا أشمل .وبعد ذلك، خضعت لفحوص على يد المزيد منهم، ونظرا لكثرة عددهم ولشعوري بالإنزعاج، كان انطباعي حيال آخرهم أكثر التباسا .هذا الروتين كان أمرا مألوفا لدي لأني كنتُ قد خضعت كثيرا لمثل هذه الفحوص في أثناء زياراتي السابقة للدكتور بنديك والدكتور بوكْمان، لكنّي خضعتُ هذهِ المرّة إلى مزيدٍ من الفحوص، وبدت وكأنّها أشدّ تعقيدا من سابقاتها.

أخيرا تُركت وحدي مع الطبيبين اللذَين رأيتهما أوّلا، وبدأ الشخص الطويل بالتحدّث إليّ.

قال إنّهم سيتمكّنون من فعل شيء لي يُريحني من حالات الصداع ويوقف الإلتهاب الموجود في عينَيّ .العين اليمنى عديمة النفع ويجب إزالتها لوجود خطر كبير في أن تؤثّر في العين الأخرى .كما أنّ العين التي لا تُبصر تشوّهني، ومن شأن عين اصطناعية أن تحسّن مظهري إلى حدّ بعيد.

سألته وأنا لا أكاد أصدّق ما يقوله لي" :هل تظنّ فعلا أنّ عينا اصطناعية ستبدو أجمل من العين التي لديّ الآن؟."

أجاب" :بالتأكيد، وأنا أشكّ في أن يشتبه أيّ شخص في أنّها ليست عينكِ."

صحت بصوت مرتجف" :هذا رائع !متى يمكنني إجراء العملية؟."

أجاب" :علينا أن نعرف أوّلا إن كنتِ تستطيعين تحمّل قليل من المخدّر."

نُقلتُ إلى غرفة أكبر وأكثر إضاءة .لم يكن في مقدور آنّا مرافقتي إلى هذا المكان . وبدا أنّ لا نهاية لعدد الأطبّاء الذين قدموا وذهبوا .كلّ هذا الهياج، فقط من أجل إزالة عين، فكرتُ مع نفسي.

وفيما كنتُ أخضع للفحوصات والاختبارات سمعتُ صوت فتاة من مكان ما وهي تقول" :طلب عاجل، الدكتور بنيديكت، طلب عاجل الدكتور بنيديكت."

أخيرا انتهت الفحوصات والاختبارات، وكانت قد استغرقتْ جلّ ساعات الصباح، وأُعطيتُ بطاقة دخول إلى» مستشفى ورال «عند الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم.

ذُعِرَتْ آنّا عندما أريتها البطاقة، وقالت" :لا يمكنني البقاء وحدي معكِ وأنتِ تخضعين لهذه العملية، وشقيقتاك لن تسامحاني أبدا إذا سارت الأمور على غير ما نشتهي، علينا أن نطلب من دوروثي المجيء."

قلت لها بأنّي لستُ بحاجة إلى أنْ أرسلَ في طلب أحد، إذْ لم يسبق أن أحسست بهذه السعادة طوال حياتي، ألم تفهم؟ سيساعدني هؤلاء الجرّاحون على إزالة عيني التي لا تُبصر .لطالما أملت ودعوت بأن يحدث هذا يوما ما، لكنّي لم أؤمن حقا بأنّ ذلك سيكون ممكنا.

قلتُ لآنّا" :أنا مبتهجة لدرجة أنّه يمكنني أداء رقصة سريعة الآن."

لكنّها بدت غير مقتنعة وقلقة.

قلتُ لها" :هيا، ما الأمر ...!أيّ شخص يراك قد يعتقد أنكِ من سيخضع للعملية وليس أنا !ابتهجي ...ليس هناك داعٍ للقلق، خذيني إلى أفخم مطعم في البلدة، لأنّنا سنحتفل."

كانت لا تزال أبعد ما يكون عن الحماسة، لكنّها أخذتني إلى مطعم جيّد حيث تناولنا وجبة لذيذة.

وعند الساعة الخامسة توجّهنا إلى المستشفى، وبعد أن وُضِعتُ في السرير وجاءت آنّا إلى الغرفة لتراني، دبّ فيها الذعر مجدّدا.

قالت» :ستقتلني شقيقتاك لسماحي لكِ بفعل هذا.«

كان صوتها يرتجف وهي تتكلّم.

وافقتُ أخيرا وقلت" :حسنا، اطلبي إلى ممرّضة أن تُحضر لي هاتفا لأتّصل بدوروثي."

اتّصلتُ بدوروثي وهي في مهجع الجامعة .كادت تنهار حين قلتُ لها إنّني أكلّمها من مستشفى في روشستر، وأصرّت على المجيء في الحال، لكنّني أقنعتها بأنه لن يكون هناك داعٍ لذلك، وأنّ فرحي بزيارتها لي لاحقا سيكون أكبر.

لم أنم طوال تلك الليلة، وبقيتُ أفكّر كيف سيكون إحساسي وسط الحشود وأنا أعرف بأنّ الناس لن يشيروا إليّ بصفتي الفتاة ذات العينين المُرعبتين، ولن يقوموا بالإشفاق عليّ أو الإستهزاء بي بسببهما .بقيت هادئة تماما طوال الوقت إلى ما بعد الظهيرة بقليل، حين وُضعت عندئذ في كرسيّ مدولب ونُقلت في المصعد

من الطابق الثاني إلى الطابق الرابع .تُركتُ هناك في الردهة .كان هناك رجال ونساء بلباس أبيض يمرّون بجانبي، وكان بعضهم يختفي خلف الأبواب المزدوجة الواقعة أمامي بالضبط .وكانت الأضواء الحمر والبيض تومض، وصوت جرس يقرع بين الحين والآخر .بدأت حينها أفكّر في العملية التي سأخضع لها وتساءلت كيف ستكون .فاقشعرّ رأسي وأحسست بألم في صدري .وظننت أنه ربّما لم تكن عيناي سبب الصداع الذي كان ينتابني، وكدت أندم على مجيئي إلى العيادة.

تقدّم أحد الرجال الذين يرتدون لباسا أبيض نحوي وكذلك فعلت ممرّضة .ساقا كرسيّي المدولب عبر الأبواب المزدوجة وصولا إلى غرفة ذات نافذة سقفيّة فوقي.

كانت غرفة هادئة تماما، وهناك تمدّدت على طاولة.

سمعت صوتا قريبا من أذني يقول": اجلسي لدقيقة من فضلكِ."

فحص رجل يرتدي لباسا أبيض عينَيّ، وقال": حسن، يمكنكِ التمدّد مجدّدا الآن."

ثمّ وضع شخص قناعا على وجهي وقال": تنفّسي بعمق."

كان صوت امرأة هذه المرّة.

أحسست أنّني أختنق، لكن قبل أن يمكنني فعل شيء حيال الأمر، أحسستُ أنّني أطير في الهواء ثمّ لم أعد أعي شيئا بعد ذلك.

كنت ضعيفة للغاية حين أفقتُ من المخدّر .لزمتْ آنّا الغرفة في الليلة السيئة الأولى، وبقيت معي بضع ليالٍ أخرى .وتملّكني الخوف عندما رأيت الجرّاح يقترب

منّي، وحبستُ نفسي وهو ينزع الضمادات ويهيج الألم مجدّدا في عيني، لكن لم يمضِ وقت طويل حتى تمكّنتُ من مغادرة المستشفى .وبقيت آنّا معي في روشستر كي يتسنّى لها اصطحابي إلى العيادة كلّ يوم لتغيير ضمادات عيني.

وفي صباح يوم الأحد نقلني الدكتور غوس الذي تولّى رعايتي إلى غرفة فيها رجلان آخران.

كان الأوّل طاعنا في السنّ، أبيض الشعر وذا لحية طويلة بيضاء، وكنتُ أدركُ بأنّه لم يسبق لي أن رأيته سابقا.

أمّا الثاني فعرفته على الفور، كان الطبيب الطويل القامة الذي أخبرني في اليوم الأول أنّه يتعيّن عليّ الخضوع لفحص لمعرفة إن كانت أستطيع تحمّل المخدّر، وكنتُ واثقة تماما بأنّه أيضا نفس الشخص الذي نظر إلى عينَيّ في غرفة العمليات .مع ذلك، فقد كنت في كلا المناسبتين مضطربة ومتلهّفة إلى حدّ أنّي لم أكوّن عنه انطباعا واضحا على الإطلاق .والآن تبيّن لي أنه ضخم الجثّة، وذو عينين حادّتين جدّا إلى درجة أنّهما بدتا وكّأنّهما تنظران بشكلٍ مُستقيمٍ من خلالي، وكانَ وجهه الجميل يعبّر عن قوّة عظيمة وعن لطف كبير أيضا.

لم أفطن وأنا أجلس هناك في صباح ذلك الأحد أنّه الدكتور بنيديكت، رئيس قسم طبّ العيون في مايو كلينيك؛ وعلى الرغم من إنّه كان ما يزال في مقتبل العمر، إلّا إنّه كان جرّاحا عظيما، وسوف يرتقي في سنين لاحقة إلى مصافّ الأطبّاء البارزين عالميا في تخصّصه؛ وعلى الأقلّ، قُدّر له أن يصبح صديقي ومستشاري الوفيّ، ويكونُ له تأثير عظيم في حياتي فاق تأثير أيّ شخص آخر طوال السنوات العشرين التالية، بل أكثر من ذلك.

سمعتُ الدكتور غوس يقول" :يا دكتور بنيديكت، هذه هي المريضة التي ذكرتَها للتوّ."

قال لي الدكتور بنيديكت" :آنسة دال، أودّ منكِ أن تلتقي بالدكتور فوش من فيينا."

وفيما نحن الثلاثة نتحدّث دخل الغرفةَ عدد من الأطباء الآخرين .وبعد مدّة شرح الدكتور بنيديكت لهم وللدكتور فوش تفاصيل العملية التي أُجريت لعيني . أخبرَهم بأنّها كانت قد زادت رجوعا إلى الخلف داخل الرأس قريبا من الدماغ، ولذلك أدخل كرة زجاجية بعد أن أزالها لتكون بمثابة حشوة تملأ التجويف وتجعل العينين متساويتين في الحجم تقريبا .وقد أوصِلَتْ الكرة الزجاجية بعضلات عيني السليمة لتنسيق حركة كلتا العينين.

سمعت أحد الأطبّاء يقول بصوت خافت وهو ينحني ليلقي نظرة عن قرب" :هذا عمل مدهش."

قال الدكتور بنيديكت وهو يلتفت إلى الدكتور فوش" :كما ترى، ستتمتّع بحركة حرّة في العين."

قال الدكتور فوش وهو ينظر إلى العين مطوّلا وباهتمام" :أجل، أجل، فهمت . هذا جيّد .جيد جدا.«

خلال مدّة النقاهة التي أمضيتها في منزل آنّا سيم في هارموني، بقيت أفكّر في العين الاصطناعية وكيف سيبدو مظهري بوجودها .كنتُ أسأل السيدة سيم كلّ يوم عن مدى تحسّن وضع عيني.

كانت تقول وهي تضع الدواء على مكان الجراحة" :إنّها في تحسّن مستمرّ، لكن عليكِ ألاّ تتوقّعي الكثير، وتذكّري أنّها كانت عملية خطيرة."

سألتها أيضا عن مظهر المحجر، هل يوجد تجويف عميق هناك؟ هل تعتقد أنّ العين الصناعية ستكون بمثل حجم عيني الأخرى؟

أجابتني" :لا أستطيع الإجابة، لكنّ المحجر يبدو جميلا بالتأكيد."

كان من المفترض أن أُقضي جزءا من كلّ يوم في السرير، لكنّني لشدّة حماستي لم أستطع أن أنام خلال النهار.

وبّختني السيدة سيم قائلة" :إذا حاولتِ الخلود إلى الراحة، سيكون شفاء عينكِ أسرع."

وأخيرا جاء اليوم الذي عدت وآنّا فيه إلى روشستر.

أزال الدكتور بنيديكت الضمادة ونظر إلى العين بانتباه شديد، ثمّ توجّه نحو خزانة وأحضر مجموعة من العلب الخشبية .كان في داخلها وسط البطانات المخملية صفوف من العيون الصناعية المرتَّبة مثل الخواتم أو الدبابيس في متجر مجوهرات، رأيت عيونا زرقاء بتدرّجات لونيّة متنوّعة وعيونا بنّية وأخرى رمادية.

قال الدكتور بنيديكت وهو ينظر في العلب وفي عيني السليمة" :لنرَ، أنتِ في حاجة إلى عين زرقاء، أليس كذلك؟."

اختار كثيرا منها ووضعها قريبا من عيني، وفي آخر المطاف أعادها إلى العلب جميعا عدا واحدة.

جلستُ متوتّرة الأعصاب.

قال" :حسنا، لنجرّب هذه."

بأصابع يده اليسرى فتح جفن عيني التي خضعت للعملية، وبيده اليمنى وضع العين الصناعية في المحجر .أحسست في البداية ببرودتها ونعومتها.

قال لي الدكتور بنيديكت" :والآن، قومي بما كنتِ تقومين به من قبل، أنزلي عينيكِ ثمّ ارفعيهما، هذا جيّد، والآن إلى اليسار، والآن إلى اليمين."

عندما قمت بذلك بدا لأوّل وهلة كما لو أنّ في عيني جمرة مطفأة، لكن بعد أن كرّرت العملية مرّتين أو ثلاث مرّات لم أعد أحسّ بشيء.

قال الدكتور بنيديكت" :يا للعجب، حتى إنّ تلك العين توحي بأنّها مطابقة للأخرى، والآن انظري إلى نفسك."

سلّمني مرآة.

بالكاد صدّقتُ أن الوجه الذي أراه هو وجهي، فعوضا عن عين لا تُبصر، غارقة في رأسي وكثيرة الندوب، توجدُ الآن عين طبيعية تماما ومطابقة لعيني السليمة باستثناء خلوّها من بقعة بيضاء فيها.

قال الدكتور بنيديكت" :إنّها مثالية."

ثمّ مضى يتحدّث عن طريقة الاعتناء بعيني .قالَ أنّه سيكون من اللازم طبابة محجر العين بالعقاقير عدّة شهور قبل أن يبرأ بما يكفي لوضع العين الصناعية فيه بشكل مريح.

لكنّه حذّرني قائلا" :حتى عندما تبرأ يتعيّن عليكِ إخراج العين كلّ ليلة لإراحة المحجر، ويجب عليكِ علاجها كلّ صباح ومساء .إن لم تفعلي فستعودين إلينا للخضوع لعملية أسوأ بكثير من العملية التي خضعتِ لها للتوّ .تذكّري، عليك المحافظة على نظافة المحجر."

ثمّ شرح لي كيفية إعداد محلول حَمْض البوريك من البلّورات كوني سأستخدمه طوال حياتي.

مع أنّ الردهة في الخارج كانت ممتلئة بأناسٍ، ممن كنتُ أعرف العديد منهم، كانوا ينتظرون دورهم لمقابلته، إلّا إنّه لم يبدو على الدكتور بنيديكت بأنّه كان على عجلة من أمره .سألني عن أسرتي وعن تعليمي وكيف تسير أموري في التدريس . وبدا متفاجئا من الإنجازات التي حققتها على هذا النحو .وقال إنه يظن أن بإمكاني أن أكون عاملة ودودة وسط المكفوفين، وأعطاني أسماء وعناوين أشخاص كثر في نيويورك ممّن يستطيعون تقديم معلومات لي عن هذا الشأن.

أحسستُ أنّني آخذ الكثير من وقته، فشكرتُ له لطفه، ظنّا منّي أنّني أتيح له بذلك فرصة ليأذن لي بالانصراف، لكنّه مضى مباشرة في الحديث.

قال بعد صمت وجيز" :نقطة أخيرة بشأن عينكِ، ستحتاجين إلى شراء عين جديدة كل سنة تقريبا .فأجسام بعض الناس تحوي كثيرا من الملح إلى حدّ أنّهم لا

يستطيعون إبقاء عيون اصطناعية مدّة تزيد على سنة .لكن العمر الافتراضي للعين سنتان، وعندما تشعرين بالحكّة ويزول لونها، ستدركين عندها بأنّكِ بحاجة إلى عين جديدة."

قلتُ له" :سأنفذ كلّ ما تقوله، لكن رجاء اسمح لي بوضع العين الجديدة حين عودتي إلى هارموني، وأعدك بأنّي سأضع الضمادة مجدّدا حال وصولي إلى هناك."

ضحك الدكتور بنيديكت، وقال لآنّا التي كانت قد دخلت الغرفة للتوّ" :لا بأس، لا أعتقد أنّ في ذلك ضرّرا .ستتأكّدين من وفائها بوعدها، أليس كذلك يا آنسة سيم؟."

نهضتُ لأذهب، فقال لي" :انتظري يودّ الدكتور برانغين أن يختبر لك نظّارة جديدة."

أمسك بذراعي وقادني إلى مكتب آخر.

"دكتور برانغين، كيف ترى مريضتنا الآن؟."

تقدّم نحونا رجل كان في الجانب الآخر من الغرفة، كان قصير القامة، ممتلئ الجسم .وبعد أن أصبح قريبا منّي عرفته على الفور، إنّه الطبيب ذات البشرة الداكنة الذي كان قد فحص عينَيّ يوم وصولي إلى العيادة.

قال برانغين مبتهجا" :تبدو رائعة بالتأكيد .العين الاصطناعية تبدو طبيعية إلى حدّ أنّ الناس سيعتقدون أنّها العين التي قد أجريت لها العملية."

ثمّ طلب منّي قراءة ما كُتب على لوحة معلّقة على الجدار .لم أتمكّن من قراءة شيء إلا الحرف الاستهلالي، حرف) إف .F (ثمّ أدار الكرسيّ وجرّب اللوحة المعلّقة على الجانب الآخر .كنت أفضل حالا بقليل هذهِ المرة، لكن ليس بصورة كبيرة .ثمّ جلس الدكتور برانغين إلى طاولته وكتب شيئا.

قال وهو يسلّمني مغلّفا صغيرا أبيض اللون" :هذه وصفة لنظّارة جديدة، لن تأبهي لها كثيرا في البداية، لكن إذا كنتِ صبورة وأعطيتِ المسألة فرصة كافية، أعتقد أنّها ستعين عينكِ كثيرا."

عندما غادرتُ وآنّا مايو كلينيك أحسستُ أنّني شخص جديد بدأ حياة في عالم مختلف.

بقيت مع إسثِر في مرحلة النقاهة في فصل الصيف .كانت وأفراد أسرتها قد انتقلوا للتوّ إلى ساوك رابيدس بمينيسوتا، حيث عاشوا في كوخ صغير بنوه بأنفسهم بالقرب من غابة صغيرة تنحدر صوب النهر .بدا الجوّ هادئا هناك، ولم أكن أرى أحدا إلاّ نادرا، وقد أسعدني ذلك لأنّه تعيّن وضع ضمادة على عيني معظم الوقت، وكان خدّي الأيمن متأثرّا بشدّة من العملية التي أجريت لعيني، أو من اقتلاع بعض الأسنان التي كان أحد الأطبّاء المعاينين في عيادة مايو قد نصحَ باقتلاعها.

عندما بدأتْ أشعر بأنّي قد إستعدّتُ شيئا من قوّتي، حاولت التفكير في ما ينبغي لي فعله خلال فصل الشتاء القادم .كان الطبيبان بنيديكت وبرانغين قد اقترحا عليّ التوقّف عن التعليم مدّة سنة، لكنّهما لم يذكرا شيئا حول ضرورة عدم الذهاب إلى المدرسة .وكانت تراودني منذ مدّة رغبة في تولّي عمل جامعي، لكنّني لم

أجد طريقة واضحة للقيام بذلك .وسبق أن أمضيت فصل دراسيّ واحد خلال الصيف في جامعة مينيسوتا بمرتب ثابت صغير كان مجلس إدارة الكلّية قد وافقت عليه في نهاية سنتي من التدريس في إندرلين بولاية نورث داكوتا .لكنّ المدةّ كانت قصيرة جدّا ولم أتمكّن من إنجاز الكثير.

طلبتُ لوائح الاختصاصات من كلّيات الدراسات العليا في كثير من الجامعات الكبيرة، ووجدتُ بعد دراستها أنّ جامعة كولومبيا تروق لي.

قلتُ لإسثِر في أحد الأيام" :أعتقد أنّي سأذهب إلى نيويورك."

نظرتْ إليّ وسألتني" :وما الذي يدفعكِ للذهاب إلى هناك، بحق السماء؟."

أجبتها" :سألتحق بكلّية جامعية."

ظهرت عليها أمارات الدهشة، وقالت بعد برهة وجيزة" :لا يمكنك فعل ذلك ولم يمضِ غير أسبوعٍ تقريبا على إحساسكِ بتحسنٍ طفيفٍ جدّا."

"صحيح، لكنّني أتحسّن، وجامعة كولومبيا لن تفتح أبوابها قبل شهرين تقريبا."

"إذا كان لا بدّ لكِ من الدراسة، لِمَ لا تلتحقين بجامعة مينيسوتا؟ إنّها قريبة، وإذا مرضتِ لن تكوني بعيدة عن أحد."

قلتُ لها" :لن أمرض."

وعندما قِدم صهري سيلمِر رامسي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وتحدّثنا في المسألة، وافق إسثِر الرأي.

قال" :جامعة مينيسوتا مكان ممتاز، لِمَ لا ترغبين في الذهاب إليها؟."

أجبته" :لأنّي أمضيتُ معظم حياتي في مينيبوليس، وطالما إنّي سآخذ إجازة مدّة سنة، فلربّما يجدر بي الذهاب إلى حيث يمكنني أن أرى شيئا جديدا."

الشخصان الوحيدَان اللذان كانا مُتحمسين لفكرة التحاقي بجامعة كولومبيا هما خالي إينوش والعمة إليزابيث.

قال خالي إينوش" :إنّها كلّية جيدة، وستكون تمضية سنة في مدينة نيويورك أمرا رائعا .وفيما يتعلّق بعينيكِ لو كانت القراءة والكتابة تؤذيهما، لكانتا قد تضرّرتا منذ زمن بعيد .كان القلق يساورني أنا وأمّك بشأنك وأنت تقيمين معنا هنا في توين فالي لأنّكِ كنتِ تعتمدين عليهما بشدّة .لكن يظهر بأنك تبلين بلاء حسنا في أيّ عمل تنوين القيام بِهِ، وأنا متأكّد من إنّكِ ستفعلين ذلك في كولومبيا أيضا . حاولي أن تعتني بنفسكِ وحسب، وتذكّري أنّ صحّتكِ أهمّ من أيّ شيء آخر."

نظر إليّ بمحيّاه اللطيف الذي كان يذكّرني بوالدتي دائما.

ثمّ سألني" :لم يقل الدكتور بنيديك والدكتور برانغين شيئا بشأن وجوب عدم استخدام عينكِ، أليس كذلك؟."

أجبته بصدق" :لا، لم يقولا شيئا، كلّ ما في الأمر أنّه يجب أن أحرص على وجود إنارة جيّدة عندما أعمل."

انتقلتُ إلى نيويورك في الأسبوع الأخير من شهر أيلول، ورافقتني في الرحلة إلى كولومبيا آيدا تويدْتِن التي كانت زميلتي في التدريس في توين فالي.

وصلنا إلى محطّة بنسلفانيا بنيويورك في العاشرة ليلا يوم الأحد .ودلّني أصدقاء آيدا على فندق جيّد قبالة حرم جامعة كولومبيا تماما، اسمه" ذي كينغز كراون"، وهناك استأجرت غرفة لمبيت الليلة.

عندما أصبحت وحدي في الغرفة جلست على كرسي لألتقط أنفاسي .لقد أصبحت في نيويورك .واعتراني الضعف فجأة إلى حدّ أنّي خشيت أن أسقط مغشيّا عليّ .كان هناك إبريق ماء على الخزانة فصببت كوبا من الماء وشربته.

قلت لنفسي" :لا تكوني طفلة، فأمامكِ فرصة العمر، وخير لك أن تستغلّيها."

نظرت في أرجاء الغرفة، بدت صغيرة وفرشها متواضع، لكنّني وجدت فيها جوّا من التميّز.

كرّرت في نفسي" :نيويورك."

وجدت دليلا هاتفيا على الطاولة بجانبي .كان أكبر دليل هاتف رأيته في حياتي، حملته بكلتا يدَي ووازنت ثقله بجسمي .ثم فتحته وقرّبته من وجهي وحاولت قراءة بعض الأسماء الموجودة على الورقة التي قلبتها، لكنّي وجدت أنّ الدليل أثقل من أن أتمكّن من تقريبه مسافة كافية من عيني لأقرأ ما فيه .صعدت على السرير ووضعت الكتاب عليه أيضا، ثم ربضتْ وقرّبت وجهي من صفحاته كما كنتُ أفعل عندما كنتُ أربض على الأرضية لأقرأ الكتب التي لم أستطع حملها وأنا فتاة صغيرة.

حاولتُ أن أتذكّر أسماء أشخاص مهمّين كنتُ قد قرأتُ عنهم من قبل في الصحف، ثمّ بحثتُ عن تلك الأسماء في دليل الهاتف متى استحضرتها .أستور،

مورغان، روكيفيلر، فانديرْبيلت .بحثت أيضا عن أسماء مؤلّفين قرأت كتبهم، وعن ممثّلين مشهورين وممثّلات معروفات .كان من الواضح أنّه لم يكن لدى بعضهم هواتف وإلاّ فإنّهم لم يكونوا يعيشون في مدينة نيويورك، لأنّي لم أتمكّن من العثور على أسمائهم .ثمّ انتقلت إلى الحرف" د"، ووجدت عدّة أشخاص يحملون اسم دال، لكن ليس بورغيلد دال.

قلتُ بصوت عالٍ" :ألن يكون جميلا لو وجدت اسمي في دليل هاتف نيويورك في أحد الأيام؟."

ضحكتُ من نفسي لشدّة حماقتي، وقلت في نفسي :إذا تمكّنت من البقاء سنة واحدة سيكون الأمر رائعا.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا عندما أطبقتُ دليل الهاتف الضخم وخلعت ثيابي وأطفأت النور.

بعد أن تناولت وجبة الفطور وصلتني رسالة صوتية عبر الهاتف من آيدا تويدْتِن تحدّثت فيها عن غرفة شاغرة في الشقّة التي تقيم فيها مع أصدقائها .كانت قاعة مُحكمة لا يصلها ضوء النهار، لكنّني قبلت بها في الحال لأنّ الإقامة بقرب آيدا تسعدني .معظم الفتيات اللاتي في الشقّة كنّ ممرّضات يدرسن التمريض في كولومبيا ويعملْن بدوام جزئي في مركز هنري ستريت ستلمنت .كنّ جميعا يطبخن وجباتهنّ في المطبخ المشترك في الشقّة، وشكّلْن رِفقة مرحة تآلفتُ معها في الحال وأحسستُ أنّني موضع ترحاب.

ما أن استقرّيت في غرفتي حتّى قرّرت الذهاب إلى كولومبيا وسؤال أحدهم عن إمكانية نيل قبول في حقل التعليم لشخص أعمى، وهناك أحالوني إلى قسم علم الاجتماع الخاص بهم والواقع في الساحة الرئيسية للجامعة.

قال الأساتذة الجامعيون هناك إنّني تدرّبتُ على تدريس أطفال يُبصرون، وإنّ عشر سنين من الخبرة كافية لإقناعي بقدرتي على القيام بذلك .وقالوا كذلك إنّ عينيّ لا يبدو أنّهما تسبّبان لي مشكلة الآن، وإنّه لأمر منطقي في نظرهم أن أواصل مزاولة العمل الذي كنتُ قد اعتدت القيام به .لكنّهم رأوا أنّ حصولي على شهادة ماجستير في علم الاجتماع قد تكون فكرة جيّدة لأنّها ستعينني كثيرا مهما كان نوع العمل الذي سأتولاّه لاحقا.

غادرتُ كينت هول حيث قسم علم الاجتماع كمن يمشي في الهواء.

»لا يبدو أنّ عينيَّ تسبّبان لي أيّ مشكلة الآن«، كررت مع نفسي.

وبعد أيّام قلائل سجّلت اسمي كطالبة دراسات عُليا في كولومبيا في علم الاجتماع .لقد قيل لي إنّه بإكمال الطلب وكتابة أطروحة مقبولة، قد أكون قادرة على نيل شهادتي في سنة واحدة .أخذت مقرّرا في مادّة الاقتصاد وآخر في تاريخ الولايات المتّحدة، ودخلتُ صفّ الآنسة سكاربوروغ في كتابة القصص القصيرة لأملأ حصصي الاختيارية.

أعظم صعوبة واجهتها بعد شروعي في دراساتي العليا كانت التكيّف مع نظّارتي الجديدة .كنتُ أدرك أنّ من اللازم عليّ وضعها، لكنّ القراءة بوساطتها استغرقت وقتا أطول، وبقيت أنزعها وأضع نظّارتي القديمة أثناء إنكبابي على الدراسة .

صحيح بأنّ الحروف المطبوعة كانت أوضح عند القراءة بالنظّارة الجديدة، لكنّها كانت تبدو صغيرة إلى درجة أنني كنت مضطرة لتقريب الكتاب أو الورقة إلى وجهي أكثر كي أقرأ الأحرف البالغة الصغر .وفي النهاية صرت أخفي النظّارة القديمة عند الجلوس لقراءة كتبي كي أتخلّص من إغواء العودة إلى لبسها من جديد .وبالتدريج بدا أنّ الحروف صارت أكبر عند النظر إليها من خلال النظّارة الجديدة، وبعد مدّة أدركت أنّي أقرأ بسهولة أكثر من أيّ وقت مضى.

لكنّ لبسها في غرفتي وفي الخارج كان مسألة أخرى .فعندما كنت أنظر إلى الفضاء المحيط من خلالها كان العالم يبدو وكأنّه يتخذ شكل منحنيات، وكنت أخشى أن أخطو أيّ خطوة مخافة ألاّ تلامس قدمي الأرض في الموضع الصحيح .لكنّني بعد مدّة وجدت أنّني أنسى خلع نظّارتي الجديدة بعد أن أنتهي من الدراسة، ثمّ بدأت أغسل الأطباق، وأتنقّل في أرجاء الشقّة وأنا أضعها .وفي أحد أيام شهر شباط كنت في المصعد ثمّ تذكّرت أنّني ألبسها، ولأنّي كنت متوجّهة إلى متجر بقالة قريب وحسب، فقد قرّرت عدم العودة لآخذ النظّارة القديمة .تلمّستُ خطواتي عبر الدرجات المؤدية الى خارج المبنى، ومشيت بحذر نحو المتجر .ومن حسن الحظّ أنّني لم أحتج إلى اجتياز الشارع وعدت أدراجي سالمة.

وبعد ذلك صرت ألبس النظّارة الجديدة كلّما ذهبتُ إلى هذا المتجر، وبمرور الوقت بدا شكل العالم من حولي طبيعيا وأصبحتُ أكثر وثوقا بموضع خطواتي . لكن حتى عندما كنت ألبس النظّارة الجديدة طوال الوقت كانت أعصابي تتوتّر وأنا في حرَم جامعة كولومبيا .كانت هناك أدراج كثيرة، وكنتُ خائفة دائما من السقوط .ثمّ وجدت حلاّ للمشكلة في آخر المطاف، وذلك بعدّ درجات السلالم في

الممرّات المؤدّية إلى المباني التي كنت أحضر فيها محاضراتي، وكذلك الدرجات الموجودة عند واجهة تلك المباني أيضا، وحاولت تذكّر عددها في كلّ مكان .ومع أنّ النهار كان قصيرا جدا خلال شهري كانون الأول وكانون الثاني إلى حدّ أنّه لم يكن هناك نور عند حضوري الحصّة الأولى في الصباح، وأنّ الظلام كان يخيّم كليا مع وقتِ إنتهائي من حصّتي الأخيرة، إلّا إني كنتُ محظوظة ما يكفي أنّي لم أتعرّض ولو لحادثة واحدة. .

جميع الفتيات اللائي في الشقة، كنّ يُقمنَ لأول مرّة في مدينة نيويورك، ولذلك كنّ يمضين أوقات فراغهن بالخروج والتعرّف على المدينة .غالبا ما كنَّ يدعونني لمرافقتهن، وكنت أقبل هذه الدعوات جميعها بسبب لهفتي للمشاهدة، ولكوني أخشى الخروج بمفردي .وبعد قيامي بعدّة رحلات متلاحقة زادت ثقتي بنفسي، لذلك صرت أخرج وحدي .في البداية حاولت ركوب حافلات الجادة الخامسة عندما كنتُ أريد الذهاب إلى وسط المدينة .لم يكن بمقدوري قراءة اللافتات عند أركان الشوارع، وفي معظم الأحيان لم يكن قطاع التذاكر يذيعون في الحافلة عن الوصول إلى محطة ما .لكني كنتُ دائما أسأل شخصا ما ليحدّد لي مكاني .وفي إحدى المرّات التقيت بشخص لم يسمعني بشكل جيد أو أنه لم يشأ في أن يسمعني عندما سألته، لكن كان يوجدُ هناك الكثير من الركاب الذين أمكنني اللجوء إليه .كنت أبدأ في بعض الأحيان زيارات مع أشخاص بهذه الطريقة وكنت أحصل على معلومات كثيرة من غير أن أسأل عنها .وبعد مدّة صرتُ إذا توفر لي وقت كافٍ أقوم باختيار أشخاص كانوا يبدون مثيرين للاهتمام لتوجيهي، بقصد إجراء زيارة قصيرة برفقتهم؛ وأصبحت تجارب ركوبي في الحافلة ممتعة عوضا عن أن تكون مصدر قلق، وصرت أتطلّع لخوضها.

كان ركوب الحافلة في وسط المدينة أصعب بعض الشيء من النزول منها .كان أغلب الناس في الشوارع على عجلة من أمرهم، وغالبا ما كانت الحافلات تنقضّ على أركان الشوارع وتأخذ الركّاب ثمّ تنطلق من جديد قبل أن أتمكّن من إقناع شخص ما بالإنصات اليّ وإطلاعي على رقم الحافلة .لكن إن حدث ذلك مرّات كثيرة متعاقبة بينما أكون واقفة أنتظر فإني كنت أصعد الحافلة بنفسي .وإذا وجدت بعد الاستعلام من الموظف المسؤول أنّ وجهتها غير وجهتي، كنت أنزل وأنتظر حافلة أخرى .لم يكن ذلك أمرا ممتعا دائما خلال ساعات الذروة، لكن من خلال عملية إقصاء الحافلات كنت أستهدي لا محالة إلى الحافلة الصحيحة وأتمكّن من الوصول إلى حيث أريد.

وفي أثناء المشي على الرصيف كان يجب عليّ الوقوف أسفل لافتات الشوارع مباشرة لأقرأها، وهو أمر مستحيل وسط الحشود .لذلك وجدت بعد أن تعرّفت إلى محيطي في الأماكن التي لم آلفها جيدا أنةّ من الأسهل أن أحفظ دائما المسافة التي أمشيها بإحصاء عدد المباني.

لم أكنْ أستطيع الرؤية ما يكفي للإعتماد على إشارات سير المشاة الموجودة في مباني الجادّة الخامسة، ولا كذلك على إشارات المرور الأخرى .ولذلك كنت ألتصق بمجموعة تعبر الجادّة وقت عبوري لها، وأقترب من هؤلاء الناس قدر الإمكان، فقد تصوّرتُ أن أكثر السائقين تهوّرا لن يغامر بسحق حشد من الناس.

احتجت كثيرا من الوقت للاعتياد على القطارات النفقية .لقد كانت تسير بسرعة عالية بحيث لم يكن بإمكاني رؤية اللافتات في المحطّات إلى أنّ تتوقّف القطارات تماما؛ وحتى مع ذلك، لم يكن بمستطاعي قراءة اللافتة ما لم أكن جالسة قبالتها

تماما .لذلك كان عليّ، في غالب الأحيان، النزول إلى رصيف المحطة كي أقوم بقراءتها، وحينها يكون القطار قد غادرني في العادة، وأُضطرّ إلى انتظار التالي . وإذا تعدّدت القطارات التي تسير على السكّة ذاتها، فذلك كان يعني وجوب أن أسأل أحدا ما عن القطار الذي ينبغي أن أركبه، وذلك لم يكن وسط الحشود أمرا يسيرا.

في إحدى الأمسيات الماطرة علقت في محطّة القطارات النفقية لمنطقة التايمز سكوير خلال ساعة الذروة .كانت الحشود هائلة إلى حدّ أنّ الحرّاس أوصدوا البوّابات لإخلاء المحطّة، لكنّني تمكنت بصعوبة من العودة إلى المنزل بسلام، وعرفت بعد تلك الحادثة أنّ لا داعي لكي أقلق بشأن الوصول إلى أيّ مكان في نيويورك بمفردي.

في أحد الأيام أخبرتني آيدا تويدْتِن إنّها ذاهبة لمشاهدة مسرحية عنوانها Will Shakespeare، وسألتني ما لم أكن راغبة بأن تشتري بطاقة لي أيضا.

قلت" :بالتأكيد .لم أسمع بهذه المسرحية من قبل؛ لكن إذا كانت عن شكسبير، سأكون مهتمّة بها، حتى لو كان الأداء التمثيلي متواضعا كما تقولين."

جلسنا كالعادة في أرخص المقاعد كلفة، وهي المقاعد الأبعد عن خشبة المسرح . لم يكن لديّ نظّارة للأوبرا، وحتى مع استخدامي للنظّارة الجديدة التي أعطاها لي الدكتور برانغين فإنه لم يكن بمقدوري رؤية وجوه الممثّلين والممثّلات بوضوح، ولا حتّى ثيابهم، هذا بإستثناء ألوان الملابس التي كانت ترتديها السيدات .لكنّني في تلك المسرحية شاهدت ما يفوق بكثير ما شاهدته في المرّة التي دفعت فيها نحو ثلاثة دولارات للحصول على مقعد في الصف الخلفي من الشرفة العلوية في مبنى

أوبرا مينيبوليس، بغية مشاهدة مسرحية بارسيفال، والتي فيها لم أتمكّن من رؤية منصة المسرح على الإطلاق .كنت متأكّدة في مسرحية Will Shakespeare من أنّ كثيرا من الإيماءات الدقيقة ونقاط أخرى، ساعدت بقيّة المشاهدين على فهم القصّة على نحو أفضل، قد فاتتني .إلا أنني سمعتُ كلَّ ما قيل واستمتعتُ كثيرا بالمسرحية.

وبعد أن عدتُ إلى التدريس حدّثت الطلاّب في كثير من صفوفي عن شخصية آن هاثواي التي كنتُ قد شاهدتُها على خشبة المسرح في مدينة نيويورك .قلت لهم بأنّها كانت ممثّلة لم يكن يبدو أنّ أحدا يعرف عنها شيئا، ولقد نسيت اسمها، لكنّها أدّت دورها على نحو جميل، بلا ريب.

وفي أحد الأيام دخل غرفتي صبيّ، كان يحضر أحد حصصي في مادة اللغة الإنجليزية، وكان بإمكاني أنْ أفطنَ إلى مدى حماسته لأمر ما.

قال لي" :يا آنسة دال، وجدتُ كتابا في المكتبة العامّة فيه كثير عن مسرحية ويل شكسبير التي حدّثتِنا عنها، الكاتبة امرأة إنكليزية تُدعى كليمنس داين، وكاثرين كورنيل هي الممثّلة التي أدّت دور آن هاثواي."

من بين سائر مشاهداتي في نيويورك، كانَت المعارض الفنّية في متحف الميتروبوليتان هي أشدّ ما أثار إعجابي .هذا ليس بسبب إهتمامي بالفنّ بشكل خاصّ أو معرفتي بكيفية تقديره .وإنّما لأنّي أردتُ، منذ إخفاقي في مقرّر الرسم للسنة الأولى بمدرسة ساوث هاي، أن أفعل شيئا حيال ذلك .وكنتُ أتساءَلُ الآن عمّا إذا لم يكن بمقدوري، فيما لو حاولت جاهدة، أنْ أتعلم كيفية فهم نقاط قليلة جيّدة في عشرات اللوحات التي رسمها فنّانون مشهود لهم.

من دون أن أخبر أحدا بما كنتُ أفعله، بدأت القيام برحلات إلى متحف الميتروبوليتان، متى ما وجدت وقتا لذلك .كنت أصل إليه، أحيانا، بُعَيد افتتاحه صباحا، وأقضي النهار بأكمله هناك .كنتُ في البداية أقضي بضع ساعات في السير قريبا من جدران المعارض، منتقلة من لوحة إلى أخرى لأنتقي القليل ممّا يمكنني التركيز عليه .ثمّ قرأتُ أوصاف اللوحات نفسها في كتالوغات الفنّ وكتبه، والسير الذاتية للفنّانين الذين رسموا تلك اللوحات، والمناقشات التي دارت في حياتهم، والمدارس الفنّية التي مثّلوها .واشتريتُ نسخا ملوّنة متوسّطة الحجم للوحات التي انتقيتها أيضا، وسعيتُ لأجد فيها النقاط التي نوقشت في الموادّ التي قرأتها .وصرتُ بعد أن أعود إلى المعارض أبحث عن تلك التفاصيل ذاتها في اللوحات الكبيرة الحجم، في البداية عندما كنت أقف قريبة من اللوحات لأتمكّن من رؤية ما كنتُ أحاول العثور عليه، كنت أفقد المنظور .لذلك بعد أن ألِفت تلك اللوحات صرت أتراجع إلى الخلف ببطء شديد، مستحضرة في ذهني دائما ما يجدر بي رؤيته .وعند بلوغي مكانا أكون فيه متأكّدة تماما من اعتمادي بالكامل على ذاكرتي وعلى مخيّلتي، كنتُ أقترب من اللوحات مجدّدا .وقد قمتُ بذلك مرّة تلو مرّة مع كلّ لوحة عكفت على دراستها.

وفي النهاية بدأت أستمتع حقا بالذهاب إلى المعارض .إنّ انسجام الألوان في اللوحات، والحكايات التي ترويها، والأحاسيس التي كانت تثيرها في نفسي وأنا أقف محدّقة فيها، جميعها كانت تذكّرني بالموسيقا الجميلة التي كنتُ قد إستمعتُ إليها وبالكتب العظيمة التي قد قرأتها.

في سنين لاحقة، بعد أنْ عدت إلى الغرب الأوسط زرتُ معهد الفنون في مينيبوليس، أمضيت عدّة ساعات في المعارض هناك.

قلت للمتفرّج الواقف بقربي" :هذه اللوحة هي الأحبّ إلى قلبي من بين سائر لوحات مجموعتك الفنية."

أجابني بجفاف" :أعتقد أنّ هذا طبيعي، فهذه لوحة مسيح الجبابرة، وقد دفع المعهد مبلغا ضخما للحصول عليها."

وفي شباط خضتُ في حديث طويل مع الدكتور غيدينغز، مستشاري في جامعة كولومبيا .أخبرني بأنّه يوصى بي لمنحة إلى أوروبا .فوجئت تماما وابتهجت لأنّي وجدتُ بأنّه رأى في شخصا أهلا لهذا الشرف، لكنْ حتى مع توصيته فإنّي لم أرَ للحظة أنّ لديّ أدنى فرصة في الحصول عليها.

ثمّ قيل لي بعد مدّة وجيزة أن أُرسل شهاداتي إلى مكتب التعيينات. وكانت جامعةُ كولومبيا ستقوم بتقديم الطلبَ إلى المؤسّسة الأميركية الإسكندنافية نيابة عنّي . سُررت بهذا النبأ أيضا، فجمعت الموادّ التي طلبوها، لكنني بقيت بغير أمل بأن يفضي ذلك إلى نتيجة.

وفي صباح أحد الأيام المشمسة في نيسان، جاءت إحدى الفتيات اللاتي في الشقّة إلى غرفتي وفي يدها صحيفة.

سألتني" :هل عرفتِ أنّ اسمك موجود على الصفحة الأولى لصحيفة نيويورك تايمز اليوم؟."

ظننتُ أنّها تمازحني وقلتُ لها" :إنّكِ تمزحين."

قالت وهي تشير إلى أحد العناوين" :لا، الخبر صحيح."

كانت هناك .لقد حصلتُ مع تسعة عشر رجلا من جميع أنحاء الولايات المتّحدة على منح دراسية للسنة القادمة، لغرض الدراسة في الدول الإسكندنافية الثلاث، وكان نصيبي النرويج.

وفيما كنّا لا نزال نتباحث في الأخبار الطيّبة وصلت رسالة من المؤسّسة الأميركية الإسكندنافية تُبلغني رسميا بتعييني.

لقد كانت تلك أسعد لحظة في حياتي.

لكنّ القلق استبدّ بي بعد أن عدت إلى الواقع وتلاشت لحظة الإثارة حين سماعي عن حظّي السعيد .ماذا سيحصل لو أنّ القيّمين على المؤسّسة عرفوا مدى سوء حال عينَيّ؟ وأنّ قوّة بصري لا تتعدّى60/4 ، وأنّني أبصر بعين واحدة فقط؟ وما النفع الذي أرتجيه من عين اصطناعية تبدو طبيعية تماما وتخدع النّاس عند الوهلة الأولى؟

بعد بضعة أيام استلمتُ رسالة أخرى من المؤسّسة تطلب إليّ المجيء إلى مقرّها في نيويورك لإجراء مقابلة شخصية، انتابني ذعر شديد إلى حدّ أني واصلتُ تأجيلها.

فجأة فطنتُ إلى مدى حماقتي حيال المسألة برمّتها .سأتوجّه إلى مقرّ المؤسّسة وأتصرّف بشكل طبيعي، وبعد ذلك إذا لَاحظالأشخاص الذين يجرون المقابلة

بأنّي لست من الفئة التي يودّون إرسالها فسأقنع بالنتيجة .لقد إكتسبت خبرة طويلة في كوني خاسرة جيدة.

بدا أنّ كلّ شيء يسير على ما يرام في مقرّ المؤسّسة .كان السيد كريسز، السكرتير، أكثر من ودّي .لقد استعرضنا تفاصيل الدراسة التي سأقوم بها في النرويج، وأعطاني بضع تلميحات إلى مناسبات من المحتمل أن أرتدي فيها ثيابا رسمية .لم يسبق أن امتلكت فستان سهرة، ولذلك كنتُ ممتنَّة بسبب هذه المعلومة .ثمّ حدّثني قليلا عن الاختلافات التي سأجدها في المعايير الأوروبية، وحذّرني قائلا إنّه من الأهمّية بمكان لفتاة أميركية أن تتذكّر دائما أنّها تمثّل النساء في بلادها، وأنّه سيكوّن رأيّ حولهنّ بناء على سلوكها هي في الخارج.

بدا أنّ المقابلة انتهت، فنهضت لكي أغادر.

قال السيد كريز بطريقة فورية" :بالمناسبة، ذكرتِ في إجابتكِ عن صحّتكِ بأنّك كنت قد عانيت من مشكلة في عينيكِ، لكنّ هذا لن يمنعكِ من أداء عملكِ."

وكأنّني أُصبتُ برصاصة .فجأة بدأ كلّ شيء حولي يدور بسرعة، والعتمة الفورية والطنين الذي في أذنَيّ حذّراني من أنّي سأقع مغشيّا عليّ.

بعدها، كان الشيء الوحيد الذي شعرت به هو أنّني كنت ممدَّدة على الأرض . انحنت امرأة فوقي وقالت بأنّها الآنسة كارين لارسون: المحرّرة في أميريكان إسكندنافيان ريفيو.

سمعتُ نفسي أقول" :أنا لا يغمى عليّ عادة."

"السبب إنّي مجهدَة وحسب .أعتقد بأنّي كنتُ أرهق نفسي في العمل على أطروحة الماجستير."

كانت الآنسة لارسون لطيفة للغاية، وقالت" :يظهر أنّكِ في حاجة إلى الراحة ." كنتُ نحيلة جدّا، وقضاء سنة في النرويج سيفيد صحّتي .وقالت لي إنّ وزنها يزداد دائما حين تكون هناك.

لم يجرِ التطرّق إلى عينَيّ بعد ذلك.

وقبُيل مغادرتي نيويورك حصلت على شهادة جميلة تقول إنّني أصبحت زميلة في المؤسّسة الأميركية الإسكندنافية كوني طالبة مميَّزة في علم الاجتماع، وإنّني مخوَّلة للدراسة سنة واحدة في النرويج.

خصصت لي الزمالة إعانة مالية صغيرة مقدارها ألف دولار، لكن تبيّن أنّ قيمة الكراون النرويجي كانت متدنّيّة كثيرا في تلك السنة إلى حدّ أنّ هذا المبلغ عادل ضعف قيمته.

وفي حزيران حصلتُ على شهادة الماجستير، غيابيا، من جامعة كولومبيا.

الفصل السادس

بدا المشي على لوح العبور نحو السفينة النرويجية الأميركية» بيرغنزْفيورد«، ووطء رصيف الميناء في أوسلو، أشبه بدخول دنيا الخيال . إذن هذه هي البلاد التي أغرت فيها جدّتي القطيع ليعود إلى الحظيرة من البرّية بكلمات سحرية، وحوّلت قطعان الذئاب التي أتت من فنلندا إلى حيوانات وديعة بعد أن جالت الجبال بأوستيردالين، حيث تتخفّى الأقزام أسفل الشلاّلات وتجعل الأنهار تهدر، وحيث ستقع الأحداث التي تنبأَ بها كنيوت الحكيم في المستقبل البعيد .وهنا أيضا نشأت أمي وأبي وتبادلا كلام الغزل وتزوّجا قبل أن يهاجرا إلى أميركا .لَم يبدُ أمرا قابلا للتصديق أنّي أطأ تراب النرويج وأوشك على تحقيق حلم حياتي.

وقفتُ أراقب الركّاب النازلين من القارب وهم يلتقون بأُسَرهم وأصدقائهم . وضعتُ على طيّة صدر معطفي الخريفي البنّي الثقيل عقدة شريط ساتان أرجواني اللون، الذي كان خالي جون قد أشار عليّ في رسالته الأخيرة بإرتدائِهِ، ليتمكّن من التعرف عليّ .لقد أدركت كم كنتُ ضعيفة في تصيّد الأشخاص وسط الحشود، وبقيتُ واقفة حيث فكرتُ بأنّ أحدا لن تفوته ملاحظتي.

سمعت فتاة بقربي تسألني بصوت لطيف بالنرويجية" :هل أنتِ بورغيلد دال؟ إذا كنتِ كذلك، أنا ابنة خالك إلين هوغْسيث."

مدّت امرأة، في منتصف العمر تلبس فستانا أخضر، يدها وصافحتني بحرارة.

»أرسل لنا أبي سيّارة تاكسي«، قالت، وكانت ما تزال تتكلم بالنرويجية.

وقبل أن نصل إليها رأيت رجلا ضئيلا، يشبه كثيرا في بنيته خالي إينوش، يتقدّم نحونا مادّا يده.

قال" :أهلا بكِ في النرويج، يا ابنة شقيقتي الحبيبة إنجيبورغ، آمل بأنّك أمضيتِ رحلة ممتعة عبر الأطلسي."

تحدّث باللغة النرويجية هو الآخر، وعندما اقتربتُ منه رأيتُ أنّه يحمل التعبير اللطيف ذاته الذي أحبه كثيرا في عينَي أمّي وخالي إينوش .بدا أنّه يشبه تماما صورته التي انتصبت طوال سنين على الرفّ فوق الموقد في صالة منزلنا بمينيبوليس.

كانت تانتي سينا تنتظرنا وقد أعدّت لنا قهوة العصر في الشقّة .لم يكن لدينا صورة فوتوغرافية لها في المنزل، ولذلك لم أكن أعرف شكلها .كانت فارعة الطول ونحيلة، ولقد زادَ فستانها الأسود الطويل ومريلتها البيضاء مظهرها طولا .كانت تضع نظّارة إطارُها فضّي زاد تعبير عينيها حدّة، كان شعرها البنّي مشوبا بخصلات رمادية جميلة عند صدغَيها، وفي خدّيها كان يوجد توهجٌ دافيء ربّما كانت ستحسده عليها أيّ فتاة أميركية في سنّ المراهقة.

جلسنا نحن الأربعة إلى طاولة ضيافة صغيرة في الصالة.

قالت تانتي سينا" :أهلا بكِ في منزلنا، وأرجو لك قضاء أياما سعيدة معنا هنا في النرويج."

رفعت كأسها إلى شفتيها وهي تتحدّث، وكذلك فعل كلّ من الخال جون وابنتِهِ إيلين .كان المُسكِّر حادّا جدّا إلى درجة أنّي إختنقت وطلبت ماء باردا.

قال الخال جون وهو يبتسم" :صحيح إذن ما سمعته عن أميركا، أبناؤنا الريفيون هناك يمتنعون فعلا عن الكحول."

شعرتُ أنّ أنظار الثلاثة متوجّة نحوي، كانت تانتي سينا وابنة خالي إيلين كيّستين بلطف إنّما بصورةٍ رسميّة .بدا أنّ الخال جون يفكّر بصوت عالٍ.

قال وهو يحتسي قهوته" :أرى أنّكِ تشبهين أقارب والدكِ."

وحين وُضعت الطاولة الصغيرة في الزاوية بعد برهة حدّثني الخال جون وهو يستمتع بغليونه عن مدى جمال أمّي، وكيف أنّني لم أرث من جمالها شيئا .لم أجد غضاضة فيما قاله، وكانت طريقته لطيفة للغاية بحيث أنّي لم أشعر أنّه جرح مشاعري.

ثمّ قال لي بعد بضعة أيام" :أنتِ متعَبة تماما ومحنية الظهر أيضا."

لذلك عزم وتانتي سينا على تسميني، وقد قاما بعمل جيد .شربتُ الكريما والجعة، وأكلت الجبن الدسم والخبز المغطَّى بطبقات من الزبدة؛ سمك طازج، لحوم، وخضار؛ وأطعمة مغذّية كثيرة أخرى .وعندما أصبحتُ أقوى، أجرى الخال جون ترتيبات لي كي أجري تمارين تقويمية خضعت لها بإشراف خبير في الرياضة البدنية .وقبل أن يفرغ وتانتي سينا من جهودهما كانت قامتي قد انتصبت ولم أعد محنية الظهر وزاد وزني خمسة وعشرين كيلوغراما.

قال الخال جون في نبرة تنمّ عن الرضى" :صرتِ الآن تشبهين فتاة نرويجية حقيقية، امرأة كلّها أنوثة، وهذا أفضل بكثير .عندما جئتِ كنت تحملين سمات الهنود الحمر الحادّة والداكنة من دون إنحناءات رشيقة في قوامك."

كان لدى الخال إعتقاد بأنّ الناس في أميركا، بغض النظر عن الأصول الأوروبية أو الآسيوية أو الأفريقية التي نشأوا منها، كانوا يكتسبون سمات الهنود الأميركيين في نهاية المطاف .وكان مقتنعا بشكل مطلق بصحة نظريته إلى درجة أنّه ما من مناقشة بصدد هذا الموضوع يمكن لها أن تغيّر رأيه.

كانت لديه أيضا أفكار صريحة للغاية بشأن تحصيل المرأة تعليما عاليا .كان يرى بأنّ إكثارها من الدراسة يُقلّل من سحر أنوثتها، وأنّها حتى لو نالت مناصب ممتازة بعد سنوات الدراسة، فإنّ هذه الدراسة تُمثّل ضررا، لا نفعا، لها على المدى الطويل .وقد انزعجتُ كثيرا من مشاعره التي أفصح عنها بلا مواربة.

وفي أحد الأيام، وبعد أن قويت معرفتي بتانتي سينا، لم أعد أحجم عن إخبارها بما يجول في خاطري .كنّا وحدنا نحتسي الشاي صباحا عند طاولة صغيرة وُضعت بالقرب من إحدى نوافذ غرفة الطعام.

قلت لها" :الأمر سيئ للغاية يا تانتي سينا أن أكون من بين سائر بنات أخت الخال جون التي تأتي من أميركا إلى هنا .كان سيحبّ شقيقاتي أكثر، فهنّ يُشبِهنَ أمّي وليسَت فيهن من هي دودة كتب مثلي."

وضعت تانتي سينا كوبها ونظرت إليّ مباشرة.

قالت بنبرة جافة" :آه، عليك أن لا تقلقي بشأن ما يراه خالكِ فيكِ .إنّه لا يوافق على تحصيل المرأة تعليما عاليا بوجه عام .لكن عندما يتعلّق الأمر بلحمه ودمه تصبح المسألة مختلفة تماما، وكم يبدو الأمر سخيفا حين يباهي بكِ الناسَ حين لا تكونين هنا."

ذُهِلت لأنّه في ذلك الصباح بالذات أعطاني محاضرة حول ما دعاه إفتقاري إلى اللباقة الفطرية في الحديث .واعترض على لهجتي الأوستيرْدالية العريضة ونبرة صوتي البرجوازية، وقال لي إنّه لا بدّ أنّني التقطتُ هذا التكلّف السيّئ في أميركا من النرويجيين الجهلة الذين كانوا يأتون إلى منزل أبويّ .لمعت عينا تانتي سينا كاللهب من تلك الملاحظة وتحدّثتْ بحدّة إلى الخال جون.

قالت له" :أعرف بأنّ شقيقتك إنجيبورغ كانت امرأة رقيقة ومثقّفة .لكنْ أنْ تقول بأنّها لم تكنْ تُحسِن التحدّث بلهجة المجتمع الذي وُلدت وترعرعت فيه، فهذهِ مسألة لا يمكنكَ أنْ تحملني على تصديقها .وهذه هي طريقة بورغيلد النرويجية بالضبط في الحديث، وكلّ ما في الأمر أنّها تقرأ كثيرا إلى حدّ أنّ لهجتها الأوستيردالية قد تغيّرت، وأنت نفسك، يا أبتِ، تتحدّث اللغة ذاتها حين تنفعل."

لم يلبث الخال جون أن بدأ بالقيام بمزيد من الأنشطة معي، وبإطلاق تلميحات أظهرت أنّنا رفيقان حقيقيان .لقد صار يصحبني إلى محطة القطار أو رصيف الميناء متى ما كان عليّ مغادرة المدينة في رحلة قصيرة .صار يرافقني إلى المسرح بثياب سهرة أنيقة، حاملا عصا مطلّية بالفضّة .كان رجلا قصيرَ القامة مميَّز الهيئة إلى حدّ بعيد، لا يفوقني طولا سوى بأربع أو خمس سنتيمترات .كان شعره أبيض رقيقا ولحيته مسرَّحة بعناية تشبه لحية برنارد شو .كما أنّه كان يصحبني إلى الكنيسة، ويحدّثني على مدار الساعة عن النرويج والنرويجيين :مأثوراتهم الشعبية وتاريخهم وأدبهم .كان يذهب إلى المكتبة مرّتين أو ثلاث مرات أسبوعيا، وكان يستعير منها مجموعة من الكتب .كان هو ووتانتي سينا قارئَين نهمَين، وكنّا نتباحث حول الكتب التي قد قرأناها من قبل نحن الثلاثة.

أظنّ أنّ الخال جون كان يشعر بالأسى حيال عينَيّ أيضا، مع أنّه لم يأتِ على ذكر أيّ شيء عنهما إليّ بشكلٍ مباشر إطلاقا .لم يكن من المستحيل عليه، بالطبع، أن يعرف مدى حاجتي إلى تقريب الأشياء من وجهي كي أراها، لأنّي كنتُ أقرأ كثيرا في أرجاء المنزل أثناء وجوده .وغالبا ما كان يتحدّث عن عينَي أمّي الجميلتين وعن كيف أنّ شخصيتها المحبوبة كانت تشعّ من خلالهما.

لم يُدلِ أيّ شخص آخر، كذلك، في الأسرة بأيّة ملاحظات عن عينَيّ، باستثناء زوجة أحد أبناء عمومتي .قالت إن منظري صار حسنا بعد اكتسابي وزنا، وإنّي كنت سأتمتّع بسمات جميلة ومتّسقة لولا عيناي.

لكن مع أنّ عينَي لم يكن فيهما شيء مختلف كثيرا، إلّا كان هناك ما يميّز مظهري في النرويج، وهو أنني كنت أضع نظّارة محدَّبة فوقهما .كانت نظارات هورنبرلر، كما كانت تُسمى،قد شاع طرازها للتوّ وكانت تُلبَس تقريبا من قبل الأميركيين حصرا .وبما أنّ وضع نظّارة في النرويج كان أمرا غير عادي، فقد كانت عيناي أوّل ما يلاحظه الناس فيّ.

كانوا ينظرون إلى نظّارتي المحدّبة وأنا أسير في الشوارع .ويشيرون إليها في تقاريرهم عنّي في الصحف .كانوا يتحدّثون عنها حين يتكلّمون معي مباشرة.

وفي إحدى المناسبات قال لي نرويجي أصيل مازحا" :سأعاني من مشقّة بالغة في معاشرة فتاة خلف هذا المنظار."

لكنّ أوسلو) كرستينا آنذاك (كانت مكانا رائعا لأيّ شخص ضعيف النظر .إذ لم ألاقِ هناك أيّا من المضايقات التي كانت تُزعجني عادة في مدينة غريبة أو في أيّ مدينة أخرى بسبب ذلك.

كانت مركبات الترام مطليّة بلون اخضر مزرق زاهي، وكانت مرئيّة بالنسبة لي ولو على مسافة بعيدة .ولافتاتها الضخمة منسدلة إلى مستوى عينَيّ بحيث يمكنني قراءتها بسهولة عندما أقف عند زوايا الشوارع الضيّقة :ساجين رينغ، غريفْسين، ماجورْستوين .وكان الكثير من قاطعي التذاكر سيدات يُعْلِنّ بأعلى أصواتهنّ أسماء المحطّات قبل وقت طويل من بلوغها.

لم أجد صعوبة أيضا في تحديد الأماكن التي يقيم فيها الناس .كانت أرقام المنازل مكتوبة بأرقام كبيرة سود على لوحات بيض بيضوية الشكل، ووُضعت في أماكن شديدة البروز على المباني إلى حدّ أنّه ما كان من الممكن أن تفوتني .وبما أنّ المباني تصطفّ بجانب الأرصفة دائما، كان في وسعي قراءة أرقام المنازل وأنا أمشي في الشوارع.

وحول إمكانية التعرّض لحادث الاصطدام فإن الأمر غير ممكن في أوسلو .فأبواق جميع المركبات حادّة بما يكفي لإيقاظ الموتى، والسرعة الزائدة غير موجودة .وفي فصل الظلام الممتدّ من تشرين الأول إلى نيسان، كان يجب تعليق جرس بكلّ حيوان يجرّ عربة .وكانت نافذة غرفة نومي تقع في أعلى ساحة ينطلق منها موكب عربات ثقيلة كلّ صباح؛ وفيما يكون الجوّ في الخارج ما يزال بمثل عتمة نصف الليل، كنت أستيقظ على ضجيج قرع أجراس الخيل وحدواتها، وتدحرج عجلات العربات على الطرق المرصوفة.

ومع أنّ الناس في النرويج كانوا ينتبهون إلى عينَيّ على الفور بسبب نظّارتي، إلّا إنّ هذا لم يغيّر من الأمر شيئا في طريقة تعاملهم معي .فعندما ألتقي بأحدهم لأوّل مرّة يعاملني بشكل طبيعي كما قد يعامل أيّ أجنبي يزور بلاده .وكانوا شديدي الودّ وكرماء جدّا معي.

دُعيتُ لأكون عضوا في الرابطة النرويجية للسيدات الجامعيات، وهناك تعرّفت إلى كثير من طليعيات نساء النرويج .في هذا المكان، التقيتُ الدكتورة إيلين غلاديتش من قسم الكيمياء في جامعة أوسلوو .كانت شخصية لامعة ومهتمّة، حيث عملت مع مدام كوري سنوات عدة في مختبرها بباريس .كانت الدكتورة غلاديتش مرجعية مشهودا لها فيما يتّصل بمادّة الراديوم في الوسط العلمي، وقد نالت شهادة دكتوراه من جامعة يال بأميركا .ومع كلّ هذه العظمة كانت من أكثر الناس الذين عرفتهم تواضعا .ولم تكد تمضي سنوات قلائل على وجودي في النرويج حتى انتُخبتْ غلاديتش رئيسة للرابطة النرويجية للسيدات الجامعيات، وسافرَتْ إلى مناطق كثيرة في الولايات المتحدة .في أثناء إقامتها في أميركا قبلت دعوة لإلقاء كلمة في المدرسة التي كنت أدرّس فيها، وتصرّفت كما لو أنّها هي التي تشرّفت بالدعوة وليس أنا وطلاّبي.

كان سعادة السفير الأميركي لدى النرويج وولريتس سوينسون بالغ الودّ معي، هو الآخر .وقد دعاني إلى حفلة أقامها في السفارة الأميركية، وهي عبارة عن منزل كبير فخم كان ملكا يوما ما لأسرة نوبل التي تمنح جوائز نوبل للسلام .في مناسبة أخرى صدف أنّنا، نحنُ بعض الأميركيين المقيمين في البلاد، قد تلقّينا منه دعوة لحفلة شاي على متن بارجة حربية أميركية راسية في أوسلو فيورد .كنتُ ضيفة أيضا

على متن السفينة الحربية النرويجية توردنسكييلد في هورتِن أيضا .وبدعوة خاصّة حضرتُ مأدبة غداء لعمّال جمعية الشبّان المسيحيين بشمال أوروبا، وكنتُ ضيفة شرف في المأدبة السنوية للفرع النرويجي للمؤسّسة الأميركية الإسكندنافية.

تعرّفت إلى أناس آخرين كثر من ذوي النفوذ، مثل هالفْدان كوهت، الباحث الكبير والمرجع في الشؤون الخارجية؛ والكاتبة هولْدا غاربورغ؛ ويوهان لوبِر، الشخصية المعروفة في أميركا لكتبهThe Great Hunger، The Temple ، The Last Vikings؛ وبيتسي كييلسبورغ مسؤولة عمليات التفتيش في المصانع، وخليفتها آسلاوغ آسلاند؛ والدكتورة كرستين بونيفي عالمة الأحياء النرويجية العظيمة.

كان السيد هوغان، المندوب الوطني لوزارة التعليم، مستشاري في أثناء إقامتي في النرويج، وأسند إليّ مناصب عدّة، كما حرص على تعريفي بأشخاص كان يجدر بي التعرف إليهم .ومن خلاله التقيتُ بمديرين تنفيذيين في صناعة الرسوم المتحرّكة بالنرويج، وشخصيات مرموقة في الدراما المسرحية، وأناس محترفين، ومسؤولين حكوميين، ورجال مرموقين كثر في المجال البحريّ في النرويج.

دُعيتُ إلى إلقاء كلمات أمام منظمات في أوسلو ومدن أخرى، مثل أندية المزارعين، ومنظمات شبابية ريفية، وجمعية الشابّات المسيحيات، وجمعية الشبّان المسيحيين، وتلامذة مدارس من المراحل الابتدائية من خلال الأندية الرياضية، والرابطة النرويجية للسيدات الجامعيات، ومجموعات صناعية، ومجموعات كنسية، ومجموعات خاصّة.

ألقيتُ معظم خطاباتي باللغة النرويجية .كان الأمر عسيرا عليّ في البداية لأنّه وَجَبَ عليّ التفكير بالإنكليزية ثمّ ترجمة ما أردت قوله إلى النرويجية .لم أتمتّع ببصر يتيح لي استخدام الملاحظات، طبعا، ولم أتمكّن من التوصل إلى الكلمة المناسبة بالسرعة الكافية في بعض الأحيان .لكن بمرور الوقت صرت أتحدّث النرويجية بشكل طبيعي كحديثي الإنكليزية تقريبا.

وفي أثناء السنة الدراسية قُبلتُ في الجامعة رسميا في صفّ طلاّب من الكلية العسكرية، وكنتُ الفتاةَ الوحيدة في المجموعة .لذلك أصبحتُ أكاديمية نرويجية كاملة العضويّة .قال لي الخال جون إنّ ذلك يُعدّ شرفا خاصّا لامرأة مولودة في الخارج، وإنّه فخور جدّا بي .لم أصدّق ما سمعت عندما قال ذلك.

في السابع عشر من أيار جلستُ في أحد المقاعد المحجوزة أسفل شرفة الملك والملكة في القصر الملكي لمشاهدة استعراض تلامذة مدارس أوسلو احتفالا بيوم استقلال النرويج.

في غمرة هذه الإثارة أحسست كما لو كنت سندريلا في الحفلة الراقصة التي أقامها الأمير .بدا الأمر أبعد عَن أن يكون حقيقة لفخامتِهِ .وخشيت أن تدقّ الساعة الثانية عشرة مُعلنة انتهاء كلّ الاحتفالات وكلّ هذه العظمة.

قال لي ذات مرّة المسنّ الكريم مورغينستيرني ذو الشهرة الدبلوماسية حين ضحكتُ لخفّة ظلّه غير منتبهة إلى هُويّته وسمعته بتحفّظه ومهابته": هذه طالبة زمالة نشيطة أرسلتها إلينا أميركا، ولا تبدين كمن أشغل رأسه بكثير من الدراسة، كما لا يبدو أنّكِ تخشين شيئا في هذا العالم."

بيد أنّ هذه النرويج، بكلّ احتفالاتها وعظمتها، لم تكن نرويج أحلامي .لم تكن الأرضَ الخيالية التي ترعرع فيها والداي وعاشت فيها جدّتي هوغْسيث حياتها السعيدة، وحيث الأقزام جعلت الأنهار تهدر.

كان عليّ التوجّه إلى أوستيردالين لأجد تلك النرويج :أوستيردالين، ذلك الوادي الشرقي العظيم الذي يمتدّ على طول الحدود السويدية من هامار إلى تروندهايم؛ الوادي العملاق المؤلَّف من مجموعة وديان صغيرة مرصَّعة بقمم الجبال الشاهقة التي تضمّ في أحضانها نهر غلومين الهدّار؛ وادي المزارع الخصبة وأغنى الأحراج في البلاد.

وفي تشرين الثاني وصلتني رسالة من إحدى بنات عمومتي تدعوني فيها إلى المجيء إلى أوستيردالين لتمضية عطلة الميلاد .وقالت إنّ عرسا سيقام – والعريس هو أحد أبناء عمومتي – وهناك مناسبات عائلية أخرى.

قرأتُ للخال جون الرسالة بصوت عالٍ.

قال" :ستموتين من البرد هناك."

قلتُ له" :أنتَ لا تعرف شدّة البرد بولاية مينيسوتا الأميركية. ففي توين فالي حيث يقيم خالي إينوش، تتدنّى درجة الحرارة إلى خمسين تحت الصفر في بعض الأحيان."

»لكنّكِ لم تتسلّقي الجبال مع تدنّي درجة الحرارة إلى هذا المستوى«، قال الخال جون مُصرّا على رأيه،» إنّ نصف السكّان هناك محلّيون، والطريقة الوحيدة

للوصول إليهم هي باستخدام زلاّجة يجرّها حصان جبليّ صغير، وأنا أنصحكِ بالانتظار وعدم الذهاب إلى أوستردالين إلاّ في حزيران.«

لكنّني لم أكن لأقتنع بالتخلّي عن الرحلة .وقلت لنفسي :بإمكاني تحمّل الصقيع بقدر ما كان بمقدور والداي تحمّله، وجدّتي هوغْسيث أيضا، وقد بدأ الخال جون يعاملني كطفلة.

غادرتُ أوسلو قبل نحو أسبوع من حلول العطلة .كان في استقبالي في محطّة تينسِت أوستردالين ابنة عمّي، وهي التي تولّت مسؤولية رعايتي بعد ذلك .عرّابي، الذي كان قد عاد إلى النرويج قبل عشر سنين مضت، كان يقيم على بعد نحو 24 كلم .كانت ابنة عمّي قد خططت بأن أُمضي عيد الميلاد معه؛ لكنْ صباح الرابع والعشرين، كانت درجة الحرارة تبلغ 55 درجة تحت الصفر، فقالت إنّ الذهاب إلى هناك حماقة .كانت منطقة بريدالين، التي يعيش فيها عرّابي، تمثّل واحدا من أكثر المجتمعات عزلة في أوستردالين .وكان يتوجب عليّ اجتياز جبل شاهق لبلوغها، وكانت يداي ورجلاي وربّما أعضاء أخرى ستتجمّد في الطريق .لكن عندما أرسل عرّابي لي مورتِن روستِن على متن درّاجة نارية أذعنت ابنةُ عمّي . قالت إنّ مورتِن لن يحتاج إلى أكثر من خمس عشرة دقيقة لإتمام الرحلة، وأنّني لن أتجمّد في تلك المدّة القصيرة إذا ارتديتُ ثيابا مناسبة.

وصل مورتِن وقت الظهيرة .كان قد ألحق بمؤخّرة الدرّاجة النارية زلاّجة صغيرة لأجلس فيها .كانت مليئة بالدُّثُر التي أرسلها لي عّرابي :معطفه المصنوع من الفرو لأضعه فوق معطفي، والراغر؛ وهو عبارة عن جوارب صوفية طويلة وسميكة كانت تصل إلى وركيّ وتغطي حذائي؛ حذاء فنلنديّ مصنوع من الفرو يُلبَس فوق

الراغر؛ ومعطف من الفرو .وأضافت ابنةُ عمّي إلى ما تقدّم شالات وبطّانيات ومعطفا آخر من الفرو، وقد أحسستُ أنّ تلك الأشياء تضمّني كطفلة في مهدها بعد أن أقعدتني ابنة عمّي في الزلاّجة.

صعدت الدرّاجة النارية بسهولة سفحَ الجبل .وكان الهواء قارسا جدّا والسرعة التي نتحرّك بها عالية بحيث كدت أعجز عن التنفّس .لم يمضِ غير بضع دقائق عندما قال لي مورتِن إنّنا نوشك أن نبلغ القمّة وإنّنا سنبدأ بالانحدار قريبا جدا، وأضاف إنّنا سنقطع مسافة أطول عندئذٍ، وأمِل في هذه الأثناء بألاّ أكون شديدة الانزعاج من شدّة البرد.

فجأة صار المحرّك يقرقر ويهدر، والزلاّجة الصندوقية تهتزّ بسبب السلسلة التي تصلها بالدرّاجة النارية .ثمّ تباطأت سرعتنا وخفتَ صوت القرقرة إلى أن تلاشى صوت من المحرّك وتوقفنا تماما .بقي مورتِن جالسا على الدرّاجة، لكن من خلال الثقب في الشال الصوفي المجدول الأحمر الذي غطّى وجهي، تمكنّتُ من أنْ أرى بأنّه منحنٍ فوقها.

سألته وقد راعني تصرّفه" :هل تعطّل شيء ما؟."

أجابني باقتضاب" :هذا ما أحاول معرفته."

خرجتُ من الزلاّجة وحاولت المشي اتجاهه، لكنّ أغطيتي كانت متشابكة فوق وثقيلة بحيث تمكنتُ بالكاد من الحراك.

قلتُ له" :سأدفع الدرّاجة، وستسحبها أنت بكلّ ما أوتيت من قوّة، ربّما يمكننا إعادة تشغيلها بهذه الطريقة."

بذلتُ وموررتِن كلّ ما في وسعنا، لكنّ المحرّك بقي صامتا، وفي آخر المطاف، وبعد أن بلغ الإنهاك منّا مبلغه، نصبنا قامتَيْنا ووقفنا بلا حراك.

حاولتُ أن أفكّر، وأدركتُ بأنّي لن أكون قادرة على الجري وأنا محشورة في هذا الكمّ من الثياب، بل ولن أتمكّن من المشي والتقدّم ولو خطوة واحدة حتى .كان الجوّ شديد البرودة وكنتُ قد تصبّبتُ عرقا عندما حاولتُ دفع الدرّاجة، فخشيت أن أنزع شيئا من ثيابي.

قلتُ أخيرا" :أسرع في طلب النجدة، وسأبقى هنا."

نظر إليّ كما لو أنني فقدتُ صوابي، وقال" :لا يمكنني فعل ذلك، هل تعرفين أنّه ستنقضي ساعات قبل وصولي إلى هناك؟ ستموتين من البرد في أثناء ذلك."

قلت له" :أسرع، إنّه الشيء الوحيد الذي يمكننا القيام به."

ثمّ ضحكت.

قال" :وتضحكين أيضا؟ أنتنّ الفتيات الأميركيات غريبات فعلا."

عدتُ إلى الزلاّجة الصندوقية بعد رحيل مورتِن وغطيت نفسي بالشالات والبطانيات والمعاطف، لكنّها كانت باردة وسرعان ما أحسست أنّ الثياب المبلّلة التي تلامس بدني تتجمّد حولي مثل مشابك ثلجية.

قلت في نفسي وأنا أخرج من الزلاّجة من جديد" :هذا لن ينجح."

لكنّني لم أعد قادرة عندئذٍ رؤية الممرَّ الضيّق لاشتداد العتمة، ولذلك لم أجرؤ على الابتعاد عن الزلاّجة خطوة واحدة.

وقلت في نفسي" :عليكِ أن تتدثّري من جديد وإلاّ ستتجمّدين بوقوفكِ بلا حراك في الثلج."

في الزلاّجة وتحت الأغطية من جديد، شعرتُ بأنّ إحساسي بالبرد يشتدّ مع مرور كلّ دقيقة.

قلت في نفسي" :أنتِ حمقاء، عليكِ أن تتحرّكي، ألم تسمعي ما قاله مورتِن؟."

لم يكن في الزلاّجة حيّز كافٍ لتحريك أيّ شيء عدا ذراعيّ.

قلت" :هذا لن يُجدي نفعا."

ثمّ حسبتُ أنّني إذا أخرجتُ رجلَيّ من الزلاّجة، فعندها يمكنني تحريكهما بلا عوائق .لذلك بدأت بتحريك رجلَيّ إلى أعلى وأسفل، الأولى فالثانية، ووجدت أنّ ذلك يحرّك جسمي أيضا .وبعد وقت وجيز أحسست بالحرارة تسري في جسدي وليس هناك داعٍ للقلق، لكنّني تعبت وتباطأت حركاتي، وفي النهاية وجب عليّ أن أجرّجرَ نفسي لمواصلة الحركة.

سألت نفسي" :هل سيكون حالي أفضل إذا غنّيت؟"، فبدأت بغناء" :ليلة ساكنة، ليلة مقدّسة."

كان وقت هذه الأغنية مثاليا لتحريك رجلَيّ، فغاب عن بالي لمدّة وجيزة إحساسي بالتعب الشديد .لم أستطع أن أتذكّر غير البيت الشعريّ الأول بالنرويجية فردّدته نحو خمس وعشرين مرّة، ثم انقطع صوتي.

قلت بصوتٍ مبحوح» :على أيّ حال، لا يمكنني البقاء دافئة بتحريك فمي.«

علت نظّارتي طبقة سميكة من الصقيع المتجمّد، وبسببها بدأ وجهي يتجمّد .ومع أنّني خشيت إضاعتها، نزعتها ومسحتها بوساطة الشال المجدول الأحمر .نظرتُ حولي بعد أن نزعتها .شعرت بالذعر بعدَ أنْ أدركت بأنّ الجوّ كان أكثر عتمةً بكثير – كانَ الليل قد هبط أساسا.

كان من الصعب عدم الشعور بالذعر في هذا الظلام .ومع أنّي لم أكن قادرة على رؤية أيّ شيء من وراء نظّارتي المكسوّة بالصقيع، إلّا إنّه لم ينتابني إحساسا بالعجز كهذا الذي إستحوذَ على مشاعري الآن .فمبارحة المكان كانت أمرا خطرا عليّ، لإمكانية انزلاقي بسهولة، والسقوط، فملاقاة الموت.

كنتُ قد توقّفتُ عن الحركة وكانت تسبب لي ألما، فتخوّفت من معاودة الحركة من جديد.

قلت": سأستريح لمدّة وجيزة وحسب."

لكن ما أن سكن بدني حتى ضيّقَتْ ثيابي المبلَّلة عليّ الخناق بقبضتها الجليديّة.

قلتُ في نفسي": هيّا، هيّا .تحرّكي مجدّدا."

لم أعرف كم مضى على كفاحي للحفاظ على حرارة جسمي حتّى أبت قدماي الضعيفتان ببساطة أن تتحرّكا سنتيمترا آخرا.

قلت بلهجة آمِرة": جرّبي ذراعيك، فذلك أفضل من لا شيء."

علقت يدي بطريقة ما بالشال المجدول الأحمر وأوقعتُ نظّارتي، سارعتُ إلى البحث عنها، لكنّني لم أجدها، فأجهشت بالبكاء.

»لا يمكنني المكوث هنا أكثر من هذا والبقاء على قيد الحياة«، قلت وأنا أمسح وجهي بالشال.

أحسست أنّ شيئا حادّا كان عالقا في أذني، وبعد أن تحسستها بتخبّط برهة من الزمن، وجدت أنّ ذلك الشيء كان قوس النظّارة.

قلت وأنا أضحك وأبكي في الوقت ذاته" :ستكونين على ما يرام رغم ذلك."

لكنّني شعرتُ بوجود عمود فولاذي بارد في المكان الذي كان فيه عمودي الفقري.

»أعلى فأسفل«، قلت وقد بدأتُ بتحريك قدمي ببطء شديد مرّة أخرى» .أعلى، أسفل، أعلى، أسفل"، وبقيت أكرّر تلك العبارة.

فكّرت في الذئاب التي حدّثتني عنها ابنة عمّي في ذلك الصباح .قالت بأنّ هناك قطعان جائعة منها كانت قد جاءت من فنلندا وهي لا تني تجوسُ سفوح الجبال في أوستردالين .لو أنّني سألتُ أمّي عمّا فعلته جدّتي هوغْسيث لجعلها طيّعة ووديعة، فربّما كان لدى أمّي الجواب وكانت ستخبرني .وفكرت، بأنّ هذا كان هو حالي دائما .لم أعرف أبدا الاستفادة من الأمور عندما تتهيّأ لي.

وقلت في نفسي بمرارة» :لا يمكنك حتى تخويف أرنب إنْ حاولتِ."

بدا وكأنّ ساقيّ تزنان أطنانا في ذلك الوقت .واحتجت إلى وقت طويل جدا لمجرّد الاستعداد لتحريك كلّ ساق، ناهيك عن الزمن اللازم لتحريكها فعلا.

ثمّ خطرت ببالي فكرة، وهي أنّني إذا رفعتُ قدمي بكلتا يدَيّ، فإنّهما لن تبدوا ثقيلتين .وعليه، فقد أمسكت بساقي اليسرى وبدأت بسحبها إلى أعلى في الهواء،

لكنّني فقدت توازني وكدت أسقط من الزلاّجة .لقد أحسست بأنّ العرق يسيل على سائر بدني.

همست قائلة بعد أن تمالكت نفسي قليلا" :الظلام حالك الآن بحيث إنّكِ لو قمتِ بإخراج قدم واحدة من الزلاّجة، فهذا يعني أنْك ضعتي لا محالة.«

وبدأت أشعر بالنعاس.

قلت غاضبة" :إيّاكِ أن تتوقّفي عن الحركة، مهما كنتِ منهكة، وأنتِ تعرفين معنى الإحساس بالنعاس في هذا البرد.

ثم أحسست بدفء مريح يلفّني .حاولت أن أقول لنفسي بأنّ إستمراي بالحركة هو السبب في ذلك، رغم أنّ الزمن الذي يفصل بين مرّة وأخرى أقوم خلالها بتحريك قدمي إلى أعلى وأسفل كان طويلا جدّا .لكنّ بدني المتصلّب جعلني أظنّ أنّ السبب مختلف.

قلت" :حسنا، نلتِ ما تريدين؛ قضاء عشية عيد الميلاد في النرويج .هناك في أرض أحلامك الخيالية؛ في أوستردالين .لكن ليس هناك تحت الأنهار أقزام تجعلها تهدر الآن .كلّهم تجمّدوا"، وصرت أرتجف.

نفضت الدُثُر عنّي في الحال ووقفت داخل الزلاّجة .نزعت نظّارتي وأجهدت عيني بقدر استطاعتي على التركيز في الظلام.

قلت" :مورتِن، مورتِن، مورتِن."

لكن صفير الريح وحده الذي أجابني.

»أنا لن أموت«، صرخت بصوت أعلى من ذي قبل،» هل تسمعني؟ لن أموت.«

لا أذكر كثيرا ممّا حصل بعد ذلك إلى أن وصلت إلى منزل عرّابي في بريدالين .قالوا لي بعد أنْ إستعدتُ وعيي أنّه حين عادَ مورتِن إلى تينست من دوني، ثارت ثائرة ابنة عمّي .اتّصلت بالعاملة في مكتب الهاتف، فأطلق المسؤول هناك إنذارا عامّا في الوادي بأسره .وانطلق الناس على الدرّاجات النارية وعلى الزلاّجات وفي الزحاليق وعلى صهوات الجياد وعلى الأقدام بحثا عنّي .لقد استغرقتْ من النجدة خمس ساعات للوصول إليّ، ثمّ اجتمع أهل الريف بأكملهم على قمّة الجبل .ولم يتوقّع أحد أن يُعثَر عليّ حيّة.

لكنّ الغريب فعلا أنّ كعبي قدميّ هما اللذان تجمّدا فحسب، ولم تكن حالهما بالغة السوء.

وبعد أن مضى على رجوعي إلى أميركا وقت طويل وكدتُ أنسى الحادثة، كتبت إليّ ابنة عمّي من أوستردالين قائلة إنّ الناس في ذلك الجزء من البلاد باتوا يقدّرون الوقت بعدد السنين التي مضت منذ عشية عيد الميلاد الذي تُركت فيه الفتاة دال جالسة فوق قمّة الجبل.

المرّة الثانية التي ذهبتُ فيها إلى أوستردالين كانت في حزيران، بدا كلّ شيء هناك مختلفا وقتئذ .كان الطقس معتدلا والحياة تدبّ في كلّ مكان.

وفي إحدى الأمسيات دعتني آن، ابنة ابن عمّي، إلى الذهاب معها في نزهة إلى مورنا بالقرب من قمّة جبل .انطلقنا في وضحِ النهار عند الساعة التاسعة .ومع أنّ الطريق كانت شديدة الانحدار إلّا إنّنا قطعنا معظم الطريق جريا .كانت آن

معتادة على الطريق الذي سلكناه، لذلك سرتُ وراءها قريبا منها .كان من الغريب أنّي لم أشعر بأيّ خوف من السقوط .بعد أن أسمعها وهي تخطو كلّ خطوة أمامي، كنتُ ألمس بيدَيّ الحجارة التي ابتعدتُ عنها للتوّ، وهكذا كنتُ أعرف أين ينبغي لي أنْ أضع قدمَي بالضبط .كان الهواء فوق الغابات الدائمة الخضرة التي غطّت سفح الجبل أكثر طلاقة، وأحسستُ بخفّة الوزن إلى حدّ بدا لي معه أنّ في استطاعتي الطيران إذا بذلت جهدا كافيا.

تدفّقت السيول الجبلية الصغيرة على جانبَي مسارنا نزولا عبر الأودية الضيّقة التي قالت آن أنّها كانت قد تجمّدَت قبل أسبوعٍ واحدٍ فحسب .سالت شلاّلات صغيرة كثيرة فوق المنحدرات بقربنا وأذهلتنا بهديرها المفاجئ وهي تتدفّق نحو الوادي.

وصلنا إلى قمّة مورنا عند منتصف الليل تقريبا، وعلى الرغم من إنّ الشمس كانَت قد غربَت، إلّا إنّ النور كان قويا بما يكفي للقراءة .أخرجت آن الطعام، وجلسنا على صخرة كبيرة وأكلنا الخبز وجبنة الماعز واحتسينا القهوة المرّة.

بدأت طيور الوقواق تنادي بعضها البعض من على قمم الجبال المحيطة بنا . أمكننا في البداية سماع أصوات قلة منها، لكنّ قوة غنائها زادت تدريجيا حتّى أصبحت هناك جوقة كاملة منها؛ لكنّ ذلك لم يمنعنا من التمييز بين النداءات والإجابات المنفصلة للطيور وهي تغازل أقرانها .أخذت أنفاسا عميقة من الهواء المنعش الذي كان على درجة من النظافة بدا معها وكأنّه يُخرج كلّ شائبة من رئتَيّ. وفيما كنت أنظر إلى المسافات التي بدت أمامي رقعة مُضبّبة من الأرجوان

والذهب، بزغت الشمس من خلفنا وهي تتسلّل من خلف جرف عالٍ من جهة الشرق.

قالت آن وهي تشير في ذلك الاتّجاه" :السويد أمامكِ مباشرة، يمكنني أن أرى الجبال على امتداد الحدود النرويجية."

مع أنّني كنتُ أعرف بأنّي لا أرى ما كانت تُشيرُ إليه آن، غير إنّي أدركتُ بأنّي جالسة وسط واحد من أجمل المناظر في العالم .وقلت لنفسي، حتى شخصٌ أعمى يمكنه الإحساس بهذا.

انتهى وقت إقامتي في النرويج .لقد كانت مغامرة مجيدة .حزنتُ لمفارقة الخال جون وتانتي سينا وكلّ من كان في غاية اللطف معي .بكيت وأنا أنظر عبثا من على متن الباخرة إلى شاطئ النرويج البعيد.

لكنّ ألم فراق الأحبّة الذين تركتهم ورائي خفَت عندما فكّرت فيما ينتظرني .كنتُ بالكاد أقوى على الانتظار أن تطأ قدميّ الأرض الصلبة للولايات المتحدة من جديد .لقد كنتُ أهتزّ سعادة لعودتي إلى بلادي ولإمكانية معاودتي العمل. أصبحتُ شخصا جديدا الآن، وبالكاد أستطيع تذكّر نفسي السابقة – تلك المرأة الغريبة، التي قبل عامين ونيّف فقط غادرَت هارموني محبطة من فكرة أنّ الحياة كانت تبدو بالكاد تستحقّ العيش.

الآن، لم أعد أخشى من تجربة أيّ شيء وفي أيّ مكان.

الفصل السابع

تملّكتني رغبة شديدة في التعليم في إحدى الكلّيات، ولذلك عرّجت على شيكاغو ومينيبوليس لإجراء مقابلات مع مدراء عددٍ من وكالات توظيف المدرسين.

قالوا لي" :سنؤمّن لكِ منصبا جيدا في الفصل الدراسي الثاني، وإذا لم يكن في كلّية، فيمكننا أن نعدكِ على الأقلّ بمنصب في مدرسة ثانوية كبيرة."

كان سماع مدراء وكالات توظيف المدرسين يقولون هذا الكلام مصدر سعادة غامرة لي .وكنتُ أعرف بأنّهم ينظرون إليّ بإمعان في المقابلات، ولا بدّ أنّهم كانوا راضين عن مظهري .كان أمرا غير معقول أنّه لم يكن عليّ أنْ أقلق حيال الخوف من فكرة أن تمنعني عيناي من نيل الوظيفة التي أريدها.

وغداة رأس السنة الجديدة اشتغلت في التعليم في المدرسة الثانوية ببسمارك في ولاية نورث داكوتا .لم يكن المنصب مثل ما أردت تماما، لكنّي كنت بحاجة إلى كسب المال، ولذلك سعدت بقبوله .وكانت هناك معلّمة تدرّس اللغة الإنكليزية والفرنسية، لكنها تزوّجت في أيام العطلة فحللتُ مكانها.

أحببتُ بسمارك من البداية، وسعدت بالعمل مع رجلين عظيمَين في المدرسة هما السيد ساكسْفيك، مدير المدرسة، والسيد بيوْليتز، ناظر المدرسة .لقد كانا معلّمَين حقيقيَّين ونبيلَين بأجمل ما تحمل الكلمة من معنى.

أحببتُ عملي أيضا .بقيامي بالتدريس في صفوف دراسية صغيرة، لم تعترضني مشكلات من ناحية الانضباط .إستخدمتُ كلّ طاقتي ساعية إلى جعل المادّة التي

أدرّسها مشوّقة، وزوّدتني السنتين اللتين قضيتهما في السفر والدراسة بمادّة جديدة أقدّمها للطلاب.

أزعجني بعض الشيء اضطراري لتدريس الفرنسية .فقد مضى وقت طويل منذ أن درست هذه اللغة، ومع أنّني تلقّيت بضع محاضرات باللغة الفرنسية في كلّ من معهد نوبل في أوسلو، وفي أثناء المؤتمر العالمي للسيدات الجامعيات هناك، إلّا إنّه بالكاد يمكن اعتبار ذلك تحضيرا لتدريسها .لذلك أدركت أنّ علي القيام ببعض الدراسة المُجهدة لمجاراة طلاّبي .لقد كانوا متقدّمين كثيرا في القراءة؛ وبخاصّة طلاّب السنة الثانية، ولكي أحفظ عن ظهر قلب أغلب ما درسوه، كان ينبغي لي العمل بجدّ، في مجال المفردات على الأقلّ.

بدأت بحفظ دروسي الفرنسية منذ الليلة الأولى لاستلامي لكتبي المدرسية. إنغمست لعدة أسابيع بعد ذلك في حياة فرنسية صاخبة .فصرت أذهب إلى النوم بالفرنسية، وأستيقظ بالفرنسية، وأغسل وألبس وأسرّح شعري بالفرنسية؛ وصرت آكل وأشرب وأترك المائدة بالفرنسية؛ وأذهب إلى المدرسة وأحيّي طلاّبي وأتحدّث إلى المدرّسين بالفرنسية .أعني بأنّي قمت بذلك بالإنكليزية أولا، ثمّ قلتها مع نفسي بالفرنسية لاحقا .قرأتُ واجبات اللغة الفرنسية الخاصّة بصفوفي حتّى وجدتُ نفسي وأنا أقرأ مقاطع منها أمام الناس، ممّا سبّب لي إحراجا كبيرا.

وعندما بحثت في مخزن الكتب المدرسية الخاصّة بالمرحلة الثانوية وجدتُ أنّ الكتب الكلاسيكية الموجودة والخاصّة بمادّة اللغة الإنكليزية للسنة الثانية كانت مجموعة) The Talisman ذي تاليسْمان (لسكوت .خاب أملي بسبب ذلك، لأنّني

كنت أعتقد أنّ هذه المجموعة غير مناسبة على الإطلاق لدراسة مكثَّفة لطلابّ الصف الثانوي الثاني على الأقلّ، لكن لم يكن هناك حلّ سوى استخدام الكتب والحصول على أفضل ما فيها.

قرأتُ» ذي تاليسْمان «مرّات عدة قبل البدء بتقديمها لطلاّبي .بعد ذلك بذلتُ كلَّ جهد ممكن لجعلها مشوّقة لهم .وكانت النتائج غير معقولة .لقد أحبّ الفتية والفتيات» ذي تاليسمان«، وناقشوها بحماسة بالغة في أثناء مرحلة القراءة . ورسموا في منازلهم صورا لمشاهد مستوحاة منها ليعرضوها على زملائهم في الصفّ .لقد خاطوا ملابسا أيضا لدمى لتمثيل شخصيات في الرواية .وصنعوا مجسّمات خشبية للمباني والأسلحة .وعندما فرغوا من دراسة الرواية كتبوا مسرحية بناء على بعض ما رَأَوْا أنه كان أكثر الحوادث إثارة في الرواية.

كانت تجربتي مع هذه الرواية مشجّعة للغاية .ما الذي لن يمكنني فعله الآن مع مادّة كلاسيكية أُحبّها فعلا ومناسبة لطلاّبي؟

إحدى الوظائف الإضافية التي صارت من مسؤولياتي في المدرسة كانت تدريب الطلاب على أداء مسرحية تمّ اختيارها أصلا، لكن لم يكن لها مُخرج .وكان اسمها Old Days in Dixie. وكما يوحي العنوان كانت تسودها الأجواء الرومانسية للجنوب القديم .تولّى قسما الفنون والموسيقا تهيئة المسرح، والملابس، والموسيقا، ولذلك انحصرت مسؤوليتي في الحوار .وتبيّن أنّ الفتاة التي أدّت دور المرأة العمياء خطفَت الأضواء .كانت تتحسّس طريقها وتتلمّس الأشياء، وتمثّل كما لو أنّها مكفوفة فعلا .وقال الناس إنّها حاكَتْ على نحو مثالي الإيماءات والحركات المميزة لشخص أعمى .لقد تعجّبوا من قدرة فتاة صغيرة السنّ وتتمتّع

ببصر ممتاز على التفكير في القيام بأمور كهذه .لقد كنتُ الوحيدة التي خمّنت السبب في ذلك.

وبما أنّه لم يمضِ وقت طويل على عودتي من الخارج تلقّيتُ طلبات للتكلّم أمام منظمات كثيرة في المدينة :أندية الروتاري، الهاي واي، أبناء النرويج، مجموعات كنسية وجمعيات للمعلّمين والطلاّب في المدارس الأهلية .قبلتُ كلّ تلك الدعوات واستمتعت بلقاء الناس الذين تواصلت معهم بهذه الطريقة .التحدّث باللغة النرويجية، وهي لغة أجنبية فعلا بالنسبة لي، قد كانت ممارسة رائعة، لأنه كان قد توجّبَ علي أنْ أعبّرَ عن نفسي بكلمات دقيقة .كما أنّ ظهوري في المناسبات العامّة أسوة بما قد فعلت في النرويج منحني ثقة بالنفس أيضا.

غير أنّ الأمر الذي جعل تعاملي مع الغرباء أيسر من أيّ وقت مضى كان إدراك حقيقة أنّ عينَيّ ما عادتا على ذاك القدر من البشاعة التي تلفت إليها إنتباه الناس في الحال .في اليوم الأوّل الذي وقفتُ فيه أمام طلبتي في قاعة الدرس في بسمارك، لم أجد داعيا للتساؤل، مع نفسي، عن رأيهم حيال عينَيّ .ومع أنّهما كانتا وقتذاك بعيدتين عن أن تكونا جميلتين، لكنّ حالهما كان يمّثل تحسّنا كبيرا مقارنة بما كانتا عليه في السابق .وكنتُ بعد نحو ثلاث سنين ما أزال أشعر بالبهجة متى ما أمسكت المرآة ونظرت إلى عينَيّ اللتَين كانتا ترحّبان بي في صورتي المنعكسة .بقي بصري ضعيفا بالطبع .لكنّني اعتدت ذلك، وصار بإمكاني التغلّب إلى حدّ بعيد على هذه الصعوبة بالتأنّي الشديد في أفعالي أمام الناس، وبحفظ أيّ شيء في ذاكرتي عندما أكون في غرفتي، حيث لا يدري بذلك أحد .لكنّني كنت عاجزة قبل ذلك بسبب عيني المليئة بالندوب .وجُلّ ما كان في استطاعتي فعله في

السابق كان محاولة تطوير شخصيتي بأفضل ما يمكنني أملا بأن يحبّني الناس في آخر المطاف رغم الانطباع السيّئ الذي يولّده فيهم مظهري للوهلة الأولى.

سار كلّ شيء على أحسن ما يرام في بسمارك إلى حدّ أنّني غدوت مفعمة بآمال كبيرة حيال المستقبل .ولقد قرّرت أن أؤسّس منزلا صغيرا لي بأسرع وقت ممكن . منذ كان المنزل القديم قد تفكّك، ولم يعد لديّ أو لدى دوروثي أيّ مكان ننتمي إليه حقا .صار لدينا حقيبة هنا، صندوق هناك، وصناديق تحوي ممتلكاتنا في كلّ مكان .وعندما كنّا نحتاج إلى أغراضنا لم يكن في وسعِ أيّ منّا تحديد مكانها . لقد قرّرتُ الآن امتلاك بضع أدوات منزلية يمكننا استخدامها حين نستقرّ في منزلنا .ستكون تلك بداية على الأقلّ .اشتريتُ قماشا للمناشف وبدأت بخياطة حواشي لها بشكل يدوي .ووجدت أنّ شقيقتي أولغا كانت على حقّ عندما قالت لي ذات مرّة إنّ بصري جيد بما يكفي للقيام بالخياطة إذا ما تحلّيتُ بالصبر.

تقاضيتُ في بسمارك راتبا أكبر بكثير من أيّ راتب كنتُ قد تقاضيته سابقا .كما مُنحت زيادة كبيرة في نهاية السنة أيضا .لكن عُرض عليّ منصب في واتر تاون بولاية ساوث داكوتا حيث كان عملي، في جانبٍ منه، سيكون في كلّية صغرى، ولذلك قبلتُ بالعرض .ذلك كان مصحوبا بأسف كبير، لأنّي تركت كثيرا من الأصدقاء الذين تعرّفت إليهم أثناء إقامتي القصيرة في بسمارك.

لقد أدركتُ حالما ألقى المدير في واتر تاون عليّ نظرة فاحصة، أنّي لم أرق له . فعاودتني كلّ الآلام التي سببّتها طوال سنين عقدةُ الدونية وإحساسي بالخيبة . لكنّها بدت الآن مضاعفة لأنّني ظننتُ أنّ المسألة أصبحت شيئا من الماضي .لم يعلّق الرجل على ذلك أمامي .لم يزر أيّ صفّ من صفوفي، ولم يقدّم لي أيّ

اقتراحات .لكن في تقديره لي كنتُ أعرف بأنّي قد أخفقت، وأنّه لم يكن في يدي حيلة إزاء ذلك.

وفي الربيع تلقّيت عرضا للذهاب إلى سيوكس فولز .كان سيتاح لي في هذا المنصب عملا جامعيا فقط، وفي مجالَي اللغة الإنكليزية والصحافة .كان الراتب مُغريا . ولقد سمعتُ أن سيوكس فولز أكبر الحواضر وأجملها في الولايتين داكوتا الشمالية والجنوبية.

لم أجد مشكلة كبيرة في الذهاب إلى مكان جديد .كنت منزعجة إلى حدّ ما من تجربتي الأخيرة في واتر تاون، لكنّها لم تنل من عزمي على المضيّ قدُما .فبعد أن أزلتُ كثيرا من العوائق التي كانت تعترضني، لم أكن لأستسلم الآن.

عرفتُ أنّني سأحبّ سيوكس فالز منذ الصباح الأول الذي وصلتُ فيه إلى هناك . كنت غريبة تماما، لكنْ لم ينتابني شعور بالوحدة .وبما أنّه لم يكن أحدٌ على معرفةٍ بي، فإنّه كان في مقدوري التنقّل على مدى أيام من دون إزعاج، وعندما كنتُ أتوقف لإجراء معاملة مالية صغيرة كنتُ أعامَل بأقصى درجات الودّ.

كانت الكلّية قد خضعَت لإعادة تنظيم شاملة مؤخرا، رغم أنها مؤسّسة قديمة . لقد تحوّلت من أكاديمية ومدرسة عادية إلى كلّية للعلوم الإنسانية، تستغرق الدراسة فيها أربع سنوات .كان هناك الكثير ممّا يكنْ يرقى إلى المستوى المطلوب على صعيد المباني والمنشآت المكتبية والتجهيزات الأخرى، لكنّني أدركتُ خلال أسبوعي الأول هناك بأنّ الكلّية يمكنها أن تفخر بكونها مؤسّسة تعليمية تضاهي أيّ مؤسّسة أخرى في أيّ مكان آخر.

أضحت الكلّية منذ البداية مذبحا قُدّمت له القرابين .الإرتقاء بمستقبلها ورفاهية طلاّبها كان أمانة مقدّسة – غدت عقيدة دينية معي، في الواقع .كان أمرا طبيعيا أن تكون كذلك .فالمدرسة كانت قد تأسّست على أيدي مستوطنين أوائل من قوميّتي .مواثيقها كانت مواثيق عقيدتي .نسبة مئوية لا بأس بها ممّن كانوا قد صاغوا سياساتها كانوا كهنةإنجيليون في كنيستي .لقد كنتُ مؤمنة بالعمل الذي أقوم به .كنت ألفت نظر طلاّبي إلى مؤلّفات أدبية جيدة وأحاول مساعدتهم على تقديرها وحبّها، ولقد كنتُ مُقتنعة بأنّ الأدب الجيد يمكن أنْ يكون له تأثير مفضٍ إلى السمو في حياتهم .آمنتُ بساوث داكوتا – بأن يكون لها مستقبل عظيم .والأمر الأخير، والأهمّ من كلّ ذلك، والذي نما حبه بداخلي، هو أنّي كنتُ مؤمنة بالشباب الذين كانوا يحضرون حصّتي يوما بعد يوم.

درّستُ في الكلّية مقرّرات متنوّعة في اللغة الإنكليزية :الأدب الإنكليزي والأميركي، أعمال الشاعر الإنكليزي تشوسير، ودراما عصر إليزابيث، وأعمال شكسبير، والعصر الرومانسي، والعصر الفيكتوري، والرواية، والقصّة القصيرة، والدراما الحديثة، وعلم البلاغة لطلاّب السنة الأولى، والصحافة، ومقرّر لمدرّسي اللغة الإنكليزية في المرحلة الثانوية .وسرعان ما اكتشفتُ أنّ طلاّبي قد فاتهم الكثير من المطالعة التي كان المفترض أنْ يؤدّوها في وقتٍ سابق، ولذلك وضعت خططا لتقديم مقرّر عن أدب الأطفال للمدرّسين في المراحل المدرسيّة .وفي سياق إعداد هذا المقرّر حظيت بتعاون صادق من وكلاء بيع الكتب في منطقتنا، ومن المعلّمين في المدينة وفي مناطق أخرى في الولاية.

قلتُ لطلاّبي بعد أن بدأت بتقديم مقرّر أدب الأطفال" :قدّموا للأطفال الأفضل دائما، وسيقدّرون الأعمال الكلاسيكية إذا قدّمتموها بأسلوب بسيط وواضح بما فيه الكفاية."

سنحت لي فرص كثيرة خارج المدرسة لأجعل عملي في الصف مشوّقا .فقد شجّعتُ طلاّبي على البحث عن مشاهد لافتة في المسارح، واستعرضتُ لهم في بعض الأحيان الكتبَ التي استندت إليها الأفلام السينمائية .ومتى ما كانت تعُرض مسرحية جادة في البلدة، كنّا نتحدّث عنها طوال أسابيع سلفا، وكانت الشرفة الثانية تزدحم بطلاّبي ليلة عرضها .وبما أنّني لم أستطع تقدير الأوبرا الجادّة بنفسي عندما ذهبتُ إلى نيويورك لأوّل مرّة، أردت أن أساعد طلاّبي على تذوّق ما كان يجري تقديمه في سيوكس فولز .ناقشنا قصص كارمين، وهانسيل أند غريتيل، وفاوست، وغيرها من المسرحيات التي عُرضت في المدينة، بحثنا عن سِيَر المؤلّفين، وكشفنا عن أيّ شيء ذي شأن كان يتّصل بالأوبرا.

كان الطلبة متحفّزين للإستفادة من كلّ ما كنت أتعلّمه منهم بقدرما يتعلمونه مني .درس الصحافة، على وجه الخصوص، أبقى عيونَهم وآذانهم مفتوحة.

قال لي أحد الصبية في يوم من الأيام» :إنّ هيوي لونغ في البلد .سأذهب لأجري مقابلة معه .أودّ أنْ أعرف إن كان من النوعِ الذي تتحدّث التقارير عنه.«

عاد الطالب عصر اليوم التالي.

»إنّه أسوأ«، قال، «لقد أمضيتُ نحو ساعة معه في فندقه وبقي يتحدّث طوال الوقت .قال إنّه قد صنع كلّ مسؤول حكومي في ولاية لويزيانا، وأنّه سينتقل إلى واشنطن في الفترة القادمة.«

جاء طلاّب آخرون بقصص مشوّقة عن شخصيات مشهورة مثل جانيت ماكدونالدز، وماريون أندرسون، وكارل ساندْبورغ، وثيودور روزفلت الثاني.

استغلّيتُ كلّ دقيقة أمكنني توفيرها في قراءة الصحف والمجلاّت والكتب .لقد اكتشفتُ أنّ عليّ أن أكون متيقّظة لأواكب هؤلاء الفتية المتحمّسين.

ومراعاة للمظهر في أثناء القراءة في المدرسة وضعتُ على الطاولة أمامي مختارات أدبية وكتبا مدرسية أخرى منها يقتطف الطلاّب فقرات للقراءة .بالنسبة لمحاضراتي، لم أستعن بكتاب أو بملاحظة من أيّ نوع طوال السنوات الثلاث عشرة التي أمضيتها في الكلّية.

أصبحتُ شغوفة بالقراءة الجيدة إلى حدّ أنّني صرت أتحدّث عن الكتب أينما ذهبت، وبدأ الناس يجمعون بيني وبينها، ويسألونني عن رأيي فيها .وفي وقت وجيز صرت أستعرض الكتب أمام مجموعات صغيرة ضمّت بعضا من أحبّ أصدقائي إليّ .بعد أن ظهرت مقالات عن هذه المراجعات في الصحيفة اليومية' أرغوس ليدر 'في مدينة سيوكس فالز، طلب منّي بعض الغرباء إلقاء كلمات .وهكذا صرت أستعرض الكتب في اجتماعات مجموعات كنسية تضم جميع الطوائف والمذاهب، ومجموعات اجتماعية من الرجال والنساء، وأندية مطالعة، وجمعيات في كلّيات أخرى في المدينة وفي المدرسة الثانوية المحلّية؛ دعاني

مدرّسون في المدارس الأهلية إلى مدارسهم للتحدّث إلى الطلاّب في الصفوف .لقد تعرّف التلاميذ إليّ وصاروا ينادونني باسمي حين كانوا يلاقونني في الشارع.

على مدار سنتين، كنتُ أستعرضُ كتابا مختلفا صباح كلّ يوم اثنين عبر أثير إذاعة كسو في سيوكس فالز. ولقد تلقّيت مئات الرسائل من أشخاص سمعوني وأنا أستعرض تلك الكتب.

وفي أحد الأيّام طلب منّي المذيع الانتظار دقيقة قبل بدء بثّي لأنّ لديه ما يودّ قوله أولا للمستمعين .لم أحاول الإنصات إليه لأنّه كانت توجدُ دائما إعلانات كثيرة تُبَثّ، ولأنه لم يكن بمقدوري في العادة أنْ أسمع ما يقال في الحجرة التي كان يتحدّث منها .لكن لا بدّ وأنّ الباب كان قد تُرك مفتوحا أو ربّما حدثَ شيءٌ آخر، لأنّي ذُهلت لسماع اسمي.

قال المذيع" :الآنسة دال جالسة هنا في غرفة الإذاعة كالمعتاد من دون أي كتاب أو ورقة من أيّ نوع لتستخدمها فيما هي تستعرض الكتاب .أنْ أراها وأسمعها وهي تقوم بذلك أسبوعا بعد آخر لهوَ من أكبر العجائب التي شاهدتها منذ أن عملت في الإذاعة."

كانت المفاجأة كبيرة إلى حدّ أنّي كدت أحجم عن القيام بإستعراضي ذلك الصباح .لم يخطر ببالي أن يَلْحظ شخص بأنّني كنتُ أتكلّم من دون ملاحظات، ولم أكن متلهّفة بالتأكيد إلى لفت انتباه أيّ كان إلى هذه الحقيقة .كان عدم استعمالها يمثل بالنسبة لي مسألة بقاء.

استعرضتُ كلّ تلك الكتب في المدينة من دون أن أفكّر في تقاضي أموال لقاء ذلك .لكن عندما كان يعرض عليّ مستمعون من خارج المدينة مالا، فإنّني كنتُ أقبل ما يقدّموه لي .كانت الكتب تكلّفني مبالغ كبيرة بالإضافة إلى مصاريف أخرى متعلّقة بالمواصلات غالبا .كنتُ أتقاضى في بعض الأحيان خمسة وعشرين دولارا لقاء المحاضرة الواحدة .وصرت فضولية لأعرف ما يمكنني فعله بالمال الإضافي الذي جنيته بهذه الطريقة، ولذلك ادّخرتُ بعضا منه في صندوق خاصّ بي .وبعد مدّة وجدت أنّ المبلغ المدَّخر كافٍ لأشتري خزانة نفيسة وطقم أطباق من صنف ويدجْوود.

لقد جمعتُ مكتبة كبيرة الحجم أيضا .لقد تسلمتُ الكثير من الكتب من وكلاء بيع الكتب ودور النشر .أحيانا كانت تُعطيني المجموعاتُ التي كنتُ أستعرض الكتب أمامها نسخا من الكتب التي استعرضها .كانت متاجر بيع الكتب تُقدّم لي غالبا نسخا من الكتب التي أستعرضها عبر أثير الإذاعة .كما إنّني اشتريت كلّ ما كنتُ قادرة على دفع ثمنه وأكثر.

وقع الاختيار عليّ من بين ثلاثة أشخاص أو أربعة في البلدة لأستعرض الكتب لصالح Book Review Guild of America. لقد كُلّفتني هذهِ المؤسسة باستعراض كتاب) Gone with the Wind ذهب مع الرياح (عند صدوره .لقد أحضر لي مسؤول المراسلات نسختي عند الساعة الحادية عشرة من صباح أحد الأيام، ونظرا إلى حصول تأخير في إرساله، طُلِبَ منّي أنْ يكون تقريري حول الكتاب جاهزا بحلول اليوم التالي .من حسن حظّي أنّه لم تكن لديّ حصص خلال الساعات الأربع والعشرين التالية، إذ إنّني أمضيتها كلّها في قراءة الكتاب .

على أية حال، بحلول الساعة الحادية عشرة من اليوم التالي كنت قد إنتهيت من مطالعة الكتاب وكان نقدي المكتوب جاهزا للإرسال إلى كاتب الطابعة .بقيت أقرأ طوال الليل؛ ومع أنّه كان عليّ وضع الكتاب الضخم قريبا من وجهي إلى حدّ أنّ رموش عيني اليسرى كانت تلامسُ الصفحات فيما كنت أمرّر عيني فوقها، إلّا إنّ عيني لم تكن مُلتهبة، أو متعبة حين إنتهيت من القراءة.

بحلول ربيع العام 1932 كنت قد ادّخرت مالا يكفي لسداد دفعة أولى من ثمن منزل .وكانت دوروثي قد قبلت بمنصب تعليمي في الشرق، لكنّها عزمت على العودة إلى سيوكس فولز لقضاء عطلها الصيفية، وربّما قضاء عطل عيد الميلاد أحيانا .كان بيتنا متواضعا للغاية، مؤلفا من طابق واحد، لكنّه كان يفي باحتياجاتنا، أمّا دوروثي التي مكّنها تدرّبها على الاقتصاد المنزلي من أن تكون ربّة منزل نموذجية، فقد ساعدتني على اختيار أثاث المنزل وجعله مكانا مريحا وعائليا.

شهدت ولاية ساوث داكوتا في الصيف الذي زرعنا فيه حديقتنا أسوأ موسم جفاف في تاريخها، وبالكاد شهدت أمطارا على مدى سنين متعاقبة بعد ذلك . شهرا بعد شهر، كانت تهبّ رياح هوجاء، محرقة كلّ ما إجتاحَته.

حصلت مدينة سيوكس فولز على إمداداتها من المياه من آبار عميقة، وبذلك أتيحَ للسكان في البلدة ريّ مروجهم .لكنّ الإحباط الشديد نزل بمعظم مالكي المنازل بسبب الجفاف المستمرّ ونوبات الحرّ إلى حدّ أنّهم أوقفوا كفاحهم وتركوا أفنية منازلهم تعطش ويبهت لونها.

كنتُ ودوروثي نفتح ماء المرشّة من الصباح الباكر حتى منتصف الليل تقريبا، في كلّ يوم لحماية الأشجار والشجيرات والأعشاب من الجفاف.

وفي أحد أيام السبت، حين بدا أن الريح تحرق كلّ شيء تلمسه، جاءنا السيد مونسرود، الذي كان قد ساعدنا على إقامة حديقتنا، ليتفقّد حالنا.

قال لنا" :عليكما أن تلفّا جذوع الأشجار بأكياس الخيش المبلَّلة، وأن تنشرا القماش القطني فوق مرجكما، لا شيء يمكن أن يبقى حيا تحت أشعّة الشمس المُحرقة هذه، والريح تهبّ كألسنة لهب منبعثة من نار مشتعلة في الهواء الطلق."

في السنة الأولى التي كان يُفترض أن تُزهر نباتات الليلج على العيدان العارية، بدت الأزهار مثل قطعٍ صغيرة قذرة من فرو رماديّ رثّ لخروف فارسي.

لكن رغم الجفاف بدأت تظهر في فنائنا أمارات التحسّن .تخلّصنا من حفر الزواحف والأكوام الترابية لجحور حيوان الخلد التي انتشرت في المكان حين جئنا .ونما كلّ شيء كنّا قد زرعناه؛ وبعد مدّة علت الأرضَ طبقة ناعمة من العشب الرقيق الأخضر الزاهي، وباتت الفروع الضعيفة للوشائع مكسوّة بالكامل تقريبا بأوراق جديدة صغيرة الحجم، وظهرت رقع صغيرة من الظلال أسفل الأشجار الصغيرة .بدا الفناء نظيفا وجذّابا، وفي المساء حين كانت الريح تتلاعب برذاذ المياه المنبعث من المرشّة، كان يُصبِحُ الجلوس في الخارج رائعا وحلوا .اشترينا بعد ذلك أثاثا للحديقة، واعتدنا بعد ذلك تناولَ العشاء خارج المنزل بعد مغيب الشمس .وكان الناس الذين يزوروننا يقولون بأنّهم ينسون أنّ هنالك جفاف حين يكونون في حديقتنا.

كانَ الطلاّب يستمتعون بالمجيء إلينا أيضا .لم يكن لديّ مكتب في الكلّية، ولذلك كانت لديّ مواعيد خاصّة معهم في المنزل .وغالبا ما كانت هذه الندوات تبدأ بغداء خفيف .كنت أتيح للفتية مساعدتي في إعداده، وبعد ذلك، حين يكون الجليد قد ذاب عبر التعامل البعيد عن الشكليات داخل المطبخ، ونتخذ مقاعدنا على كراسٍ مريحة في غرفة الجلوس، يغدو من الطبيعي تماما أن يضع الطلاّب فيّ ثقتهم ويخبرونني عمّا يجول في أذهانهم .علمتُ أنّ الجفاف أشدّ وطأة على المزارعين منه علينا سكّان المدينة، وأنّ الآباء هناك يقدّمون تضحيات بطولية لإبقاء أبنائهم وبناتهم في المدرسة .وبُهِتُّ بعد ما سمعته من قصص أنْ هناك من المال ما يكفي لتمكين الطلاّب من التواجد في المدرسة أصلا.

قالت لي إحدى الفتيات" :لم ننل قطرة ماء واحدة في منزلنا منذ مطلع فصل الربيع الماضي، ووالدي ينقل مياه الشرب في صهريج مسافة خمسة عشر كيلومترا، وكتبت أمّي في رسالتها الأخيرة أنّها مضطرّة إلى أن تقيس بالكوب الماءَ اللازم لغسل الثياب."

وقالت فتاة أخرى" :العواصف الرملية التي تعترض طريقنا فظيعة .بسببها يصبح الجوّ مُعتما إلى حدّ أنّ الناس يضطرّون إلى إبقاء المصابيح مشتغلة طوال اليوم في بعض الأحيان .كما أنّ أمّي حشت النوافذ بالقطن لمنع دخول الغبار، ومع ذلك أصبحَ الأمر بالغ السوء إلى حدّ أنّها أنزلت الستائر ووضعتها مع البسُط في صناديق، فلم يعد هناك جدوى من محاولة المحافظة على نظافتها، وهي تقول إنّها تمسح الأرضيات والطاولات والكراسيّ كلّ ساعة تقريبا وأنّ الرمال في كلّ مكان."

وقال لي أحد الصبيان" :نقل والدي القطيعَ إلى خارج المزرعة في الأسبوع الفائت، إذْ لم يعد بمقدوره ببساطة أنْ يتحمّل النظر إلى عظامها وهي تنتأ .لقد أبقى بقرة حلوبا، لكنّي لا أعرف كيف سيتمكّن من إطعامها."

وفي إحدى الأمسيات قدم إلى منزلي صبي يعمل في مصبغة فور إنتهاءه من عمله لمناقشة تقريره الفصلي .دعوته ليتناول العشاء معي في فناء المنزل .كان يشعر بالحرارة والإنهاك عند وصوله، لكنّه بدا مطمئنّا ومرتاحا، بعد أنْ أكلنا.

قال وهو ينظر متعجّبا" :يا إلهي، إنّه منظر رائع هناك .أتمنّى لو أستطيع وضع تلك المرشّة ليوم واحد فقط على أشجار الدردار الصينية في فناء منزلنا .اعتادت أمّي حملَ الماء لريّها طوال سنين وقد أصبحت بهيّة المنظر فعلا."

في أحدٍ من آحاد شهر أيار زارتني لورا أوبيرغ، زميلتي القديمة في الكلّية، والتي كانت قد تزوّجت وأقامت في الجزء الغربي من الولاية، ومعها زوجها وطفلاها .كان كلير، وهو ابنها الصغير، قد ولِدَ بعد بدء موسم الجفاف، الذي قضى بالكامل تقريبا على الخضار في بلدتهم منذ ذلك الحين.

وفيما كنّا نحن الكبار مشغولين بالكلام جاء كلير إلى المنزل مسرعا وهو في غاية الإثارة، وقال بصوت عالٍ" :تخيّلي يا أمّي أنّ في فناء بورغيلد أعشاب، هل تسمعين يا أمّي؟ أعشاب، لديها أعشاب."

ثم التفت إليّ وسألني بأدب" :هل تسمحين لي بالدوس على أعشابكِ؟."

مع رفع المعايير التعليمية في الولاية، بات تطوير المدرّسين في المدارس الأهلية لمؤهّلاتهم التعليمية ضرورة متزايدة .بدأتُ في سنواتي الأولى في الكلّية بتدريس

مقرّرات إرشادية في الأمسيات لمنفعتهم الخاصّة .وواصلت تدريس هذه الصفوف الإرشادية في الكلّية لسنوات من دون أن أفكّر في الحصول على تعويض لقاء عملي هذا .فالصداقات التي أقمتها عنَتْ لي أكثر بكثير مما كان سيقدّمه لي المال . كان طلاّبي في تلك المقرّرات، عدا استثناءات قليلة، أشخاصا ناضجين سعدت كثيرا بهم؛ معلّمين بعضهم في مناصب تنفيذية؛ سيدات أعمال؛ ممرّضات، وبضعة زوجات طموحات.

سعيت أنا أيضا لتطوير مستواي التعليمي .لثلاثة أصياف متتالية، وفيما كانت دوروثي لا تزال تدرّس في الكلّية، قدنا، أنا وهي، سيارتنا شرقا لتلقّي مقرّرات صيفية في جامعة كولومبيا .عنت لي رحلاتي تلك مع دوروثي الكثير، كونها كانت متفهمة مشكلة عينَيّ وساعدتني بطرق لا تُحصى عندما كنت أحاول رؤية الأشياء.

وفي إحدى السنوات مُنحتُ وأستاذان جامعيان آخران في الكلّية إجازة مدفوعة التكاليف لمواصلة دراساتنا العليا .كنتُ قد سُعدتُ كثيرا بالمنحتين اللتَين نلتهما سابقا، لكنّ هذه المنحة عنت لي ما هو أهمّ بكثير من وجوه عدة .فقد نجحتُ كأستاذة جامعية، وصرتُ أعيش حياة كريمة كأيّ رجل أو امرأة في الوسط الأكاديمي.

خطّطتُ لأمضي السنة في الدراسة في جامعة كولومبيا بنيويورك، وأجّرتُ منزلي في سيوكس فولز وبتّ مستعدّة للذهاب، ثمّ عندها تلقيت صدمة .بعثت لي إدارة الكلّية رسالة فحواها أنّ باستطاعتها تقديم منحتين فقط، وأنّهما ستُخصَّصان للرجلَين اللذَين مُنحا معي الإجازة المدفوعة.

كنت فخورة جدا بإجازتي المدفوعة وبمنحتي .لقد كان المالُ يعني لي الكثير، لكنّ الاعتراف بجهودي كان يعني لي ما هو أكثر من ذلك .ثمّ عاد الجرح المألوف القديم الذي في داخلي يؤلمني من جديد، أجل ...افترضتُ كالمعتاد أنّ خلاصة المسألة برمّتها تكمن في عينَيّ.

قرّرتُ بعد تلك الحادثة أن أذهب إلى أماكن العمل وأنا أحمل شهادة الدكتوراه . إذا كانت لعينَيّ أيّ علاقة بتغيير إدارة الكلّية رأيها، فسأبرهن لهم أنّ ما أستطيع إنجازه لا يقلّ عن إنجازات أيّ شخص سليم العينين .وإذا كان جنسي كامرأة أمرا ليسَ في صالحي، فسأُثبت أنّ جنسي لا يمكن الاستهانة به أيضا، وسأحشو نفسي بالمعرفة بالمعنى الحرفي للكلمة.

عقب قدومي إلى جامعة كولومبيا ذهبتُ إلى مكتب الدكتور رايت لإعداد ترتيبات الامتحانات التي سأخضع لها باللغتين الألمانية والفرنسية .كان شخصا دمِثا، وجلسنا نتكلم بصفة غير رسمية مدّة من الزمن .وفي سياق المحادثة بدأ يتحدّث إليّ بالألمانية، ثم حوّل إلى الفرنسية .فبادلته الحديث بكلتا اللغتين .وبعد أن استمرّت الحال على هذا النحو مدّة من الزمن قلتُ إنّني أودّ إعداد ترتيبات لموعد محدّد للخضوع للامتحانات.

ابتسم الدكتور وايت وقال«vous avez passé les deux examinations» :. وأضاف" :لا يساورنا قلق حيال أشخاص يجيدون التحدّث بالألمانية والفرنسية مثلك."

لكنّني لم أُبلِ بلاء حسنا باللغة اللاتينية .عندما خضعت لهذا الإختبار كان عليّ القيام بالترجمة من كتاب، وكنت متوترة ومحرَجة لأنّه تعيّن عليّ إلصاق الكتاب

بوجهي .بدت لي الحروف على الصفحات متداخلة، وغاب عنّي باستمرار الموضع الذي كنت أصل إليه .لقد نجحت في الامتحان، لكنّني لم أكنْ مسرورة بالإنطباع الذي تركته.

وبُعَيد إنتهائي من هذه الامتحانات وصلني بيان مكتوب يُبلغني أنّني انتُخبت لعضوية اتحاد خرّيجي اللغة الإنكليزية بجامعة كولومبيا، وهي جمعية الشرف للطلبة الذين ينالون عملا متقدّما في الإنجليزية ضمن الدراسات العليا هناك.

جلستُ وبكيت من شدّة فرحي، فقد كان هذا التكريم غير المتوقّع أكثر من تعويض عن خيبة أملي السابقة.

خلال تلك السنة بذلتُ قصارى جهدي، وإنْ بلا درايةٍ، في الإنتحار حبّا بالقراءة . منذ الساعة السادسة صباحا وحتى الثالثة صباح اليوم التالي في أيام الأحد والعطل، عكفت على الكتب كما لو أنني فقدت صوابي .استكثرتُ الوقت الذي كان يتطلّبه الاستحمام وغسل جواربي وملابسي التحتية كلّ صباحٍ عند الساعة الثالثة .أمسيتُ عديمة الصبر إن كان عليّ الوقوف في طابور الكافتيريا.

أمضيتُ أيام نهاية الأسبوع مع دوروثي في نيوجرسي .كان تبديل قطار الأنفاق أسفل هادسون إلى قطار أنفاق برودواي بعد أن أغادر هوبوكِن مُربكا بعض الشيء في البداية .قبل أن اعتاد الطريقَ سمحتُ لنفسي بأن أتوه مدّة نصف ساعة إضافية هناك .لكن حتّى هذه التجربة منحتني قدرا من الإحساس بالاستقلالية، فلطالما تمكّنت من الخروج من المتاهة والعثور على المخرج الذي يحمل العنوان": برودواي ساب واي ."وبعد ذلك كان يمكنني العثور بسهولة على طريقي عبر الممرّ الضيّق المؤدّي إلى المحطّة في شارع كورتْلاندت ستريت .وما أنْ

أكون على متنِ القطار، فإنّ كلّ ما كان يلزمني فعله هو إحصاء عدد مرّات التوقّف في السكة المحلّية أولا ثمّ في السكة السريعة إلى أن أصل إلى شارع116 ، حيث توجد جامعة كولومبيا.

بات استعمال المواصلات للوصول إلى نيوجرسي أمرا يسيرا بمرور أيام تلك السنة إلى حدّ أنّ المحطّات في هوبوكِن ودوفر، والقطارات، ومركبات الأنفاق أضحت بالنسبة لي غرف دراسة .لم أعبأ بمن يراني أضع الكتاب قريبا من وجهي لأنّ لم يكن أحد يعرفني، كما أنّه لم يكن في ذهني غير فكرة واحدة؛ وهي أن أشقّ طريقي في عملي بالجامعة.

لم يكن لهذا السلوك الجنوني غير عاقبة واحدة بالطبع، فقد أُصبتُ بانهيار عصبي، حدث ذلك يوم خضوعي للامتحانات الشفهية.

وبالنتيجة، لم أنل شهادة الدكتوراه .لقد احتجتُ إلى ستّة شهور من الرعاية والحنان من جانب دوروثي أولا، ثمّ من خالي إينوش والعمة إليزابيث، لأستردّ صحتي من جديد.

بعد أن تعافيت، عدت إلى العمل في سيوكس فولز.

فرحتُ بالتدريس مجدّدا، لأنّني شعرت أنّني نافعة .وبدا لي أن يكون المرء منشغلا ونافعا أمرٌ يعدّ من النعم العظيمة التي يمكن لأيّ كان الاستمتاع بها.

الفصل الثامن

ينظر أغلب الناس ممّن هم في منتصف العمر إلى سنة مُعيّنة من حياتهم بوصفها أكثر السنوات تميّزا .إنّها تلك السنة التي تسير فيها أحوالهم على أحسن ما يرام، إلى حدّ أن أغنية براونينغ" الله في ملكوته :كلّ شيءٍ على ما يرام في العالم" تبدو وكأنّها قد كُتبت خصّيصا لهم.

مثل هذا الوصف ينطبق على السنة الدراسية 1938-1939 بالنسبة لي .لا يتعلّق الأمر بكون الحوادث في ذاتها عظيمة، ولكن بإحساسي آنذاك بأنّي قد عثرت على كنز بعد وقت طويل.

كان وضعي المالي أفضل مما كان في أيّ وقت مضى .كلّ منصب جديد تقلّدته عنى دائما زيادة كبيرة في الراتب .بالإضافة إلى ذلك، كنتُ أجنَي في الكلّية مالا إضافيا من التدريس تسعة أسابيع في مدرسة صيفية كلّ سنة؛ وكنتُ، في الآونةِ الأخيرة، أتقاضى أجرا عن عملي في الصفوف المسائية خلال فصل الشتاء .وإجمالا، ناهز دَخْلي وقتذاك خمسة أمثال دخلي حين بدأت مسيرتي المهنية كمدرّسة.

كنت في وضع جسدي مريح على نحو مثالي .كان بيتي الصغير الذي لم يبقَ عليه سوى رهن صغير مجهزا أحسن تجهيز .كانَت دوروثي قد إبتاعت تجهيزات كهربائية مثل ثلاّجة، ومكنسة للسجّاد، وغسّالة، وكنتُ مؤخرا قد اشتريتُ فرنا كهربائيا مجهزا بمؤقت، ليتسنى لي وضع عشائي فيه عند ذهابي إلى الكلّية ظهرا، وأجده جاهزا للتقديم حين عودتي .كنا أنا ودوروثي قد أهدينا إحدانا الأخرى، ساعة كهربائية ذات دقّات ويستمنستر، وقد عنى لي ذلك الكثير لأنّني احتجت إلى

الاقتراب من الساعات الأخرى لأعرف الوقت .وأضفنا كلّ سنة أداة تسهّل علينا حياتنا إلى أن أصبحت أعمالي المنزلية سهلة كلعب الأطفال.

صنعت زركشة على قماش الكتّان لمجموعة من فوط المائدة ولغطاء المائدة الكبير أيضا .كان ذلك مصدر سعادة غامرة لي .لم يكن علي أن أقلق بعد الآن حيال أن تمنعني عيناي من فعل كلّ ما كنتُ أعزم على فعله.

أخيرا انتهى موسم الجفاف في ساوث داكوتا، وفعل المطر الأعاجيب في فناء منزلنا .لقد بلغت الأشجار والأعشاب مرحلة تطلّبت فيها أدنى قدر من الرعاية، وهي رعاية استطعت تقديمها قبل أن أذهب إلى عملي في الصباح.

كان العمل المدرسي سلسا وسهلا .لقد مضى على اشتغالي في التدريس زمن طويل جدّا) خمسة وعشرون سنة بوجه عام (إلى حدّ أنّني كنتُ قد جمعت قدرا كبيرا من المعلومات التي حفظتها عن ظهر قلب، وكان بإستطاعتي استخدامها بشكل مرتجل في التدريس .أتيحت لي أوقات فراغ تكفي لقراءة المزيد من المعلومات وخزنها للمستقبل .لقد كان أمناء المكتبات في الكلّية يحجزون كل الكتب المرجعية المذكورة في اللوائح التي كنتُ أعدّها من أجل حصصي الدراسيّة، وأقوم بتسلّيمها لهم مع بداية كل فصل دراسي، وكانوا هم يؤمّنون لي أيّ كتب كنتُ بحاجة إليها لاستخدامي الخاص.

باتت مكتبتي الخاصّة تضمّ الآن أكثر من ألف مجلّد .وصارت هوايتي جمع أنواع معيّنة من الكتب؛ مثل :مجموعة مؤلّفات شكسبير التي ضاهت أي مجموعة مماثلة في المدينة، وبات لديّ موادّ مرجعية ضخمة في الصحافة، والرواية، والقصّة القصيرة، وتاريخ الأدبين الإنكليزي والأميركي، وافتخرتُ بمجموعة كتبي

النرويجية الأميركية، وبكتبي التي وقّع عليها أصحابها وطبعاتها الأولى .وعلى مدى عشر سنين جمعت قصاصات صحافية وصنّفتُها مؤخرا في مغلّفات موسومة بعناية في حقيبة خاصّة.

أحسستُ لأوّل مرّة في حياتي أنّه بإمكاني تدبّر أموري على صعيد مظهري الشخصي .لم أعد أقلق من الندب البسيط على عيني اليسرى، ومن الفارق في الحجم بين عينَيّ .صار في وسعي الآن تحمل التكاليف اللازمة لجعل هندامي أفضل من ذي قبل، وكان منصبي في الكلّية يقتضى ذلك .أصبح لي موعد دائم عند صالون تجميل عرفتني إليه الفتيات، وافتخرن بجعلي أبدو حسنة المظهر . وفي المناسبات الخاصّة عندما أتحدّث أمام جمهور كبير حرصتْ أولغا مور، وهي واحدة من أعزّ صديقاتي في المدينة، على المجيء لمساعدتي في وضع مساحيق التجميل والتأكد من أنّ كل شيء على ما يرام.

إن نجاحي كمدرّسة ومتحدّثة- عامّة-منحني الرصانة والثقة بالنفس، وهما صفتان قيّمتان بالنسبة لي حين كنتُ ألتقي بالناس .لقد أقمتُ صداقات رائعة كثيرة في المدينة وفي مختلف أرجاء الولاية .وكانت تصلني رسائل بريدية بشكل شبه يومي من طلاّب سابقين .أعرب بعضهم فيها عن تقديرهم لما أدّيته لهم كمدرّسة، وأشاروا إلى تطبيقهم للفلسفة التي كنت أعبّر عنها في الصف :إنّ كلّ عمل مخلص هو عملٌ يستحقّ الجهد، وله أن يكون موضع إجلال إذا ما بذلت أفضل ما لديك في تأديتِه.

كان قد مضى على عملي في الكلّية ثلاث عشرة سنة، وفي هذا الوقت تحوّلتْ الكلّية من مؤسّسة متعثّرة إلى أحد أهمّ الصروح في الولاية.

كانت حياتي حافلة، وبدت لي ممتعة للغاية .على الرغم من إنّني لم أكنْ أعي إلّا بشكل طفيف بأنّ هناك مشكلة ما، وكنتُ أقلّ استعدادا للاعتراف بذلك، إلّا إنّه خطر على بالي، مع ذلك، بأنّي لم أكن أرى كما ينبغي لي.

في كلّ مرّة يقدم فيها شخص للعب الورق، كنت أضع على الطاولة مصباحَي قراءة كبيرَين لأنّي كنت أخلط بين الكبّة والديناري، وبين البستوني والسباتي .وفي زفاف اثنين من طلاّبي السابقين ساءني الظنّ بأنّ العروس بدّدت قيمة زينتها وزينة الحاضرين في كنيسة مُعتمة للغاية إلى درجة لم يتمكن أحد معها من مشاهدة حفل الزفاف، سواء في أثناء السير في الممرّ أو بعد التوقّف عند المذبح .ولم أفهم أيضا سبب شدّة ضعف الإنارة في بيوت الناس.

نفضت الغبار عن الأثاث ثلاث وأربع مرّات بشكل متعاقب في يوم التنظيف للتأكّد فقط من أنْ لا يعتقد أيّ زائر يقدم فجأة بأنّ بصري لا يمكّنني من تنظيف الأثاث بشكلٍ جيد .ولمتُ نفسي على إهمالي عندما كانت الشراشف تعلق في الغسّالة، وتغدو ممزقة إلى حدّ أنّه لا يمكنُ استعمالها ثانية بعد ذلك .وقلت في نفسي أنّه ليس من المنطقي أن أكون على عجلة من أمري دائما إلى حدّ إيقاع زجاجات الكريما في البرّاد، ووبّخت نفسي لتركي شراريب القماش في الممرّات وحول الأشجار في الفناء، قائلةً لنفسي بأنّي حتما أتكاسل إذ إنّ العمل هناك كان سهلا للغاية .لكنّي أحسستُ بمزاج أفضل حيال ذلك، عندما منحت حديقة منزلنا المرتبة الأولى في مسابقة أجمل حدائق المدينة.

مع أنّني لم أكن لأعترف، حتى لنفسي، أنّ يكون لهذه الأمور أيّ صلة ببصري، إلّا إنّي كتبت رسالة لتحديد موعد مع الدكتور بنيديكت والدكتور برانْغين في عيادة

مايو بروشستر ليوم السبت الذي يلي اختتام فصل الصيف في الكلّية .ذلك كان يُصادف الخامس من آب.

انتهت الحصّة الأخيرة في الساعة العاشرة والنصف صباحا .كنتُ قد حظيتُ بمجموعة رائعة من الفتيان للعمل معهم، ولقد بعثَ توديعهم في نفسي شعورا بالوحدة .آخر ما قمت به قبل مغادرة المبنى كان توقيع عدّة نسخ من كتاب Glimpses of Norway، وكان الطلبة قد أحضروها معهم لأوقّع عليها .كان ذلك هو الكتاب الصغير الذي كتبته عن إقامتي بالنرويج أثناء دراستي ضمن الجمعية الأميركية الإسكندنافية.

بدا النهار في الخارج مثاليا .كانت هنالك في الهواء مسحة خريف مبكر، ربّما بسبب رائحة الحبوب الناضجة والجافّة والأرض المحروثة منذ فلاحتها في الخريف الماضي .وفيما كنّا نقود السيارة عبر جنوبي مينيسوتا قلت ودوروثي إنّنا لم نكن لنتمتّع بطقس أروع من هذا حتى ولو تمنّيناه .كنا مبتهجتين لقرب حلول إجازتنا القصيرة قبل أن تفتح الكلّية أبوابها مجدّدا.

توجّهنا إلى هارموني أوّلا لزيارة عائلة سيم، وقد رافقتنا صباح يوم السبت إلى روشستر .كنّا نُعدّ ليوم عطلة حقيقي .أعدت السيدة سيم سلّة غداء وعزمنا على القيام بنزهة في المنتزه وقت الظهيرة .كان موعدي في عيادة مايو الساعة التاسعة، وتوقّعت أن أنتهي من كل فحوصات الطبيبَين قبل وقت طويل من وقت ذهابنا إلى المنتزه .لكن إذا قرّرا أنّي بحاجة إلى نظّارة جديدة فيمكننا تأجيل النزهة إلى وقت العصر .كان لدينا اليوم بأكمله لنقضي أوقاتا مسلّية معا.

ثمّ حدثت الصدمة.

"عندما تجدين بأنّكِ فقدتِ بصرك تماما، عودي إلينا، وسنرى ما الذي يمكننا فعله من أجلك."

لم أكن متأكّدة آنذاك من أنْ أكون قد سمعت على الوجه الصحيح ما قاله الطبيب بنيديكت .لم أستطع تصديق أذنَيّ .كان معنى كلماته مرعبا للغاية.

قلتُ بصوت مرتجف" :ما مدى سوء حالتي؟ أنت لست مضطرا إلى إخفاء الحقيقة عنّي، أنا لست طفلة."

"كلا، أنتِ لستِ طفلة، فأنا أعرفكِ منذ مدة طويلة تكفي لجعلي أنْ لا أنظر إليك على هذا النحو."

كاد قلبي يتوقّف عن الخفقان، لكنّني حافظت بصعوبة على رباطة جأشي.

سألته" :هل تحاول إخباري أنّني أفقد بصري؟."

وزن الدكتور بنيديكت إجابته بعناية» :عودي إلى منزلكِ في سيوكس فولز«، قال بتمهل،» ورتّبي أوضاعكِ هناك.«

نظرتُ إليه نظرة تساؤل.

ومضى في حديثه قائلا" :بصرف النظر عمّا سيحصل، أنا متأكّد من أنّكِ ستتحلَّين بالشجاعة الكافية لتواصلي حياتك."

"يا دكتور بنيديكت، هل تريد أن تقول إنّني سأصبح مكفوفة بالكامل؟."

مجدّدا اختار الدكتور بنيديكت كلماته بكثير من التدبّر وقال لي" :هناك إعتام في عينك، ويتعيّن إزالته، وهذه عملية تكتنفها أخطار كبيرة .عندماأ بدأ بإجراء الجراحة لعينك، لا يمكن التكهن بما قد أجده فيها، أو بما قد يخرج من عينك عند إزالة الإعتام."

"ألن أكون قادرة على الرؤية مطلقا؟."

كنت جالسة في مكتب الدكتور برانْغين في الكرسيّ الذي اعتدت على الجلوس فيه عند تزويدي بالنظّارات، وكان الدكتور بنيديكت والدكتور برانْغين وطبيب آخر لم أعرفه واقفين بقربي.

»آمل أن لا يسلبها الله نظرها.«

كان الدكتور برانْغين هو من تحدث .لكنّ صوته تغيّر كثيرا إلى حدّ أنّي بالكاد ميّزته.

حاولتُ أن أستجمع قواي .يجب أنْ لا أصاب بالإغماء أو أذرف الدموع أو أبدأ بالصراخ، فإذا فعلت سيصعب التكهّن بما قد يحدث .لم يكن هناك ما هو بطوليّ في سلوك السيطرة على النفس هذا .لكنّي كنت مصعوقة جدّا إلى درجة أنّي لم أكن أدرك ما الذي كان يجري لي .وربّما كان اعتيادي منذ طفولتي على إخفاء أحاسيسي الحقيقية، هو السبب الذي كان يمنعني من إظهار شدّة خوفي لهؤلاء السادة الثلاثة.

قلتُ وأنا ألتفت إلى الدكتور بنيديكت والدكتور برانْغين" :إذا كانت هذه آخر مرّة أراكما فيها، فيجدر بي إلقاء نظرة جيدة عليكما."

حدّقتُ في وجهي هذين الجرّاحَين العظيمَين اللذَين كانا طوال السنوات العشرين الماضية فاعليّ خير وصديقَين لي.

أُخضعت عيني لبعض الفحوص الإضافية، وقال الدكتور بنيديكت للدكتور برانْغين بصوت خافت للغاية" :لن يطول الأمر كثيرا"، لكنّني بحكم يقظتي اتجاه ما يجري سمعتُ ما قاله.

انهارت أعصابي بالكامل بعد هذه الملاحظة إلى حدّ أنّني لم أعِ ما حصل في أثناء الجزء الأخير من الاستشارة .ما فهمته هو أنّ عليّ العودة إلى منزلي والانتظار إلى أنْ أصبح عاجزة عن الرؤية تماما .وتولّد لديّ انطباع بأنّ ذلك سيحصل في وقت ما في فصل الخريف.

ذهبنا في نزهتنا، ثمّ عدنا بالسيارة إلى وسط البلدة لأنّ آنّا سيم وأمّها أرادتا شراء بعض الحاجات .فقلتُ إنّي أفضّل البقاء في السيارة لمعاناتي من صداع، وما أن همّت دوروثي بالذهاب مع سيم حتّى غيّرت رأيها فجأة وعادت إليّ.

قلتُ عندما أصبحنا وحدنا" :يا دوروثي ...قال لي الدكتور بنيديكت إنّني أفقد بصري، وإنّني بعد وقت وجيز لن أتمكّن من الرؤية مطلقا."

"أوه، بورغيلد"، كان هذا كلّ ما استطاعت قوله.

لكنّ بكاءنا قبل عودة سيم خفّف عنّا بعض الشيء، وضعت دوروثي على وجهي المساحيق عندما رأتهما قادمتين إلينا كي لا تلْحظا وجود خطب ما.

وفي أثناء الأيام والليالي التالية لم أستطع التفكير في شيء عدا أنّ بصري يزداد ضعفا، فسألتُ نفسي :في أيّ حالٍ سأكون وأنا أتلمّس ما حولي في الظلام؟

عندما كنت فتاة صغيرة كنت أخاف الظلام، واعتادت أمّي أن تترك النور مضاء كي لا أفزع حين أستيقظ .لكنّني تغلّبتُ على هذا الخوف بعد أن كبرت .رغبتُ في الصراخ حين أغمضت عيني وشعرتُ بالعتمة حولي.

ثمّ رأيت حلما في إحدى الليالي، رأيت أمّي في المنام، كانت جالسة بقربي على أريكة خضراء في المنتزه الصغير أمام الشارع المقابل لمنزلنا القديم في مينيبوليس .كانت محنية الرأس قليلا، وهي تخيط قماشا ناعما أزرق اللون .جلستُ أراقبها من دون أن أتحرّك، لأنّي لم أكن متأكّدة إنْ كانت قد أحسّت بوجودي .عزمتُ على إخبارها في الحال عندما ستنظر إليّ .ولاحت في عينيها أجمل تعابير الحبّ التي رأيتها في حياتي، ولم يسبق أن نظرت إليّ أمّي على هذا النحو، حتى عندما كانت على قيد الحياة!

قالت وهي تنتقي الكلمات التي كانت تستخدمها غالبا حين تريد تشجيعي، لا سيما بعد أن كبرتُ بما يكفي لأفهم ما كانت تقوله لي" :أتعرفين ...يتعيّن على الأشخاص أمثالنا، أولئك الذين لا يمكنهم أنْ يبصروا بشكلٍ جيد كالآخرين، أن يتجرّؤوا على فعل بعض الأمور، ويتعيّن علينا التحلّي بالصبر والاستعداد للعمل بجدّ أكثر ممّن لديه بصر أقوى من بصرنا، ويجب علينا الإيمان بأنّنا قادرون على فعل ما ننوي القيام به، وبعد ذلك إذا استحضرنا هذا الكلام في أذهاننا، لن يكون الإخفاق مصيرنا."

لمستْ خدّي برفق وقبّلتني كما كانت تفعل متى لجأتُ إليها لتسلّيني بعد أن يدلي شخص ما بملاحظة طائشة حول عينَيّ ويجرح أحاسيسي الطفولية .كانت تبدو في عينيها الآن تعابير العطف ذاتها التي طالما رأيتها عندما كانت تنظر إليّ في السنين الخوالي.

بعد أن استيقظتُ وعرفتُ أنّني في سريري وفي الظلام، بقيت أستشعر لمسة يدها الرقيقة.

قلتُ بصوت عالٍ" :أجل، لكن كان ذلك عندما كنتُ قادرة على الرؤية ."بدا لي حضورها حقيقيا للغاية إلى حدّ أنّني واصلت التحدّث إليها مع أنّني عرفتُ أنّه حلم" :هناك فرق شاسع بين امتلاك القدرة على الرؤية، على محدوديتها، وبين محاولة العيش في الظلام."

تمدّدت في السرير ولم أستطع النوم مجدّدا، واصلتُ التفكير في أمّي وبكيت على وسادتي بهدوء، صحيح أنّني امرأة راشدة الآن، لكنّ حاجتي إلى أمّي الآن أكبر من حاجتي إليها وأنا فتاة صغيرة.

استعرضتُ ودوروثي بدقّة زيارتي إلى عيادة مايو .لقد حاولتُ أن أتذكّر ما جرى بالضبط في أثناء تشاوري مع الطبيبين هناك .الجزء الأول من المقابلة كان واضحا تماما، لكن عندما أوشكت المقابلة على الانتهاء كنت شديدة التوتّر إلى حدّ أنّ الجزء الأخير منها لم يعد غير ذكرى مشوَّشة.

فقدتْ عيني السليمة القدرة على الإبصار بالكامل تقريبا لإعتام العدسة فيها . كنت متأكّدة من ذلك تماما، والندوب الكثيفة التي على هذه العين جعلت إزالة

الإعتام عملية بالغة الخطورة، والواضح أنّ الدكتور بنيديكت تخوّف من مضاعفات أخرى أيضا .هذا هو فحوى كلامه عندما قال لي إنّه لا يعرف ما الذي قد يجده بعد أن يشرع في العملية .لا ريب بأنّ حظوظي في الرؤية بعد ذهاب نورها بالكامل ليست كبيرة.

كان لا بدّ من مرحلة انتظار قبل أن تصبح عيني جاهزة للعملية، وفي أثناء هذا الوقت ستتلاشى بالتدريج القدرة الضئيلة على الإبصار .سبق وأن قال الدكتور بنيديكت شيئا عن حاجته إلى شدّ أعصابه لإجراء العملية، وكنتُ أدرك أنّه كان يخشاها .كما كانت هناك مسألة كيفية شفاء العين بعد العملية .والراجح أنّه كان سيلزمني إجراء عمليتين أو ثلاث عمليات إذا تكلّلت الأولى بالنجاح.

بعد أن تباحثتُ ودوروثي في المسألة، واتّضحت لي الأمور التي تنتظرني، أحسست بقدر من الارتياح .وقلتُ لنفسي، أنّه بصرف النظر عن مدى سوء وضعي، فإن النحيب لن يجعله أفضل.

حاولتُ التفكير في شيء يمكنني فعله لأشغل عقلي عن مشكلاتي .ففي النهاية أنا لست الشخص الوحيد في العالم الذي قد تحتّم عليه مواجهة العمى .وكنت أعرف بأنّ هناك أشخاصا كانوا قد واجهوا الفاجعة الحقيقية بشجاعة وجلد، وعاشوا حياة نافعة.

لكن ما هو الشيء الذي أمكنني فعله؟ كيف كان يفترض بي أن أواصل حياتي بحسب ما قال الدكتور بنيديكت بأنّه على يقين من ذلك؟

لماذا التفكير، بالطبع !عليّ الرجوع إلى مؤلّفاتي .غريب أنّي لم أفكّر في هذا الأمر من قبل .ربّما كان هذا هو الوقت المناسب تماما لأحّقق طموح حياتي .كنت أعمل بجدّ طوال الصيف على كتابة رواية نرويجية أميركية، لكنّني لم أفكّر في جعل العملية حرفة .كان قد تعيّن عليّ الكتابة في أوقات العصر بعد فراغي من عملي في الكلّية، وعندما كنتُ أبدأ الكتابة أكون منهكة دائما .مهنة الكتابة ليست سهلة أبدا.

المسودّة التقريبية الأولى لروايتي كانت قد شارفت على النهاية تقريبا .وكانت هازِل ثورن، إحدى الطالبات اللاتي يدرسن لديّ مقرّرات إرشادية، قد عرضت عليّ عرضها السخيّ بأنّ تطبعها لي، أسوة بفيوليت باكين، وهي واحدة من طالباتي أيضا، والتي كانت قد طبعت لي .Glimpses of Norway بقي عليّ الآن إكمال تلك المسودّة الأولى في الحال ليتسنّى لهازِل طباعتها.

لكن إذا فقدت بصري لن يجدي نفعا الاعتماد على الآخرين في الطباعة على المدى الطويل .عليّ أنّ أتعلّم كيفية الكتابة على الآلة الطابعة بنفسي.

حسن، سأبدأ في الحال.

قرّرتُ أولا حفظ حروف لوحة المفاتيح.

“z x c v b” بأصابع اليد اليسرى .و ”n m” والفاصلة والنقطة والخط المائل “ بأصابع اليد اليمنى .هذا بالنسبة إلى الصف السفلي، والآن، الصفّ الثاني.

«a s d f g» بيدي اليسرى»، و «h j k l» والفاصلة المنقوطة وعلامة السنت «باليد اليمنى.

بعد أن تعلّمت طباعة هذه الحروف بحيث أمكنني تكرارها بلا تردّد .عملتُ على الصفّ العلوي من لوحة المفاتيح .ثمّ جاء دور المفاتيح الإضافية على الجانبين، والبدائل المحتملة باستخدام مفتاح shift في الكتابة والعلامات الخاصة بالأعداد وعلامات التنقيط .استعرضت هذه التفاصيل المرّة تلو الأخرى وسعيت لحفظها في ذاكرتي.

بدأتُ بعد ذلك بوضع أصابعي في المواضع التي نصح بها كتاب تعليمات عثرت عليه .عرفت أنّ نظام اللمس على الآلة الكاتبة لا يقدّر بثمن بالنسبة إلى شخص أعمى .وفيما راجعت دروسي في الطباعة، تعجّبت من مدى إضاعتي لوقتي في ما مضى فيما كان بمقدوري أن أطلع عليها .لكنّني وضعتُ هذه الخاطرة جانبا في الحال لأنّ الحسرة على أخطاء ارتكبتها في الماضي لن تجدي نفعا الآن.

وبعد مدّة بدأت مثابرتي تُؤْتي ثمارها .كنت قادرة على تحديد مواضع المفاتيح من دون النظر إليها .وواصلت حفظ كلّ ما أمكنني التفكير فيه بشأن الآلة الطابعة . إذا ترسّخت هذه التقنيات جميعها في ذهني قبل أن أفقد بصري بشكلٍ تام، فسيكون بمقدوري التدرّب لاحقا .وستُنقذني حاسّة اللمس حينئذٍ .سأستخدم حاسّة البصر عند اللزوم ما بقيَت.

الفصل التاسع

بما أنّه كان يتوجب على دوروثي أنْ تعود إلى نيوجرسي للتدريس، قرّرت أن تصطحبني معها .وقررنا أن نخزّن أثاثنا ونؤجّر المنزل لأنّي وُعدت بالحصول على إذن بالغياب لمدّة سنة.

لم تكن مغادرة المكان الصغير أمرا سهلا، فلكلّ شيء في المنزل وفي فنائه، بشكلٍ ما، صلة وثيقة بحياتي خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية: الطاولة الصغيرة بجانب الأريكة، والمرآة في الحمّام، والمزهرية الخضراء التي أهدانيها أصدقاء كانوا قد أقاموا لي حفلة بُعَيد انتقالي إلى منزلي الجديد .وصنع لي والد أحد طلاّبي سلّما خشبيا نقّالا كان ثابتا بما يكفي لأجرؤ على صعوده للوصول إلى أغراض على الرفوف العلوية للخزانة .وكانت دوروثي قد حاكت زينة بساط الردهة وقدّمت لي لوحة المسيح لهوفان كهدية عيد ميلاد، وقد علّقتها في غرفة الجلوس.

لكنّ تركي لكتبي كان الأصعب، كلّ كتاب كانت له قصّة :اجتماعات مؤنِسة مع وكلاء بيع الكتب في الولاية؛ مراسلات بريدية ودّية متلازمة مع دور النشر؛ مراجعات للكتب أمام مجموعات مهتمّة من الرجال والنساء وعبر محطّة إذاعية؛ ندوات مع طلاّب أحضروا لي كتبا بعد ذلك لأنّه صدف أنّني أشرتُ إلى عزمي على شرائها، وقالوا إنّهم أرادوا أن يُظهروا لي تقديرهم لما كنت أحاول فعله من أجلهم؛ زيارات لمؤلّفين قدّموا لي نسخا من مؤلّفاتهم؛ وأسابيع من التخطيط والاستغناء عن شراء أشياء كي أتمكّن من شراء كتبا معيّنة، شعرتُ أنّه كان يتعيّن عليّ إمتلاكها.

سألتُ نفسي وأنا أجهز صندوقا بعد آخر من صناديق الكتب" :هل سأقرأ أيّا من هذه الكتب مرة أخرى؟."

بدا لي في اليوم الأخير أنّ الأشجار عاتبتني عندما ذهبتُ لأودّعها .شجرة الدردار الصينية التي كان فيها فرع أخضر واحد فقط على جذعها الطويل والهزيل والذابل خلال السنة الأولى تلك، كانت تُخيّم الآن على سقف المنزل بالكامل تقريبا .وأشجار التفّاح والإجاص التي قُطفت ثمارها الثقيلة مؤخّرا، والتي انبثقت فروعها عاليا في الهواء .الأشجار الدائمة الخضرة على جانبَي الفتحة التي تفصل جزأي الفناء وبلغ طول جذوعها وعرضها حدّا جعل أعاليها تلتقي وتشكّل قوسا، كنت أقف تحته.

قلت وأنا أبتلع ريقي بصعوبة" :سأحرص على أن يتكفّل أيّ شخص يأتي للإقامة هنا بأن يرويك بكثير من الماء."

عرّجتُ ودوروثي على روشستر في طريقنا نحو الشرق لإعداد الترتيبات النهائية لعمليتي الجراحية.

وفيما كنت أجلس في غرفة استشارات الدكتور بنيديكت أردتُ إفهامه بأنّي أدرك أنّه قد بذل كلّ جهد ممكن لعينَيّ بصرف النظر عمّا سيحصل لهما.

قلتُ له" :سأكون ممتنّة لك دائما، فقد جعلتَ منّي شخصا جديدا، وجعلت لي العالمَ مكانا رائعا للعيش فيه .منذ أن أجريت لعينَيّ العملية الجراحية قبل عشرين سنة، وأنا بمقدوري مخالطة الناس دون أن أتساءل عن رأيهم في عينَيّ

البشعتين .ليس هناك أحد عاش حياة مفعمة بالعمل والسعادة مثلي منذ ذلك الحين."

قال" :يمكننا جميعا أن نتعلّم منكِ شيئا."

واصلتُ كلامي وقلت" :في المرّة الأخيرة التي كنت فيها هنا، قلتُ لك بأنّي لستُ طفلة .لكنّ هذا ليس صحيحا .فقد بكيت ليل نهار على مدى أسابيع بعد عودتي من روشستر .لكنّي سأكون جندية جيدة من الآن فصاعدا .ولديّ إيمان كبير فيك يا دكتور بنيديكت إلى حدّ أنّك إذا قلتَ لي إنّ القفز في المحيط الأطلسي نافع لعينَيّ فسأقفز."

قال الدكتور بنيديكت إنّه سيبذل كلّ ما في وسعه لمساعدتي لأتمكّن من الإبصار. كان ينبغي أن أرجع إلى روشستر في مطلع تشرين الثاني، وأصرّت دوروثي على ملازمتي والمكوث معي في أثناء إقامتي في المستشفى، لكنّ الدكتور بنيديكت صرفها عن الفكرة قائلا إنّ في مجيئها معي نفقة لا داعي لها.

وقال" :يا بورغيلد، لديك في روشستر كثير من الأصدقاء الذين سيسعدون بفعل كلّ ما يستطيعون من أجلكِ، وإذا احتجنا إلى دوروثي، يمكننا طلب مجيئها لاحقا."

عندما تهيّأنا للمغادرة قلتُ للدكتور بنيديكت بأنّه ما يزال لديّ سؤال واحد أودّ أنْ أسأله إيّاه.

قال لي مشجّعا» :تفضّلي واسألي.«

"هل ستقلّ حظوظي في استعادة بصري إن عملتُ على كتابي؟."

أجابني" :لا يهمّ، طالما أنّ النور يدخل إلى عينك ويمكنكِ رؤية ما تفعلينه، ليس هناك من سبب يمنعكِ من العمل بقدر ما تشائين."

كان هذا باعثا على الارتياح .لأنّ زمن الانتظار في نيوجرسي سيمرّ بسرعة أكبر إذا كنتُ مشغولة.

كانت دوروثي قد إتخذت من بيتِ صديقاتها من آل توتن مكانا للإقامة لها طوال سنين أثناء مزاولتها التدريس في دوفِر بولاية نيوجرسي؛ لذلك عندما جئتُ معها أقمتُ هناك أيضا.

أصبحَت عملية إنهاءُ المسودّة الثانية للرواية، التي كنتُ قد شرعت فيها في الصيف، سباقا مع الزمن .وقد سعى جميع آل توتن لمساعدتي .كانت الجدّة فورس والخالة أليس على معرفةٍ بكلّ نواحي الحياة في المزارع خلال السبعينيات والثمانينيات، وبما أنّ وصف أوضاع الريف جزء من روايتي، فقد أسهمتا بتفاصيل كثيرة احتجتُ إلى معرفتها .كان ليو عاشقا كبيرا للخيول، وكان في وسعه الإجابة على أيّ أسئلة أطرحها عليه بشأنها .وكان يدهن الأعمال الخشبية في الطابق السفلي في الأسابيع الأولى التي قضيتها في منزلهم، وقد تحدّثنا معا طوال ساعات، وفي إحدى المرّات أخبرني قصّة عن جدَّيه وطلبتُ إذنه لاستخدامها.

قال" :بالتأكيد، لكنّ الحكاية قديمة وانقضى عليها زمن طويل، أتيحي لي فرصا أخرى للتحدّي والمشاركة في أي وقت."

كانت إستيل أكثر عاطفية، ونصائحها بشأن تطوير شخصياتي في أوضاع يكونون فيها غاضبين أو حزانىأو شديدي الانفعال كانت جيدة جدّا غالبا .في بعض الأحيان، عندما كنّا نعمل على مشهد كانت دموعنا تنهمر، ثمّ نضحك على تأثّرنا بعد ذلك.

كنتُ شغوفة بعملي إلى حدّ التعبير عن استيائي إذا صادفتُ ما يصرفني عنه فيما تكون الشمس ساطعة بما يمكنني من مطالعة الصفحات المطبوعة التي أرسلتها لي بأمانة هازِل ثورن عقب إنتهائها منها .لكنّ الغشاء الذي علا عيني نما بسرعة مخيفة، ولاحظتُ أنّ اليوم الذي أقضيه في العمل يقصر باطّراد مع كلّ أسبوع .وبحلول شهر تشرين الأول لم يعد بمقدوري الرؤية إلاّ حين تكون الشمس في كبد السماء ظهرا .ومن حسن حظّي أنّ السماء في دوفِر كانت قليلة الغيوم.

وفي أحد الأيام وجدتُ نفسي أكتب على صفحة مخطوطة طبعتها هازِل أصلا، وعرفتُ عندئذٍ أنّ لا طائل من مواصلة العمل على روايتي بعد الآن.

مرّ الوقت ببطء بعد أن عجزت عن الرؤية لأكتب، إذ لم يتبقَ لي ما أفعله، سوى أشياء قليلة جدّا .أمضيتُ ساعات كثيرة كلّ يوم في المشي .كانت البلدة تقع في أحد الجبال، وكان الكثير من شوارعها شديد الانحدار، لكنّني تدبّرتُ أموري بالتأنّي الشديد.

اعتادت كوكو، كلبة الجدّة فورس وهي من نوع تشاو، على مرافقتي في المشي . كانت تنتظرني في الردهة الأمامية، وإذا تأخرتُ في تهيئة مظهري كانت تصعد السلالم بحثا عنّي .لم تكن قادرة في البداية على مقاومة السير في طريق ملتوية

وضيّقة في أرض كثيفة الأشجار تقع في الجوار، لكن مع اشتداد ضعف بصري بدا أنّها أحسّت بذلك ولم تعد تبتعد عنّي.

أحببتُ المشي في الدروب ذات الحجارة البيضاء المفتّتة في مقبرة أورشارد ستريت لسهولة رؤيتها ولاستواء أراضيها .لكنّ كوكو لم تكن تستطيع الدخول إلى المقبرة، واعترضت مهتاجة في النهاية على ذهابي إلى هناك من دونها، فلم أعد أفعل أيضا.

إنّ موقف كوكو المتعاطف والمسؤول اتجاهي جعلني أعدل عن رأيي حيال الكلاب المخصَّصة للمكفوفين .كان يتم تدريبها في موريسْتاون بالقرب من دوفر، وكنتُ أراها غالبا وهي تقود أصحابها المكفوفين في الشوارع .كنتُ أرتعد فيما مضى من رؤية هذه الكلاب، لكنّني عرفتُ الآن مدى قيمتها بالنسبة إلى شخص أعمى.

قرّرتُ شراء أحد هذه الكلاب إذا لم أستعد بصري بعد العملية .بل وفكرت في زيارة المكان الذي تُدرَّب فيه لأحصل على بعض المعلومات مسبقا .لكنّي وجدتُ نفسي غير مستعدّة لذلك بعد.

كنت بحاجة لأن أكون قوية استعدادا لما ينتظرني، ولذلك قمت ببعض التمارين الرياضية في غرفتي .ثمّ سمعت صوتا مشجّعا يدعوني إلى الانضمام إلى درس الجمباز الذي يقدَّم عبر الأثير كلّ صباح، وظننتُ أنّ الأمر سيكون مشوّقا أنْ أعرف مدى إستفادتي من إرشاداته .كان الذهاب إلى المدرسة عبر أثير محطّة إذاعية يمثل تجربة جديدة.

إنّ شخصية المدرّب المرحة والمثابرة جعلتني في وقت وجيز أتّبع تعليماته كما لو أنّ حياتي معتمدة على موافقته .حنيتُ جسدي وقمتُ بمطّه، حرّكت رِجلَيّ ووازنتُ

نفسي وأنا واقفة على قدم واحدة وممسكة بالأخرى في الهواء .تمدّدتُ على ظهري ورفعتُ رِجلَيّ عاليا فوق رأسي إلى حدّ أنّني كدت أنقلب إلى الوراء .جلستُ على الأرضية ولمستُ برؤوس أصابعي إبهامَي رِجلَيّ، ثمّ بجعل كفلي بمثابة محور، أرجحتُ جسدي مثلَ مهزّة مهد قديم .وفي بعض الأحيان كنت أقع على الأرضية بقوّة إلى حدّ كنتُ أخشى فيه على الجصّ المركّب أسفل السقف في غرفة الطعام في الطابق السفلي.

كان المدرّب يلاطف ويغنّي ويصرخ، وكان ينوّع حركاتنا .وكنتُ أنا ألهث وأشهق وأعرق مع بقيّة زملائي غير المرئيين .وإذا ما حاولت أن أستريح للحظة واحدة لألتقط أنفاسي، كان المدرّب يستشعر ذلك بحاسّته الراديوية السابعة ويعيدني إلى التمرين وأنا أقفز على وقْع إيقاع الموسيقا التي تُبثُّ عبر الأثير.

أخيرا عندما أصبحتُ منهكة بالكامل، تهالكتُ على السرير ونعتُّ نفسي بأسخف السخفاء لأنّي كنت أقفز كمُهْر صغير، وكان مدرّبنا يقرأ دائما رسائل تتضمن شهادات من متابعين ممتنّين يصفون التغيّرات المذهلة التي نفعتهم بها تمارينه . وعلى الفور نسيت كلّ النعوت التي قد أطلقتُها على نفسي وبدأتُ أفكّر فيما ينبغي لنا عمله في الحصة التدريبيّة خلال اليوم التالي.

أجمعَ الناس، الذين قضوا كلّ حياتِهم في نيوجرسي، على أنّهم لم يروا طوال حياتهم شهري أيلول وتشرين الأول بهذا القدر من المثالية .كنتُ أشعر بأشعّة الشمس الدافئة، وأدركُ أنّ السماء كانت صافية، لكنّ رؤيتي لجمال المشهد كانت تتضاءل باطّراد.

عندما قدمتُ إلى دوفر أوّل مرّة كانت الطرق المرصوفة مسورة بخضرة كثيفة على كلا الجانبين .تشحبُ هذه الخضرة بالتدريج متحوّلة إلى لون أصفر فاتح، ويتحوّل بعضها إلى ظلال من الألوان البرتقالية أو الحمر أو البنّية .لكنّ الأسوار غدت أضيق والألوان بهتت كما لو أنّ طبقات سميكة من الغبار علتْها .لاحقا، إنبثقَتْ من عدد قليل من الجذوع الرمادية، التي كانت منتصبة في طريقنا، فروع هزيلة وسط غشاوة تتجمّع .أخيرا لم يعد القيام بجولة على ظهر مركبة في الريف في نظري أكثر من مرور خاطف وسط ضباب يتكاثف عليّ حتى وأنا أحسّ بدفء شمس ساعات الأصيل الأخيرة.

تُركت وحيدة في المنزل في أحد الأيام .وبُعَيد وقت الظهيرة سمعتُ شخصا في الرواق .وبسرعة فُتح الباب الأمامي وأُغلق، ثم أعقب ذلك الصمت، فاستنتجتُ أنّه ساعي البريد .نزلتُ لأتحقّق من وصول أي بريد لي .برفع الرسائل قبالة النافذة، تمكّنتُ من ألاحظَ إسمي على أحد المغلّفات .فتحتُ المغلّف وتمكّنت من قراءة ما يكفي من الرسالة لأعرف محتواها.

منصبي في الكلّية لم يعد محجوزا لي.

قالوا إنّ عينَيّ هما السبب.

لم أحاول حتى التحلّي بالشجاعة بعد أن إستوعبتُ ذلك.

مشيتُ من إحدى الغرف في الطابق السفلي إلى الغرفة الأخرى أبكي بشكل هستيري وأتحدّث مع نفسي .لم يعد بمقدوري مواصلة الحياة بعد الآن .ما

الفائدة؟ الناس ليسوا مضطرّين إلى مواصلة العيش حين لا يعود لديهم ما يعيشون من أجله.

آه ...هؤلاء الرجال لا يدركون مدى حبّي للكلّية ولطلاّبي وعملي، وإلاّ ما كانوا ليفعلوا هذا بي .كانوا سيجدون طريقة كي أستمرّ في تدريس الأدب رغم عجزي عن الإبصار، وكنتُ قد حفظت في ذاكرتي كلّ شيء كنت أدرّسه على أيّ حال.

يمكن للمكفوفين أن يقوموا بالتدريس.

في كلّية كونكورديا حيث درس أبناء خالي إينوش كان هناك بروفسور أعمى يدرّس مادّة الرياضيات .وكانت جامعة ميتشيغان قد أبقت على الدكتور كامبِل في قسم الكيمياء سنين عديدة بعد فقدانه البصر – حتى وافته المنيّة .وكان بول ميوشك، الذي كان عاجزا تماما عن الرؤية، لا يزال يدرّس الإنكليزية هناك .وإذا لم أكن مخطئة فقد عمل في كلّية أنتيوش بروفسور أعمى أيضا.

وجدت نفسي في المطبخ، تلمّست طريقي إلى المكان الذي كنتُ أعرف أنّ الفرن الغازيّ موجودٌ فيه .وتحسّست المقابض التي تفتح مواسير الغاز .ثمّ تذكّرت أنّ إستيل قالت إنّهم ركّبوا فرنا كهربائيا في أحد الأيام حين كنتُ خارج المنزل، فشهقت بصوت عالٍ من خيبة الأمل .كان من السهولة بمكان أن أتمدّد على الأرضية وألا أستيقظ أبدا.

عدتُ إلى غرفة الجلوس من جديد، وتعثّرت بالأريكة .تهالكت عليها وأنا منهكة بالكامل، وبقيت ممدَّدة بلا حراك، كان عقلي مشوّشا تماما .توقفتُ عن القيام بأيّ محاولة للتفكير.

بدأ ذهني يصفو بعد قليل، وإختفى الإحساس بالخدر.

ثمّ تذكّرت ما الذي كنتُ أحاول فعله، وصرختُ من الخوف .وحدهم الجبناء يستسلمون على هذا النحو .ماذا عن هيلين كيلِر؟ إذا قارنت وضعي بوضعها فإن إعاقتي ليست شيئا أمام إعاقتها .لكنّها لم تعترف بالهزيمة.

انهمرت الدموع من جديد، لكنّها دموع الخزي عوضا عن الإشفاق على الذات، من فكّرة ما كانت هيلين قد حققته.

لنتصوّر بأنّ الشيء الوحيد الذي كنتُ أعتقد بأنّي أجيده القيام به، والذي كان قد جعلني أشعر بأنّي نافعة طوال السنين الكثيرة، قد سُلِبَ منّي، وماذا بعد؟ كنت ما أزال على قيد الحياة، أليس كذلك؟ ألم أكن لأجدَ كثيرا من الأعمال التي يلزم أداؤها إذا ما بحثتُ عنها من حولي؟

وفي تلك الأثناء كانت لديّ مهمّة كبيرة بحجم وظيفة يمكنني التعامل معها الآن . عليّ أن أبذل كلّ طاقتي لمحاولة استعادة بصري .بعد أن يتم ذلك، سأفكّر فيما سأقوم به حينها.

هناك قصّة حكاها دبليو أل ميورو في تجمّع في جامعة كولومبيا في وقت قريب وشجّعتني كثيرا.

عندما اعتُمد لأوّل مرّة نظام إطفاء الأنوار في أثناء الغارات الجوّية في المدن الكبيرة بإنكلترا، وجد الناس مشقّة في التنقّل في الشوارع المعتمة .في إحدى الأمسيات جاء رجل إلى محطّة الإذاعة في لندن ليخبر الناس بما ينبغي لهم فعله لتجنّب الحوادث .كان خبيرا في السفر في الظلام لأنّه كانَ قد أنجزَ من هذه

العملية دراسة إمتدّت على مدار سنين .لقد بيّنَ بضع قواعد بسيطة لها أنْ تجعل، إذا ما تم التقيّد بها، السير في أثناء التعتيم آمنا إلى حدّ بعيد .قال، إنّ مدّ المرء مرفقيه أمامه أفضل من مدّ يديه لأنّ المرفقين أقوى وأقرب إلى الجسم، ولذلك دعمهما للجسم أقوى من دعم اليدين في حالة التصادم مع شيء ما.

في الواقع، كان الرجل الذي أسدى النصائح لأشقّائه في الريف حول كيفية اجتناب الحوادث في شوارع لندن، كفيفا .كان قد فقد بصره في الحرب العالمية الأولى.

أعجبتني هذه القصّة لأنّها بيّنت لي أنّ الله يجد دائما مكانا للأشخاص الذين يرغبون حقا في العمل.

كان من المفترض أنْ يحضر بعض الضيوف لتناول العشاء في آخر يوم أحد في شهر تشرين الأول .راعني هذا المأزق، لأنّ تناول الطعام أمام الناس بات من أصعب الأمور عليّ الآن.

بالعودة إلى شهر أيلول كان وجها الخالة أليس والجدّة فورس، اللتين كانتا تجلسان في الجهة المقابلة للمائدة، قد لاحا كما لو أنّهما أسفل مياه عميقة أو أنّهما مُنعكسين على مرآة رخيصة شوّهت ملامحهما وأعتمتها .ضعفت قدرتي على رؤية وجهيهما شيئا فشيئا إلى أن أصبحتُ لا أرى من وجهيهما غير فكّيهما السفليَّين .وبعد ذلك صرت لا أرى غير طيف الأيدي والأطباق، وطعاما لا أستطيع تمييزه فوق القماش الأبيض على جانبهما من المائدة، وصوتهما كان الشيء الوحيد الذي يدلّني على وجودهما هناك .أما ليو الجالس عن يساري ودوروثي وإستِل عن يميني فقد استطعتُ أن أميّز أشكالهم مدّة أطول، لكن

سرعان ما أصبحت وجوههم مثل وجهي الخالة أليس والجدّة فورس، أشكالا مبهمة ليس فيها ما يجعلني أعرف يقينا مكانها غير أصواتها.

عندما وصلَ الضيوف إلى العشاء يوم الأحد، جلسنا جميعا حول المائدة .فيما كان ليو يُقدّم الطعام، أخبرتني دوروثي بصوت خافت، كما كانت تفعل دائما، عن نوعِ الطعام الذي يقدَّم وعن مكان أطباقي على المائدة قريبا مني .أردتُ الإمساك بشوكتي لكنّني عرفتُ أنّني وضعتُ أصابع يدي اليسرى عوضا عن ذلك في شيء رطب ورقيق، فسحبت يدي على الفور.

همست دوروثي قائلة" :لا بأس، إنّه طبقكِ الذي يحتوي على شرائح التفّاح المطهوة، أمسكي بهذه، وامسحي يديك بفوطتك."

وسمعت إستيل تنهض وتتوجّه نحو كرسيِّي، وقالت هي الأخرى بصوت خفيض لا يمكن أن يسمعه غيري" :هذه فوطة أخرى."

لكنّني استأتُ كثيرا لأنّني أفسدتُ عشائي.

»إنّه طبقكِ الذي يحتوي على شرائح التفّاح المطهوّة.«

»عندما تجدين أنّكِ فقدت بصرك تماما عودي إلينا وسنرى ما الذي يمكننا فعله من أجلك.«

عرفتُ أنّ الوقت، الذي عناه الدكتور بنيديكت عندما قال هذهِ العبارة، قد حان.

أصبحتُ عمياء.

كان أمرا فظيعا أنْ استيقظ كلّ صباح وأجد المكان مُظلما كما كان في الليلة السابقة .في الحقيقة كنتُ قد فقدتُ القدرة على الإبصار بشكل شبه كامل تقريبا منذ أسابيع، لكنّ التفطّن إلى أنّني أصبحتُ مكفوفة الآن بات قطعيا إلى حدّ أرعبني.

بقيت أفكّر بألسنة اللهب المنيرة وهي ترقص في المواقد الساخنة، أفكّر بالغرف الجميلة المتوهّجة بالأنوار، بالمسطّحات المائية الشاسعة حيث ينعكس القمر على شكل طبقات فضّية لامعة، وبأشعّة الشمس الساطعة.

كيف يمكن للمرء أن يشتكي وقد أتيحَ له أنْ يستمتع بهذه العجائب ليل نهار؟

قلت لنفسي، إذإ ما استعدتُ بصري في يوم من الأيام، فلن أتوقّف عن النظر إلى هذه الأشياء.

بعد أن تناهى إلى سمع أصدقاء دوروثي وعائلة سيم أنّني سأغادر قريبا إلى روشستر، جاؤوا إلى المنزل ليتمنّوا لي حظّا سعيدا حاملين هداياهم من عطور وحلوى وثياب داخلية حريرية .لقد أخبروني بأنّ الثياب الداخلية زرقاء وزهرية وخوخية اللون، وقد وجدتُ متعة في لمسها بأصابعي، وثمّنت الودّ الذي أفصحت عنه الهدايا.

وإذ إختليت بنفسي في الظلام، صلّيت .لقد دعوت ألاّ تسوء الأحوال معي كثيرا، وأن أتحلّى بالشجاعة الكافية لتحمّلها ما لو ساءت .في بعض الأحيان، لم أكن أفكر سوى بالله، فأردّد دعائي في نفسي من دون أن أتلفظه بكلمات.

بدا أنّ الأدعية المتواصلة هدّأت من روعي، ومع اقتراب الأسبوع من نهايته أحسست أنّني أكثر مرحا .لقد نمت بهدوء وطمأنينة كما طفلة في الليلة التي سبقت ذهابي إلى روشستر.

وفي صباح يوم السبت وضعت دوروثي آخر حاجياتي في حقائبي وأغلقتها فيما كنتُ أرتدي ثيابي .لقد أمكنني سماع وقع أقدام كوكو وهي في أثري، وكان عليّ توخّي الحذر كي لا أتعثر بها .وعاد ليو من عمله عند الساعة العاشرة تقريبا، وقام بشتى أشكال العطف من أجلي .ثمّ تناولنا الغداء قبل ساعة من موعده، وادّعى الجميع أنّ ذلك هو السبّب في عدم قدرة أيّ منا على تناول شيء منه .وفي الدقيقة الأخيرة أفرغت دوروثي حقيبة يدها الجديدة ووضعت فيها محتويات حقيبتي متذرّعة بأنّ حقيبتها أوسع.

كانت الريحُ باردة، وقد لفَحتْ وجوهنا في أثناء توجّهنا إلى محطّة القطارات .لكن لم يعد هناك ذلك المطر الباعث على الكآبة، الذي كان قد واصل هطوله طيلة الأسبوع .جاء مدير المحطّة وطلب أن نجهز لأنّي القطار كان قطارا سريعا، وسيتوقّف خصّيصا من أجلي .سمعنا صفّارته من مسافة بعيدة، وبعد دقيقة كان يهدر في المحطّة.

بالكاد وجدت دوروثي وآل توتن وقتا لتقبيلي قبلة الوداع قبل أن ينزل المسؤول عن القطار وسائقه إلى الرصيف لمساعدتي على الركوب .ما أن بلغتُ مقعدي حتّى أحسستُ بحركة القطار وعرفت أنّني بدأت رحلتي.

أخذ الحمّال أغطيتي، وأحضر لي وسادة، ودلّني على مكان الزرّ الكهربائي الذي سيكون بإمكاني الضغط عليه متى إحتجتُ إلى شيء.

لا بدّ أنّ الوقت كان قريبا من الغروب عندما أحضر لي المُضيف القائمة وقرأها لي بصوت عالٍ .سألني إن كنتُ أفضّل تناول عشائي في عربة النوم أو أن أرافقه إلى مقطورة الطعام .فضلت الخيار الثاني .فكرتُ أنّ هذا له أنْ يخفف من ظهوري، وسيجعلني المشي أرتاح قليلا.

قرّرتُ الخلود إلى النوم باكرا .لقد بدا اليوم طويلا جدّا .قادني الحمّال إلى عربة السيّدات ثمّ ساعدني على التمدّد في سريري .خلعتُ ثيابي في السرير كي لا أضيعها بتنقّلي في المكان .بحكم العادة كنتُ ما أزال ألبس نظارتي، وكنتُ أضعها بتأنّ في علبة داخل حقيبتي .عقدتُ جوربَيّ ودسستهما في أحد فردتيّ الحذاء، وربطت هذا الحذاء بحقيبتي بوساطة شريط داخل شبكة السرير المعلّقة بالقرب من النافذة .حرصتُ أن تكون هذهِ الأشياء في نفس طرف السرير الذي كنتُ أضع فيه رأسي.

قال الحمّال" :سأعلّق ثوبكِ على الحمّالة."

سلّمته الثوب من خلال فتحة وجدتها في الستائر السميكة بعد أن تحسّستُ محيطي قليلا.

قال الحمّال" :أعطيتكِ بطانية إضافية، لأنّي خشيت أن ترتجفي من البرد، فالليالي في الجبال شديدة البرودة الآن."

لم أستطع النوم، لكنّني لم آبه بذلك .أحسستُ أنّني قريبة من الله أكثر من أيّ وقت مضى في حياتي، ودعوته طوال الليل .كان يتراءى لي بأنّه لو علم بشدّة رغبتي في أنْ أبصر، سيستجيب لي .بقيتُ أتضرّع إلى الله كي يردّ إليّ بصري، ولاحظتُ بعد

برهة أنّ ترديدي لدعائي تزامن مع وقع قرقعة العجلات على قضبان السكّة الحديدية :يا رب، يا ربّ، يا ربّ،

إجعلني أبصر، إجعلني أبصر.

يا رب، يا ربّ، يا ربّ،

إجعلني أبصر، إجعلني أبصر.

يا رب، يا ربّ، يا ربّ،

إجعلني أبصر، إجعلني أبصر.

بقيت أردّد هذا الدعاء بلا توقّف تقريبا إلى أن طلع النهار.

أعاد لي الحمّالُ ثوبي، وجاء بي إلى مقطورة الطعام من أجل وجبة الإفطار .وبعد أن تباطأ سير القطار في ضواحي شيكاغو وضع كلّ أمتعتي في المقعد بجانبي وساعدني على وضع أغطيتي، وقال" :أريحي نفسكِ من هموم العالم .كلّ شيء له مُدبّر .تعاملي مع الأمور برويّة وستكونين على ما يرام."

كانت لكنته الجنوبية الثقيلة باعثا على الارتياح ككلماته الباعثة على الاطمئنان، وعندما دخل القطارُ المحطّة لم أشعر بالذعر على الإطلاق.

وفيما كان الحمّال يعينني على النزول إلى الرصيف سألني شخص برفق" :هل أنتِ الآنسة دال؟ أنا رئيس محطّة لا سال ستريت، وأنا هنا للتأكّد من نقلكِ إلى المحطّة الأخرى."

أمسك بذراعي وقادني عبر الحشد الذي التفّ حولي.

قال لي" :تلقّينا برقيّتين الليلة الماضية بأنّكِ على متن هذا القطار، واحدة من بافلو والثانية من كليفلاند."

سمعته وهو يحيّي الناس، وبقي طوال الوقت يحدّثني بأسلوب مرح.

"نحن في محطّة لا سال ستريت الآن، وسآخذكِ إلى الحافلة بارمْلي."

كانت الرحلة من هذا الرصيف إلى الرصيف الآخر قصيرة، وما هي إلاّ دقائق حتى سلّموني إلى شخص في المحطّة المشتركة.

قال هذا الرجل ونحن نمشي في المحطّة" :آسف لمعاناتكِ من مشكلة في عينيكِ، سمعتُ أنّه يجري إرسالكِ إلى روشستر حيث عيادة مايو. آمل أن يتمكّنوا من مساعدتكِ."

عرفتُ أنّه يوصلني إلى أحد المقاعد.

قال الرجل" :أرجو منكِ الجلوس هنا قليلا، فقطاركِ ليس جاهزا بعد، استريحي ولا تقلقي، وسأعود قريبا."

أمضيتُ بقيّة الرحلة في عربة قطار نهارية من دون سرير كانت أكثر إنهاكا، لكنّني استمتعت بالتغيير .كان هناك نشاط صاخب مستمرّ من حولي .يدخل ركّاب إلى العربة ويغادر آخرون عند كلّ محطّة .ثم سمعت وقت العصر الأسماء المألوفة لبلدات ويسْكونسِن :ماديسون، سبارتا، ويست سالِم .ثمّ استنشقت النسيم المنعش الرطب القادم من خلال النافذة، وخمّنتُ أنّنا قد وصلنا إلى المسيسبي .

الصدى الأجوف الذي سمعته بُعَيد ذلك أنبأني أنّنا على جسر سكّة حديدية وأنّنا ندنو من جانب مينيسوتا من جهة النهر.

مشى قاطع التذاكر في القطار وأعلن أن القطار سيتوقّف ليتناول الركاب الغداء في وينونا .حسبتُ أنّ التعب بلغ بي حدّا يمنعني من تناول الطعام، لكنّ فتاة اقتربت منّي وعرضت عليّ أن تحضر لي شطيرة وكوبا من القهوة، فقبلتُ صنيعها مع الشكر .وبعد هذا التعارف تبادلتُ والفتاة الزيارات وانقضى الوقت على نحو أسرع.

»روشستر، روشستر، روشستر .هذا هو مكان الخروج«، نادى قاطع التذاكر.

وصلت إلى مقصدي أخيرا.

نودي باسمي ما أن توقّف القطار .قادني رجل عبر الرصيف في محطّة روشستر وأجلسني على مقعد سيارة تنتظر ،ثمّ سألني" :إلى أين تودّين الذهاب؟."

قلت مستغربة" :إلى أين؟ ألا تعرف؟ ألست من عيادة مايو؟."

أجاب الرجل» :أنا مندوب من شركة نورثْ ويسترن للسكك الحديدية، طُلب إليّ من نيويورك أن ألتقي بكِ هنا الليلة وأحرص على نقلكِ إلى حيث تودّين الذهاب.«

كنتُ متوتّرة الأعصاب إلى حدّ أنّ جسمي صار يرتجف.

»ظننتُك من العيادة«، كررت،»أنا لا أعرف فعلا إلى أين يُفترَض بي أن أذهب . حسبتُ أنّه من المفترض أنْ يلتقيني شخص من العيادة.«

قال لي الرجل" :أنتِ في سيارة أجرة الآن."

حاولتُ أن أفكّر بسرعة .كنتُ متأكّدة من أنّ دوروثي قالت لي إنّ شخصا من العيادة سيلتقي بي، وأنّني سأُنقل إلى مستشفى ما مباشرة .لكن أيّ مستشفى؟ دخلتُ مستشفى ورال للخضوعِ لعمليتي السابقة، لكنّ ذلك جرى قبل عشرين سنة، والكثير قد تغيّر في محيط روشستر منذ ذلك الحين .حسنا، الأفضل أن أبدأ بمستشفى ورال أولا .لذلك قلتُ للرجل الذي من محطة قطارات نورث ويسترن بأنّي سأتدبّر أمري، وطلبتُ من سائق سيارة الأجرة أن ينقلني إلى مستشفى ورال.

عندما وصلتُ إلى بهو المستشفى قال الموظف في ردهة الاستقبال إنّه ليس لديه حجز باسمي .كاد قلبي يتوقّف عن الخفقان، هناك شيء عجيب بشأن نقلي من شخص غريب إلى آخر من دون أن أقدر على رؤية أيّ منهم، والآن عندما وجدتُ نفسي فجأة وحيدة مع شخص لم يسمع بي أحسست بالخوف.

سألتُ الشابّ محاولة إخفاء شدّة خوفي" :هل أنا في مستشفى أم لا؟."

أجابني بلطف" :أجل، أنتِ في ورال."

سألته" :هل ما زال الدكتور بنيديكت يجري عمليات جراحية هنا؟."

"أجل، لا يزال كذلك."

"أنا مريضته، وقد وصلت للتوّ على القطار القادم من نيوجرسي، والمفترض أنّني سأخضع لعملية جراحية غدا."

تساءلتُ مع نفسي عن أفضل ما يمكنني فعله.

سألته" :هل يوجد لديكم غرفة يمكنني المبيت فيها الليلة؟."

أجاب أن بالإمكان ترتيب هذا الأمر، لكن يلزمني إيداع مبلغ خمسين دولارا قبل الحصول على واحدة.

صرعتني هذه العبارة أرضا .لم أكن أحمل هذا المبلغ الكبير نقدا .وحتى لو كان معي، فإنّه لم يكن بإمكاني رؤية المال لأحصي المبلغ .كانت دوروثي قد زوّدتني بنقود فضّية كان بمقدوري تمييزها بواسطة اللمس، لكن مبلغ خمسين دولارا ! كان في حقيبتي دفتر الشيكات، لكنّني لم أفكّر بالأمر منذ مغادرة دوفِر لأنّي لم أتوقّع استعماله إلاّ في وقت لاحق .كانت آنّا سيم ستأتي صباحا، وتتولّى هذه الأمور عنّي .سألتُ ما إذا كان بالإمكان تأجيل دفع المال حتى ذلك الحين، لكنْ بدا أنّ ذلك لم يكن ممكنا.

وفي غمرة ارتباكي لم أجد دفتر الشيكات .عرض عليّ الشاب الجالس خلف المنضدة ملء شيك فارغ نيابة عني، لكنّي قلتُ بأنّي أودّ استخدام شيك صادر عن مصرفي في نيوجرسي.

سألته أخيرا" :هل تستطيع اصطحابي إلى الغرفة، أنا متأكّدة من أنّي سأجد دفتر الشيكات الفارغ، وبعد ذلك تملؤه عنّي وأتولّى أنا توقيعه."

لأول مرة في حياتي لم أكنْ قادرة على أن أنطق ولو بكلمة واحدة.

لقد شممتُ رائحة المواد المعقِّمة عندما مشيتُ في الممرّ المؤدّي إلى غرفتي .وكان هذا باعثا لي على الاطمئنان لأنّي صرت متأكّدة على الأقل من أنّني في مستشفى .في غرفتي، أفرغتُ محتويات حقيبتي على السرير، ووجدت دفتر الشيكات الضائع . كان الشابّ ينتظر خارج الباب، واصطحبني عبر الممرّ إلى طاولة .وهناك ملأ الشيك نيابة عنّي ووضع يدي على الموضع الذي يفترض أنْ أوقع فيه.

»عليّ أن أُرسل برقية وأجري مكالمة هاتفية بعيدة«، قلت بعد تسوية مسألة إيداع مبلغ الخمسين دولارا.

قال الشابّ إنّ من الممكن تدبّر كلا الأمرين عند الطاولة التي كنّا نجلس إليها.

أمليتُ نصّ برقيتي إلى دوروثي" :كانت رحلة موفَّقة، معنوياتي عالية، أحبّكِ . بورغيلد."

لم أواجه مشكلة في إجراء مكالمة هاتفية مع هارموني .كان سماع صوت آنّا سيم مريحا، قالت لي إنّها ستصل إلى المستشفى باكرا في الصباح.

كان أسلوب آنّا مرحا وعمليا .وبما أنّها كانت معي أثناء عمليتي الأخيرة، فقد كانت رؤيتها الآن باعثا على الإحساس بالثقة.

جاءت الممرّضة لتخبرني بأنّ الدكتور بنيديكت قد وصل إلى المستشفى، وأنّه سيقوم بزيارتي بعد أنْ يقوم بجولة على مرضاه الآخرين.

قال الدكتور بنيديكت بعد أن عاين عيني" :أنتِ عاجزة عن الرؤية بشكل كامل الآن."

قلت له" :مشيتُ في وسط البلدة في اليوم السابق لمغادرتي نيوجرسي."

تلك كانت هي الحقيقة .لقد ذهبت إلى صالون التجميل لأقصّ أظافري وألوّنها ولأصفّف شعري .وفي هذه الأثناء راقبني ليو من محطّة الوقود الخاصة بهِ وساعدني على اجتياز شارع بلاكْويل.

قال الدكتور بنيديكت إنّ سيارة الإسعاف كانت في انتظاري عند المحطّة في الليلة السابقة، لكنّ السائق لم يتمكّن من العثور عليّ .لا بدّ من أنْ الرجل، الذي يعمل مع شركة نورثْ ويسترن للسكك الحديدية، كان قد أحضر لي سيارة أجرة قبل تمكّن المسعفين في سيارة الإسعاف من الاتّصال بي .وأدركت كم كنت غبية لعدم قيامي بإرسال موظف شركة نورث ويسترن للبحث عن الأشخاص القادمين من العيادة.

سألني الدكتور" :ما رأيك في إزالة ذلك الإعتام عصر هذا اليوم؟."

قلت له، إنّ التوقيت يناسبني.

»هل هناك شيء آخر يمكنني القيام به غير الرجاء والدعاء يا دكتور بنيديكت؟«، سألته وهو يغادر.

»لا، أعتقد أنّ لديك كلّ ما يلزم«، أجاب بلطف.

طيلة فترة الضحى، عملت الممرّضات على تهيئتي للعملية .جاءت آنّا وذهبت، ودوّنتْ أسماء الأقارب والأصدقاء المقرّبين الذين ينبغي إبلاغهم بمجريات أموري . وأفرغتْ حقائبي ووضعت الملابس التي ستلزمني في المستشفى في جوارير الخزانة،

وقرأت عليّ مقاطع من الإنجيل .صلّينا معا، وامتلا قلبي طمأنينة وثقة بالله، مثل حالي ليلة ركوب القطار.

عرفتُ من قرقعة الأطباق في الردهة بأنّ طعام الغداء كان يقدَّم للمرضى الآخرين.

أغلقت آنّا الباب.

جثوتُ على ركبتَيّ بجانب سريري.

ثمّ دعوت» :يا ربّ كن معي اليوم، خذ بيدِ وعقل من أرسلتَه لعوني .أريد بقوّة أن أبصر .لكنْ إنْ كان هذا غير ممكن، فإمنحني الشجاعة لأواصل حياتي بأيّ حالٍ من الأحوال.«

ثمّ كرّرتُ وآنّا صلاة الربّ معا.

بعد ذلك جاءتني الممرّضة وقالت إنّ في وسع آنّا المجيء أيضا.

نُقلتُ عبر الردهة إلى غرفة ضيّقة للغاية حيث طُلب منّي التمدّد على أريكة. أعطتني الممرّضة كبسولة وقالت إنّها ستجعلني أنام، ثمّ غادرت.

لكنّني لم أستطع النوم، والتزمتُ وآنّا الدعاء.

صدر ضجيج خافت عند الباب، وسمعت صوت رجل، كان الدكتور كويل، الطبيب المقيم.

»نحن جاهزون من أجلكِ«، قال بهدوء.

أخذتُ نفسا عميقا واستويتُ على الأريكة.

قبّلتني آنّا.

قادني الطبيب المقيم إلى غرفة العمليات.

هذه المرّة لم ترافقني آنّا.

بعد أن تمدّدتُ على طاولة العمليات بدأ أحد الحاضرين بالغناء .ورغم أنّني كنت أظن بأنّي هادئة، إلّا إنّ الغناء أزعجني.

قلتُ بانفعال" :أنا لا أحبّ تلك الموسيقا."

قال شخص بالقرب منّي" :على المرء أن يستخدم الصوت الذي لديه."

قلتُ في نفسي" :يا لحالي، لا يجدر بي أنْ أبدأ."

أمكنني سماع صوت حفيف الثياب من حولي، ووقع أقدام خفيفة لأشخاص يتنقّلون في الغرفة، ثمّ فُتحت حنفية وسمعت صوت ماء يتقاطر.

اعتذرتُ وقلت" :ليس في صوتك ما يعيب، كلّ ما في الأمر أنّني متوتّرة قليلا الآن."

سمعتُ الصوتَ نفسه، لكنّه بدا لطيفا ومتعاطفا هذه المرّة" :حسبتُ أنّنا أعطيناكِ شيئا مهدّئا."

سألتُ ممرّضة بجانبي" :ما هو نوع المخدّر الذي تعطونني إيّاه؟."

أجابت" :تخدير موضعي، كوكايين."

لذا كنتُ سأبقى مستيقظة طوال الوقت وأكون واعية لما يفعلون بي .لم أكن أتوقّع ذلك!

قالت الممرّضة" :لا تحاولي فعل شيء بنفسك وأنتِ ممدَّدة هنا، إذا شعرتِ بحكّة في وجهكِ أو انزعجتِ لأيّ سبب آخر، أعلمينا، وسنفعل كلّ ما يلزم من أجلكِ."

كانت هناك حركة متزايدة حولي .مسح أحدهم وجهي وغسله بمادّة معقّمة .ثم وُضعت قطرات في عينَيّ – أولا فقط في العين التي كانت ستخضع للعملية، ثمّ في محجر العين الثانية أيضا .كما أنّني حُقنتُ بإبرة في وجهي بالقرب من أذني اليسرى .وكان الأطبّاء والممرّضات يخبرونني مسبقا بكلّ عمل يراد أداؤه كي لا أُذهل أو أرتعب.

قال لي الطبيب المقيم" :الدكتور بنيديكت في الغرفة الآن."

ساد صمت طويل، ثم حركة خفيفة بالقرب منّي.

قال الطبيب المقيم" :الدكتور بنيديكت معكِ الآن، ويمكنكِ أن تكوني مصدر عون كبير له إذا فعلتِ كما يطلب منك بالضبط."

زاد تالحركة حولي .هذهِ المرّة، أقرب مما كانت عليه .وفيما عدا ذلك، كان هنالك صمت مطبق في الغرفة.

أمكنني سماع أنفاس شخص قريب منّي جدا.

"إيّاكِ أن تنظري إلى أعلى، أو بشكل مستوٍ مهما حصل .انظري إلى الأسفل دائما، وإلى اليسار .ولا تكثري من ذلك . . . هذا أفضل."

الصوت الذي أسمعه الآن صوتُ الدكتور بنيديكت.

كان بإستطاعتي أنْ أشعر بأنّه بدأ العمل في عيني .شعرتُ بلمسة خفيفة فحسب. حبستُ نفَسي .يجب ألاّ تتحرّك أيّ عضلة .ولا حتى إختلاجة.

اثبتي، اثبتي، اثبتي.

ثمّ ظهرت فوقي فجأة كرة نار في الظلام، وخيط مضيءٌ منحنٍ، مثل السلك الذي في لمبة كهربائية منارة.

"رطِّبي."

كان صوت الدكتور بنيديكت مجدّدا.

ثمّ صار كلّ شيء معتما بالنسبة لي من جديد.

أحسستُ أنّني أُرفَع وأنقَل إلى مكان ما.

سمعتُ نفسي أقول" :لا توقعوني، أنا ثقيلة الوزن."

»لا داعي لأن تقلقي لذلك .هناك خمسة أشخاص يحملونكِ .كما أنّنا أخرجنا من هذه الغرفة امرأة أضخم منكِ بكثير.«

كان الدكتور بنيديكت هو من كلّمني هذه المرّة أيضا.

أعادوني إلى سريري، ووضع أحدهم أربطة على رُسغَيّ.

قالت لي ممرّضة" :إننا نربط يديك، كي لا تلمسي عينكِ وتُؤذيها."

ثمّ إعتقدت وكأني أشعر بوجود الدكتور بنيديكت في الغرفة .كان يتحدّث إليّ . ميّزت صوته .كان موجودا هناك إذن بالفعل .يا إلهي، عليّ أن أسأله.

لكنْ، صوتي .ما الذي حدث له؟ أجهدتُ نفْسي حتى رجفتُ من الإجهاد.

"يا دكتور بنيديكت، هل سأُبصر؟."

خرجَ السؤال أخيرا .متُّ وعدّتُ إلى الحياة مئات المرّات فيما كنتُ أنتظر إجابته.

»من قال إنّكِ لن تُبصري؟.«

الفصل العاشر

"أشكرك يا الله."

أحسستُ بالكلمات في داخلي.

تحدّث إليّ الدكتور بنيديكت مجدّدا" :ستحاولين البقاء هادئة تماما، أليس كذلك؟ لا تقومي بحركة سوى بالقدر الذي يحول دون تصلّب رقبتكِ."

أمكنني سماع صوته في الظلام، قال لي إنّه سيرسل برقية إلى دوروثي.

سمعتُ نفسي أقول" :ستصدّقك."

قدمت آنّا لمدّة دقيقة واحدة، وقالت إنّها ستكتب للعمّ إينوش والعمة إليزابيث ولشقيقتَي.

كان غريبا إحساسي بهذا التعب فجأة .فحتى إرتشاف الماء بوساطة القصبة بدا مهمّة شاقّة .أشخاص كانوا يمشون على رؤوس أصابعهم .قال أحدهم إنّ شقيقتَي إستِر وإلين قد قدمتا من مينيبوليس .وقد عرفتهما حين نطقتا باسمي.

"لن نلبث غير دقيقة، سيلمِر ينتظرنا في الأسفل."

أمسكت إحدى شقيقتَيّ بذراعي، لم أستطع تحريكها لأنّها كانت مقيَّدة .طبِعَت فوقها قبلة وسقطت قطرات من الدموع عليها.

ثمّ ساد الصمت والعتمة مرّة أخرى.

لا بدّ أنّ الوقت كان ليلا حين ذُعرت .لم أعرف السبب .آنّا كانت هناك، أمسكتْ بيدي، ثمّ لم أعد أتذكّر شيئا بعد ذلك.

أيقظني الألم .المزيد من الكبسولات والمزيد من الماء الذي تم وضعه عند شفتَيّ لأرتشفه بواسطة القصبة .عتمة ونسيان .لكن بعد ذلك اضطربَت عيني من جديد، ثم كانت هناك دورة من الكبسولات وشرب الماء بوساطة القشّة، والعتمة مرّة أخرى .كان الأمر أشبه بماراثون من ألم يليه نسيان .لكنّ ظل الألم صاحب الحظوة.

جاء الدكتور كويل لرؤيتي، وهو الطبيب المقيم الذي ساعد الدكتور بنيديكت في غرفة العمليات .أصبح رفيقا رائعا بعد أن ازدادت معرفتي به، وصرت أنتظر زياراته.

الكثير من الممرّضات دخلنَ الغرفة وغادرنها .في البداية، لم أعرف إلّا بطريقة مشوّشة بأنّهنّ موجودات هناك .لكن وسط العتمة ،ساعدني وقع أقدامهنّ وأصواتهنّ وملمس أياديهنّ وأشياء أخرى متّصلة بهنّ، على التمييز بينهنّ .وبعد وقت وجيز أمكنني مناداتهنّ بأسمائهنّ :الآنسة هيلِر، الآنسة شينك، الآنسة روز، الآنسة أندرسون، الآنسة تافت، كنّ لطيفات ومتقنات .في الوقت الذي كنتُ فيه أصبح متأكدة من إنّ ظهري انقسم إلى نصفين، كنتُ أشعر من جديد بالأيادي القوية والرقيقة وهي تفرك المكان الذي يتركّز فيه الألم .إنّها ذاتُ الأيادي التي وضعت الوسائد أيضا في تجاويف السرير في المواضع التي لا تتلاءم مع انحناءات بدني، والتي مسحت المستحضرات المُنعشة على المرفقين والكعبين المخدوشين اللذين قد إلتصقا بقوّة لتعين العين على تحمّل الألم.

جاء اليوم الذي نُزعت فيه الضمادات لأوّل مرّة .كان الدكتور كويل في الغرفة . رفعت الممرّضات مسند الرأس، وجلستُ حابسة نفَسي.

لامستْ رؤوسُ أصابع الدكتور كويل خدّي وهي تفكّ الضمادة .وشعرتُ بأنّها لم تعد تغطّي عيني.

لكنّ كلّ شيء كان معتما .وكان عليّ أن أتمدّد على الوسادة .آه يا إلهي، لا يمكنني أنْ أرى بعد كلّ هذا العناء.

وضع الدكتور كويل قطرات في عيني، وأعاد وضع الضمّادة على وجهي.

لم أستطع تركه يغادر من دون أن أسأله" :هل عيني على ما يرام؟."

"لماذا تسألين؟ أجل."

لكنّه تردّد وهو يتكلّم، وظننتُ أنّ تصرّفه يشي بالشكّ.

وبعد وقت وجيز جاء الدكتور بنيديكت لرؤيتي.

قلتُ له بلهفة" :ضمّد الدكتور كويل عيني .إذا لم تكن على ما يرام، هل يمكنك العودة وإخباري بذلك رجاء؟."

وعدني قائلا" :لا تقلقي، سأعود."

عاد بالفعل ومعه الدكتور كويل، أزال الدكتور بنيديكت الضمّادة بنفسه هذه المرّة، وبيّن للدكتور كويل أنّ هناك ازرقاقا في العين، وسلاّني الدكتور كويل قائلا إنّ حالة عيني مُرْضية على النحو المتوقَّع بعد العملية.

لكن بعد ذلك، في كلّ مرّة كان يرفع فيها الدكتور كويل الضمادة، كان بالكاد يمكنني الإنتظار لمعرفة ما إذا كان بإستطاعتي أنْ أبصر .وعندما وجدت بأنّي لا زلتُ في الظلام، كان عليّ فعل كلّ ما أستطيع لأحبس دمعتي بسبب خيبة الأمل.

بدأتُ أقلق مخافة ألاّ أقدر على الرؤية بعد ذلك .ربّما كانت قد إستجدّت بعض المضاعفات .تذكّرتُ بأنّ الدكتور بنيديكت كان قد قال للدكتور برانْغين يوما بأنّه قد كان من الممكن أن يحدث أيّ شيء لعيني، لكنّ ذلك كان قبل بروز هذه المشكلة.

ربما يكون ذلك الابتهاج من حولي تصنّعا، قلت لنفسي .ربّما كان الناس في المستشفى يخفون عني الحقيقة حتى أصبح قوية بما يكفي لسماعها.

بقيتُ أتخيل بأني أسمع صوت دوروثي في الممرّ؛ إذا كان هذا صحيحا، فذلك يعني أنّ أموري سيّئة .وكرّرت في نفسي ما كان الدكتور بنيديكت قد قاله من قبل عندما عرّجتُ ودوروثي على روشستر في طريقنا نحو الشرق.

"إذا احتجنا إلى دوروثي، يمكننا طلب مجيئها لاحقا."

بدت الليالي السوداء بلا نهاية .لكن وحدها عبارة الدكتور بنيديكت الفرحة: "صباح الخير "كانت تطمئنني؛ وتفاؤله ومرحه اللطيف منحاني الأمل بأنّي سأخرج من الظلام آخر المطاف.

أخيرا في صباح أحد الأيام، وبعد أن أزال الدكتور كويل الضمادة، كانت الشاشة السوداء، التي كانت تحجبني عن باقي العالم، قد تحولَت إلى لون رمادي باهت. لقد ذكّرتني بضباب الخريف الرطب في بلدة ساحلية.

هتف الدكتور كويل» :يمكننا أن نرى قليلا اليوم .فلنحاول الآن معرفة مدى قوة بصرك .هل يمكنكِ إخباري كم إصبعا أنا أرفع الآن؟.«

خمّنت الإجابة، لكن حقيقة أنّ قدرتي على تبيّن شيء ما كانت برهانا على قدرتي على الرؤية.

سالت الدموع على خدَّي ولم أبالِ إن كان رآها أحد.

بدأتُ أرى بوضوح أكثر مع كلّ عملية نزع للضمادة عن عيني .عرفتُ أنّ الممرّضات الواقفات بقربي يرتدين بزّات بيضاء اللون، وسرعان ما صرتُ أرى الإيحاءات الضبابية لوجوههنّ.

»ما الذي يمكننا رؤيته اليوم؟«، سألني الدكتور كويل صباح أحد الأيام بعد أن مضت أيام عدّة على استجابة عيني للنور.

أجبته ضاحكة» :لاكنفار 2وسيم.«

قال مدّعيا خيبة الأمل" :إذن أنا آسف للغاية لإخبارك بأنّكِ لا ترين كما ينبغي."

كنتُ جادّة في مجاملتي له، كانت سمات الدكتور كويل أولى السمات التي قد رأيتها بوضوح منذ شهور، وبدا لي وقتئذٍ أنّه أوسم رجل في العالم.

أخيرا أزيلت الضمادات كلها، وأُحضرت لي نظّارة ذات عدستين مُدخّنتين من مستودع في الطابق العلوي .وبعد أن وجدتُ راحة في لبسها عرفت أنّني سأتمكّن من الانسجام مع نفسي والمشي خارج المنزل من دون مساعدة كلب من كلاب

المكفوفين .وعندما أصبحتُ واعية بذلك كليا، ملأاتني سعادة غامرة إلى حدّ أنّني قرّرت الاتصال بدوروثي في نيوجرسي لإطلاعها على الأخبار الطيّبة.

عانيت من تأخير طويل في محاولة الاتصال بدوفِر، وعندما قال عامل الهاتف أخيرا إن المتحدّث على الخط، فإنّ كلّ ما كان بإستطاعتي فعله هو الإمساك بالسمّاعة والتأتأة.

"يا دوروثي، أأأستطيع أن أُبصر"، وكرّرت العبارة المرّة تلو الأخرى":أأأستطيع أن أُبصر، أستطيع أن أُبصر."

كان من الرائع التمدّد ومشاهدة ضوء النهار وهو يخرج من العتمة حولي كلّ صباح .لم أستطع منع نفسي من النظر إلى الشرق؛ غير أنّه مع الطلوع الأول للشمس فوق خط الأفق، كنتُ بحاجة إلى دفن وجهي في الوسادة لعدم تحمّلي الألم الناجم عن وهجها الساطع.

كنت متشوّقة لإمكانية الذهاب إلى العيادة لإجراء فحصٍ لعينيّ من أجل نظّارة، بقدر تشوّقي في السابق لإزالة الضمادات .لكن عندما وصلت علمت أنّ الدكتور برانْغين خارج المدينة .أحسست بخيبة أمل لدرجة أنّي كدت أقول للممرّضة بأنّني سأنتظر عودته، لكنّي رأيت أنّ ذلك سيبدو سخيفا .لذلك ذهبت معها إلى الغرفة حيث كان من المفترض أن يفحص الطبيب الجديد عيني .لم يسبق لي أن تواجدتُ في هذه الغرفة من قبل، وكنت متوتّرة من البداية.

سلّمني الطبيب بطاقة كما كان الدكتور برانْغين يفعل .وبدأتُ بتقريبها إلى وجهي كما كنتُ أفعل دائما، وعندئذٍ كلّمني الطبيب بحدّة قائلا" :لا تفعلي ذلك، لقد تجاوزتِ مرحلة قصر النظر الآن، أبعدي البطاقة عن عينيك."

فعلتُ ما قاله لي، لكنّني لم أتمكّن من تمييز حرف واحد.

قال" :ستواجهين صعوبة على الأرجح في قياس مسافاتك بادئ الأمر، واصلي المحاولة إلى أن تتمكّني من قراءة ما هو موجود على البطاقة."

قرّبتُ البطاقة من وجهي مرّة أخرى وشرعتُ في إبعادها بالتدريج، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعا .اقترب الطبيب منّي وحاول مساعدتي، لكنّني لم أستطع قراءة الحروف، حتى الكبيرة منها، ثمّ طلب منّي النظر إلى اللوحة المعلّقة على الحائط لكنّ النتيجة كانت أسوأ.

أحسست بخيبة أمل كبيرة إلى حدّ أنّ كلّ ما أمكنني فعله كان حبس دموعي.

توسّلتُ إلى الطبيب قائلة" :ألا تستطيع إيجاد نظّارة تناسب عيني؟ أنا في أمسّ الحاجة إلى الإبصار."

حاول الطبيب من جديد، لكنّ أيّا من العدسات التي وضعها أمام عيني لم تساعدني.

قال الدكتور بنيديكت بعدما سمع نتائج الفحوص" :ربّما لن نتمكّن من تزويدك بنظّارة، عينك تتحرّك إلى أعلى وإلى الداخل، وهذا يصعّب عملية إيجاد النظّارة

المناسبة .لكنّنا طالما تمكّنا من إيجاد عدسات مناسبة لك في السابق؛ وربّما سيكون بمقدورنا أن نقوم بعمل أفضل لاحقا، إذا ما تأنينا."

إنقضى شهر قبل أنْ أعود مرة أخرى إلى العيادة في روشتسر .وكم كان شعوري بالراحة كبيرا بعودة الدكتور برانْغين .لم يعترض على مدى القرب الذي أضع فيه البطاقة عن عيني، لكنْ كان يمكنني القول بأنّ الحروف تبدو أوضح حين تكون بعيدة عن وجهي .نجحت في قراءة الحروف السميكة باستخدام العدسات الأولى التي وُضعت على عيني، لكن بعد أن جرّبت عدسات قليلة أخرى قرأت الحروف بسهولة أكبر .وكان محض قلب العدسة أو عكسها يُحدث فارقا ملموسا في قدرتي على الرؤية من خلالها .بقيت أجرّب المسافات عند النظر إلى البطاقة، لكن كان من الصعب عليّ أنْ أحدّد أيّ العدسات أصلح.

أخيرا وضع الدكتور برانْغين عدسات في إطار وطلب منّي وهو يضع قوسيها خلف أُذنَيّ أن أقرأ له بصوت مرتفع ما تمكّن من رؤيته على البطاقة .واصلت القراءة إلى أن وصلتُ إلى نهاية السطر المكتوب بحروف سميكة.

بدا راضيا لأنّني سمعته يضحك بصوت خافت.

أحسستُ بالغبطة.

قال الدكتور برانْغين وهو يخلع النظّارة" :ليس عليّ أنْ أسألك عمّا تريدين لكريسماس هذا العام، إذ أرى بأنّكِ حصلتِ على هديتكِ الآن."

أُرسلت إليّ النظارات بالبريد من روشستر إلى هارموني حيث كنت أقيم مع آنّا سيم ووالدتها .لكنّها وصلت بعد حلول الظلام، وفي صباح اليوم التالي وضعت النظّارة

المخصّصة للنظر عن بعد، ومشيتُ نحو النافذة الأمامية .منذ عودتي من المستشفى، ما برحتُ أنظر من خلالها، وكلّ ما كان يمكنني رؤيته كتلة بنّية ضاربة إلى اللون الرمادي .أما الآن فقد ظهر زرع بقي بعد الحصاد الأخير، وظهرت أجمة على مسافة أبعد .تمكّنت من تمييز أشجار مستقلة عن بعضها في الأجمة، وكان لكلّ منها فروعٌ كثيرة .كان لون تلك الفروع التي سقطَت عليها أشعّة الشمس أزهى وأدفأ من لون بقيّة الفروع.

»هذا يوم رائع«، قلت للسيدة سيم، «أنا سعيدة جدّا إلى درجةٍ أنّي أشعر أنّه ينبغي لي القيام بشيء .لو لم تكن قدماكِ تؤلمانكِ كثيرا، لجعلتك ترافقينني، بكلّ بساطة .لكن في وضعكِ الحالي، عليّ أن أحتفل وحدي.«

لبستُ فستاني الأحمر لأنّ لونه كان الأزهى من بين ما أملك، ثمّ وضعت شالا.

"لا أستطيع البقاء داخل المنزل .إنّه ليس كبيرا ما يكفي ليسعني اليوم.«

مشيتُ في القسم التجاري من الشارع الرئيسي، نظرت إلى واجهات المحلاّت، وذُهلتُ لتشكيلات البضائع الرائعة التي عرضها التجّار .كانت المباني في حدّ ذاتها مثيرة أيضا، إذ كان بإمكاني أن أرى كلّ آجرة وكلّ لوح صُنعت منه .بقد بدا المشهد بأكمله برّاقا ونظيفا كما لو أنّه دعِكَ دعكا جيدا.

عدتُ إلى منزل سيم لتناول الغداء وفاء بوعد قطعته للسيدة سيم .كنّا لوحدنا . كنتُ ألعبُ بكلّ حبّة فاصولياء، موازِنة إيّاها على شوكتي؛ وكنتُ ألتقط حبّة كرز مستديرة واحدة في ملعقتي في كلّ مرّة، وأنا أراقبُ الطبق وهو يفرغ بالتدريج.

قالت لي السيدة سيم" :أنتِ لا تأكلين على الإطلاق اليوم، أعتقد أنّك متحمّسة للغاية."

قلت لها" :أجل، أنا أسعد من أن أتناول طعاما اليوم."

قضيتُ طيلة فترة العصر في القيام بزيارات .زرت أولا إيمّا روستْفولد التي كانت معي عندما وجدَ الدكتور برانْغين العدسات المناسبة لي، ولهذا كانت تعرفُ قيمة هذا اليوم بالنسبة لي .لكنّني لم أمكث عندها طويلا، فقد كان عليّ الإسراع . توقّفتُ بضع دقائق وحسب في كلّ مكان .لا بدّ وأنّي قد بدوتُ في نظر من زرتهم أشبه بطفلة تسرع لتريَهم لعبتها الجديدة التي حصلت عليها كهدية كريسماس . لكن لم يكن لديّ شيء جديد .حتى إطار النظّارة كان قديما.

كنتُ أمارس فعالية البصر في ذلك اليوم .كنتُ ألفت أنظار الآخرين إلى كل ما يُمكن رؤيته .سيغنّي الآخرون عمّا قريب" :ليلة ساكنة، ليلة مقدّسة ."أردتُ أن أصرخ ليسمعَني الجميع" :كلّ شيء مشرق .الفرح للعالم."

في النهاية بلغ بي التعب حدّا منعني من مواصلة السير .عدت إلى منزل أسرة سيم، لكنّني سلكت مسارا مختلفا، فلم أُرد تفويت أيّ فرصة لرؤية كلّ ما يمكنني رؤيته.

كان الوقت متأخّرا عندما وصلت إلى المنزل .كانت آنّا موجودة هناك ورأيتُ دموعا في عينيها.

تأقلمت عيناي مع عدسة المسافة البعيدة بشكل جيد، لكنّ الوضع مع عدسة الرؤية عن قرب كان مختلفا .كان من الصعب عليّ الرؤية من خلال عدسات محدّبة كبيرة بعد أنْ كنتُ بحاجة إلى عدسات مقعّرة طوال حياتي .كما أنّ

الضعف كان قد اعترى عضلات عيني، لأنّي لم أستخدمها مدّة طويلة، ووجب عليّ تدريبها كما يدرّب الرياضيُّ أجزاء معيّنة من جسمه في أثناء الاستعداد لمنافسة في رياضة ما.

بداية، كان عليّ تحديد حجم الحروف التي يمكنني قراءتها بسهولة، ومن ثمّ أن أتعلّم استخدام عيني بالطريقة الجديدة.

في البداية، تمكنتُ من تمييز كلمات العناوين الرئيسية الأكبر حجما في الصحف، وحتى هذه العناوين لم تكن تبدو واضحة مالم أستغرق وقتا في النظر إليها. وتساءلت ما إذا كان هنالك كتاب طُبع بحروف يمكنني قراءتها .وجدت المستوى الذي أنشده في)Mother Goose الإوزة الأم .(لقد شرعت، على الفور، في قراءة الأبيات الشعرية القصيرة في هذه المجاميع كما لو أنّ حياتي متوقّفة عليها .في المجموعة الأولى تلعثمتُ بالكلمات التي تحكي قصة" بوبي شافلو ."لقد احتجت إلى وقت طويل لأقرأها؛ وبعد أن أنهيتها كانت حين تُعاني إحمرارا وحرقة .لكنّي تابعت، وقد إستغرقت مني القصّة الثانية" بيتي تو شوز"، نصف زمن الأولى، وتقريبا لم تكن عيناي مُتعبتين عقب الإنتهاء منها .وفي وقت وجيز تمكّنت من قراءة" موذر غوز "بنفس القدر من السهولة والسرعة التي بهما كنتُ أقرأ فيها الطباعة العادية قبل إصابتي بإعتام العين.

ثمّ بحثتُ عن شيء أصعب قليلا، ووجدت كتابا تمهيديا للأطفال في خزانة الكتب، فعزمت على قراءته .بدأتُ بالصفحة الأولى التي ظهرت عليها صورة كثيرة الألوان لصبي وفتاتين صغيرتين وكلب، وقف الثلاثة بجانب سياج، بدت العملية واعدة، وشرعتُ في القراءة :انظر إليه وهو يذهب

قال ديك" :انظر"

"انظر إليه.

انظر إليه وهو يذهب إلى أعلى."

لم يكن ذلك سيئا للغاية، قلبت الصفحة :قالت جاين" :آه، انظر!"

"انظر إليه وهو يذهب.

"انظر إليه وهو يذهب إلى أعلى..."

قالت سالي" :إلى أعلى، إلى أعلى"،

"يذهب إلى أعلى، إلى أعلى، إلى أعلى."

كنت في غاية السعادة كوني أنهيتُ هاتين الصفحتين .كانت الحروف أصغر من حروف" موذر غوز"، وأحسنتُ قراءتها بالمثل .أحضرت لي آنّا كتبا أخرى من قسم الناشئة في المكتبة، فقرأتها.

وفي أحد الأيام عرضت عليّ كتابا انتقته من الرفّ المخصّص للفتيان والفتيات الأكبر سنّا، كان كتاب Book of Marvels لريتشارد هاليبرتون .ومع أنّ الحروف لم تكن بمثل جودة الحروف الأخرى، إلا أنها كانت واضحة تماما ووجدتُ أنّي أستطيع قراءتها، واستمتعتُ بالكتاب لما احتواه من معلومات .كانت المطالعة الآن قد غدَت أكثر من محض التدرّب على فكّ رموز الحروف والكلمات.

قالت آنّا" :ربّما أنت جاهزة لقراءة حروف أصغر."

لكنّ الحروف الأصغر بدت ضبابية، ولذلك اضطررت للعودة إلى كتبٍ ذي كلمات كبيرة .قرأت هذه الكتب كلّ يوم طالما كان في استطاعتي القراءة من دون أن أُجهد عيني .ازدادت عيني قوّة، وفي النهاية تمكّنت من مواصلة المطالعة ساعات من دون أن أسبب لعيني إرهاقا على الإطلاق .ثمّ كرّرت محاولة قراءة الحروف الصغيرة .وتمكنت حينئذٍ من قراءتها، لكنّي وجدت نفسي مضطرة إلى العودة لبرنامجي القديم في قراءة جملة أو اثنتين فقط في الجلسة الواحدة.

لكن ضاق صدري في بعض الأحيان لبطء التقدّم الذي أحرزه.

أنّبتني السيدة سيم قائلة" :ماذا تتوقّعين، لم يمضِ على خروجك من المستشفى ثلاثة شهور."

قلتُ متذمّرة" :هذا صحيح، لكن لا يمكن لي أن أستمرّ في قراءة كتب الأطفال طوال حياتي."

قالت" :حتى لو لم تتمكّني من قراءة كتاب واحد مدة سنة، فستكونين قد قرأتِ ما يفوق المتوقّع .كم من الناس، حتى ممن يتمتعون ببصر جيّد، تعتقدين أنّهم يستطيعون مواصلة المطالعة على النحو الذي كنتِ تقومين به طوال حياتك؟."

إنّ طريقة السيدة سيم القاسية في الكلام جعلتني أتوقّف وأتأمّل .ربّما كنتُ أتوقّع الكثير .قلت في نفسي، أنّ هناك شيء يسمى المخاطرة غير الضرورية، لكنّني عرفتُ أنّني لن أتمكّن من منع نفسي من تجاوز الحدّ إلى أن أُخرج نفسي من حالة العجز التي علقتُ فيها فجأة.

رأيت الدكتور بنيديكت مجدّدا في شهر آذار، فحص عيني بتأنّ، لكنّه لم يُدلِ بأيّ تعليق، كما إنّه لم يُرسلني إلى مكتب الدكتور برانْغين ليفحص عيني من أجل تحديد نظّارة دائمة، وهو الأمر الذي كنت متأكّدة من حصوله .سألتُ نفسي :هل بدا متوتّرا في أسلوبه، أم أنّها مخيّلتي المفرطة النشاط تستأنف نشاطها؟ وتساءلت عن إحتمالية أنْ لا يكون مسرورا بدرجة تحسّن عيني.

سألته وقلبي يخفق بشدّة إلى حدّ أنّني سمعت دقاته تحت فستاني الأزرق المحبوك" :هل هناك خطب ما؟."

أجاب" :لا."

لكنّني لم أقْنَع بذلك، بيد أنّه لم يكن لدى الدكتور بنيديكت شيء يقوله بشأن عيني، مع أنّ وجهه بقي عابسا.

سألني بعد برهة" :هل أتيتِ بمفردك؟."

"بالتأكيد، ولِمَ لا؟."

"هل تستطيعين القراءة الآن؟."

أجبته على الفور" :أجل"، لكنّني تغاضيت عن إخباره بالألم الذي شعرتُ به مؤخّرا أثناء قيامي بذلك.

تابع توجيه الأسئلة قائلا" :وماذا عن قراءة خطِّكِ؟."

"بالتأكيد، هل تستطيع قراءتَه؟."

ضحك فور سماعه سؤالي، فكلّ من هو على معرفة بخطّي سيفهم السبب.

أجاب" :أجل أستطيع قراءته."

ثمّ طلب مني العودة إلى العيادة في أيار.

بقيت مستيقظة لليالٍ عدّة، قلقة حيال زيارتي هذه للدكتور بنيديكت .هل سيحدث شيء فظيع لعيني مجدّدا؟ كان أسلوبه غريبا بالتأكيد، والأسوأ من ذلك أنّي كنت متأكّدة من إنّني كنتُ ألاحظ بأنّ بصري الآن أضعف مما كان عليه سابقا.

بعد الخضوع لفحص في الغرفة المعتمة في أيار أخبرني الدكتور بنيديكت أنّ المشكلات عاودت عيني مجدّدا، كان هناك غشاء آخر ينمو فوقها ووصفه بأنّه إعتام ثانوي .لم يكن بمثل سوء الأوّل، وكان شائعا في حالات الإعتام العادية .وفي حالة عيني كان هذا الأمر متوقّعا تماما لأنّ العملية الأولى، بدافع الضرورة، كانت ذا طبيعة وقائية.

قلت، وأنا أكاد أبكي" :كان لا بدّ لهذا أنْ يحدث لي."

لكنّه واساني بالقول» :آه، لكنّ الأسوأ قد إنقضى .فكّري في ما ستعنيه لكِ العمليةُ الثانية .بما أنّكِ تقرأين بشكل مريح الآن فستكونين قادرة على قراءة أيّ خطّ في نهاية المطاف .هذا إذا سارت الأمور على ما يرام؛ والخطر هذه المرّة ليس بنفس خطورة المرة السابقة.«

زاد سمك الغشاوة التي على عيني مع كلّ يوم، وبدأت أتوخّى الحذر من جديد وأنا أخطو خطواتي .صرتُ أواجه صعوبات متزايدة في القراءة .لم أعد أرى غير رؤوس الحروف في الصفحات المطبوعة، وهذه أيضا صارت تختفي بالتدريج .بدت الصفحات كأنها مغطاة، بشكلٍ عشوائيّ، بكتل قطنية .وفي آخر المطاف، كلّ كلمة كنتُ أقرأها كانت تعني معاناة، لذا توقّفت في النهاية كليّا عن المحاولة.

التوتّر الناجم عن عدم القدرة على الإبصار أثّر في أعصابي .صرتُ فائقة التحسّس إزاء الضجيج، وكنتُ مكتئبة معظم الوقت .كانت القدرة على الإبصار أمرا رائعا، لكن راعني هذا الإعتام الذي أصاب بصري مجدّدا، وهو إعتام مؤقت كما كان يعد الدكتور بنيديكت أن سيكون كذلك .كان القلقُ من المجازفة، التي عليّ خوضها في كلّ مرّة يحصل فيها شيء لعيني، شديدَ الوطأة عليّ.

من الواضح أنّي كنتُ عاقلة في التعاطي مع أيّ موضوع في العالم سوى موضوع واحد .وهو موضوع عينَيّ .إذا ألمّ بهما أيّ شيء، أشعر بخوف ممزوج باليأس.

غدا المجيء إلى مستشفى ورال مجدّدا أشبه بالمجيء إلى البيت .لم يكن هناك شكّ هذهِ المرّة في إنتسابي إلى هذا المكان .تعرّف عليّ الشابّ الجالس خلف المنضدة . واستقبلتني السيدة وايتينغ والسيدة دوناهيو، المشرفتان على الطابق الرابع، بالأحضان .بدا كلّ شيء في المكان مألوفا على نحو مريح.

عاملتني الممرّضة في غرفة العمليات كما لو أنّني محنّكة في هذه اللعبة .وبعد أن تمدّدت على الطاولة ساعدتني على أنْ أندسّ في رداء العمليات.

لم أشعر بتوتّر على الإطلاق .لقد كان الاسترخاء على طاولة العمليات ووضع الإبهامين تحت بدني، كي لا تتخدّر يداي، أشبه بالعودة إلى وظيفتي القديمة.

وفيما تمدّدت هناك في انتظار البدء بالعملية، أحسست كما لو أنّ دبوس شعر ينخز رأسي .لم يؤلمني حقيقة لكنّه كان يزعجني .وما إنْ قمت بحركة فجائية لأرفع نفسي في وضعية الجلوس، حتى تنبّهت إلى أنّ كلّ شيء كان مهيئا للبدء بالجراحة.

»واو«!، صاح أحدهم، في الواقع صاح عدد من الأشخاص بصوت واحد.

قلت" :كنت أريد أن أصحّح موضع دبّوس شعري، إنّه ينخزني."

"يمكنكِ تحمّله قليلا، أليس كذلك؟."

كان الدكتور بنيديكت الذي سألني هذا السؤال.

"أستطيع تحمّله بكلّ تأكيد."

تمدّدت على الطاولة من جديد.

لكنّني ارتعشت بهجة مما قد رأيت .رأيت شخصا أبيض طويل القامة، يتوهج من خوذته الثلجية البياض نور ساطع مثل صوَر مشعل الحكمة المتّقد .بدا كما لو أنّني شاهدت بالدر الذي، بحسب الأسطورة النرويجية القديمة، يشعّ بالحبّ والنور اللذين يبعثان البهجة في نفوس البشر الفانين في عتمة دائرة القطب الشمالي.

لم تستغرق العملية غير دقائق معدودات .بدأتْ بمجرد فحص لمعرفة ما إذا كان هناك أيّ ألم في العين عند تلامسُها مع الأدواتُ الجراحية .لمسة من الدكتور بنيديكت .ترطيب .الضمّادة .ظلام تام مرّة أخرى .وهذا كان كلّ شيء.

وعدني الدكتور بنيديكت عندما كانوا يضعونني على العربة" :إنّها آخر عملية أجريها لكِ أيتها السيدة."

أعادوني بالعربة إلى غرفتي، وانتهت العملية التي أقلقتني وأخافتني كثيرا.

وفي اليوم التالي عند خروجي من المستشفى، علمتُ أنّها كانت عملية ناجحة تماما .

2شخصية في إحدى روايات السير وولتر سكوت

الفصل الحادي عشر

لم أعد عمياء.

كي أكون دقيقة، صار بمقدوري أنْ أرى أقوى بمقدار أربعين مرّة مما كنت عليه في أيّ يومٍ من الأيام طيلة حياتي.

بالإضافة إلى النظّارتين اللتين وصفهما لي الدكتور برنْغين – الأولى للمسافات البعيدة، والثانية للمسافات القريبة – تزوّدتُ، عملا باقتراح الدكتور بنيديكت، بعدّة نظارات للقراءة لاستخدامها في المناسبات الخاصّة .أكبر هذه النظارات حجما تغطّي صفحة كتاب كاملة عندما أحمله بالشكل المناسب، وكان هذا يمكنني من أنْ أقرأ بشكلٍ أسرع ويقلّل من الإجهاد على عيني .الثانية كانت أصغر حجما ويمكن استخدامها في قراءة فقرات طُبعت بحروف صغيرة جدا .أصغر هذه النظارات وأقواها كانت تعينني على قراءة الخرائط والمخطّطات البيانية والجداول الزمنية وأشياء من هذا القبيل.

والآن حان الوقت لأفكّر جدّيا فيما أنوي القيام به بعدما وهبتُ كلّ حدّة البصر هذه .أرغبُ في مواصلة كتاباتي، وأتخذ منها مهنة .ما هو السبيل لأكون نافعة في العالم من جديد؟ وما الوسيلة التي سأكسب بوساطتها لقمة عيشي مرّة أخرى؟

لم يساور ذهني أدنى شكّ فيما أرغب في فعله .أردت المضيّ في الكتابة، وأن أتخذ منها مهنة .لكنّ السؤال الواجب أخذه نظر الإعتبار :هل أتمتّع بالموهبة الكافية لخوض هذا المضمار؟ وهل لديّ حقا، وهذه هي المسألة الموضوعة على المحك الآن، أيّ شيء لأقوله ويكون ذا فائدةٍ حقيقيةٍ للناس؟

حسنا، هناك طريقة واحدة لأعرف ذلك، ألا وهي التجربة.

بعد أن صرتُ أتمتّع ببصر كافٍ وبقوة كافية لأعمل عدتُ إلى روايتي التي انكببت عليها من قبل في نيوجرسي .كنتُ قد طلبت طباعتها في حزيران، وبعد أن أقمنا، أنا وآنّا والسيدة سيم، حفلة تشجيعية وشربنا نخب نجاحها، كنتُ قد أرسلتها إلى ناشرها الأول .ردّها الناشر ككثير من الناشرين الآخرين .لكنّني لم أشعر بالإحباط لأنّ اثنين من الناشرين تكبّدا مشقّة كتابة رسائل ودّية وأرفقاها مع قصاصتيّ رفضهما، وقد أحسستُ بأنّ شيئا ما في الكتاب أعجبهما.

وخلال زيارتي لشقيقتي إستِر في مينيبوليس، كنتُ قد حاولت أنْ أجرّب مهارتي في كتابة قصص قصيرة .لكنّي كنتُ في حيرةٍ من أمري نوعا ما، وأدركتُ بأنّه لو تسنىّ لي انْ أتلقّى توجيها من خبير بشأن كتابتي، لعرفتُ، بصورةٍ أفضل، مستواي.

سألتني إحدى صديقاتي ذات يوم": لِمَ لا تسألين مارشيت شيوت أنْ تُلقي نظرة على شيءٍ من كتاباتك؟ إنّها ناقدة رائعة."

رجوتُ صديقتي أن تُخبرني عن هذه الناقدة .هل تظنّ صديقتي أنّ هذه الناقدة ستتكلّف عناء قراءة أعمالي وأنا محض مبتدئة؟

قالت صديقتي، بشكلٍ متحمّس": لا ضير في عرض الأمر عليها .فمساعدتها لكِ لا تقتصر على رأيها الأدبي، لأنّ لديها موقفا إيجابيا من الحياة يجعلكِ تُظهرين أفضل ما عندكِ على نحوٍ يعجز عن فعله ناقد عادي."

تمكّنتُ من الاتّصال بمارشيت شيوت ووافقت على معاينة اثنتين من قصصي الصغيرة .لم أكن شديدة الرضا بهما لأنّني كنتُ أدرك بأنّي لم أمنحهما الوقت

الكافي، لكنّهما ستكونان بداية على الأقلّ .كما إنّها ستتمكن من أنْ تخرج منهما بفكرة حيال أسلوبي في الكتابة مهما كانتا سيّئتين.

استقبلتني شابّة ترتدي فستانا صوفيا في قاعة مبنى جمعية الشابّات المسيحيات، وهو المكان الذي كان لديّ فيه موعد للقاء ناقدتي الجديدة .كانت هزيلة وداكنة البشرة، لكنّي وجدتها فاتنة.

قالت لي بصوت موسيقي خفيض" :أنا مارشيت شيوت، وأعتقد بأنّكِ الآنسة دال."

بعد أن جلسنا على أريكة، بدأت بإطلاعي على رأيها في قصّتيّ القصيرتين .عرفتُ أنّها لم تجد فيهما ما يسترعي إعجابا خاصّا، لكنّ صراحتها الدمِثة جعلتني أثق بها على الفور.

وقبل أن أستوعب ما كان يجري، كنت أفيض عليها في قصّتي .أخبرتها عن معاناتي من العمى وتأثيره في حياتي .كانت غريبة بالنسبة لي، لكنّني بُحتُ لها بمشاعر تكمنُ عميقا في قلبي – شيءٌ لم أفعله أبدا في السابق .أنا، من كنتُ أكره الحديث عن عينَي أمام شقيقاتي وأصدقاء العمر.

أمضينا الصباح كلّه في الحديث .نهضتُ لأذهب.

لكنّ مارشيت شيوت إستبقتني.

"لِمَ لا تكتبين قصّة حياتكِ؟"، سألتني.

شعرت بالخجل على الفور .كانَت حماقة منّي أنْ أتحدّث بهذا القدر من الصراحة.

قلتُ" :آه، لا، آسفة لإزعاجكِ، الناس لا يأبهون لسماع مشكلات الآخرين، إنّهم لا يريدون الاستماع إلى الشاكين."

ابتسمت لي ابتسامة مشجِّعة.

"لكنكّ بالذات لست من هذا النوع، ولهذا السبب اقترحتُ عليكِ أن تكتبي عن نفسكِ".

نهضتُ وأنا أفكّر، بعيدا في ذاكرتي، إستحضرتُ صورة معلّمتي الرمادية الشعر الآنسة كاكس .المعلمة التي كانت تُذكّرني بالملكة فكتوريا، والتي أخبرت بقيّة التلاميذ في صفّي، يوم كنتُ غائبة عن المدرسة، عن مدى اعتزازها بي كوني أبذل جهودا جبّارة لأتغلّب على مشكلة عينَيّ.

وتذكّرتُ ما قالتْه لي ماريا سانفورد في جامعة مينيسوتا عندما باشرتُ العمل في التعليم" :كلّنا لدينا إعاقات."

"فكّري في الخير الذي تقدّمينه في حالة رويت قصّتكِ «، كانت مارشيت شيوت تقول،» الناس ذوي الإعاقات سيتحلّون بالشجاعة عبر أنموذجك وسيتفكرون كيف واصلت الآنسة دال مسيرتها رغم هاتين العينين .وسيقول الواحد منهم، أظنّ أنّني قادرٌ على ذلك أيضا، برغم مشكلاتي، إذا تعاملتُ مع الأمر كما تعاملتْ هي.«

لكنّني بقيت متردّدة.

"كما أنّكِ ستساعدين الآخرين أيضا، ستُقْنعهم قصّتكِ بأنّ المرء يمكن أن يكون نافعا وسعيدا للغاية، حتى ولو كان يعاني من إعاقة شديدة، وأنّ أعظم دماثة يمكن إظهارها له هي في معاملته كأيّ شخص آخر تماما".

قلتُ أخيرا وأنا أمسك بيد مارشيت شيوت" :سأفعل ذلك .وأعرفُ الآن ما الذي سيُبقيني منشغلة في منزل خالي إينوش والعمة إليزابيث في توين فالي هذا الشتاء."

ثم استفضنا بعض الشيء في الحديث عن الكتاب.

سألتها" :هل ستكونين مستعدّة لمساعدتي في كتابته، وإبداء ملاحظاتكِ النقدية لي حوله في أثناء ذلك؟."

أجابت" :سأكون مسرورة بذلك، سأذهب إلى كاليفورنيا، لكن يمكنكِ بسهولة إرسال فصوله بواسطة البريد."

إبتعدتُ وأنا ممتنّة وأكثر سعادة ممّا كنتُ عليه منذ شهور .كان لديّ عمل عليّ إنجازه الآن.

أنا أقيم الآن في توين فالي مرّة أخرى مع خالي إينوش والعمة إليزابيث، وها قد عدنا إلى حيث كنّا قبل ثمانٍ وعشرين سنة .كنتُ في حينها أبدأ حياة مهنية جديدة، كما أفعل الآن.

يقوم خالي إينوش والعمة إليزابيث بتشجيعي الآن على الإيمان بقدرتي على إنجاز ما عزمتُ على القيام به، كما شجّعاني آنذاك .لا سيّما العمة إليزابيث، لديها

أنجع الطرق لحملي على الاعتقاد بأنّي أمثّل شيئا، مع أنّني في أعماق قلبي أميل إلى العكس .غير أنّ الأمر المدهش هو ألمعيّتها في خداعي بأنّني أصبحت تقريبا ما كانت تدّعي بأنّي أمثّله.

إنّها تتصرّف الآن كما لو أنّ طموحي بأن أصبح كاتبة هو أكثر الأمور طبيعية في العالم .وبعد أن أقرأ عليها بصوت عالٍ فصلا من قصّتي تقول بأنّه مُدهش . ثناؤها، وإن كنتُ لا أستحقّه، يمنحني الثقة بالمُضيّ في مسيرتي، وبدأتُ أعتقد أنّه بإمكاني العمل من جديد.

أقومُ بغسلِ الأطباق في المطبخ .ويمكنني أن أرى عبر النافذة سربا من العصافير تأوي إلى داخل بيت الطيور الذي ثُبّت على وتد في الفناء الخلفي .لم أكن قادرة أبدا على رؤية بيت العصافير بوضوح قبل هذا الشتاء .أنا أعرف الآن أنّه مطليّ بلون أخضر لامع، وفيه أبواب كثيرة .تقول العمة إليزابيث إنّه مسكن يكفي لستّة عشر أسرة من العصافير .يمكنني رؤية حركات الأجنحة الرمادية-السوداء للعصافير وهي تطير وسط الثلج الكثيف المتساقط.

أعود إلى غسل الأطباق بعد أن نسيتُها بسبب استغراقي في مراقبة العصافير.

يدخل خالي إينوش الغرفة، وأنبري لسماع ما يقول .أعرف أنّه كان يراقبني وأنا أستمتع بمشاهدة العصافير .عيناه تشعّان بنفس ذلك النوع من التشجيع والحبّ الذي اعتدتُ تلمّسه في عينَيّ أمّي عندما كانت تحاول مساعدتي على القيام بأشياء.

بدأت ألعب برغوة الصابون في حوض غسيل الصحون، أغمس يدي فيها، وألاحق الفقاعات الصغيرة فألتقطها .أحملها أمام الضوء وفي كلٍّ منها أشاهد الألوان المدهشة لأقواس قزح الصغيرة المنمنمة فيها.

وأهمس قائلة" :يا ربَّنا الذي في السموات، الشكر لك، الشكر لك."

انتهت

بين يدي الكتاب

وُلِدَت بعين واحدة مليئة بالندبات الغائرة، فكانت شبه ضريرة لمدة نصف قرن من عمرها، ولكي تتمكن من الرؤية طوال تلك السنين كان عليها أن تستخدم عينها اليسرى فتحرِفَها إلى أقصى اليسار حيث هناك فتحة صغيرة غائرة في جفنها يمكن للضوء أن يمر عبرها، إلا أنها على الرغم من كل هذا الألم رفضت أن تكون محل شفقة الآخرين وأن ينظروا إليها على أنها معاقة أو أدنى من غيرها، ولذلك كانت تصر على المشاركة في الأنشطة الحياتية كلها، وكانت تنجح في عمل كل شيء غالبا.

عندما كانت طفلة كانت تصر على أن تلعب" الحجلة "مع الأطفال، ولأنها لم تكن تستطيع رؤية العلامات على الأرض، فقد كانت تذهب إلى ساحة اللعب بعد عودة الأطفال إلى منازلهم فتلتصق بأرضية الملعب وتزحف على امتداده لتتمكن من رؤية العلامات التي وضعوها في أثناء لعبهم حتى حفظتها جميعا، وسرعان ما تمكنت من مشاركتهم لتصبح خبيرة في اللعبة تتفوق عليهم في بعض المرات.

كانت تقرأ الكتب وتدرسها في المنزل، فتلصق الصفحات بوجهها إلى درجة أن رموش عينها الوحيدة كانت تحتك بسطح الورقة حتى تتمكن من رؤية الحروف، وبالرغم من معارضة المعلمين واعتقادهم أن إعاقتها أكبر من إمكانية نجاحها في مراحل التعليم النظامي، إلا أنها تمكنت من إكمال مراحل دراستها جميعها، فدخلت الجامعة وحصلت على البكالوريوس والماجستير، ثم التحقت بسلك

التدريس وصارت أستاذة جامعية في الصحافة والأدب، تلقي محاضراتها في الجامعة والنوادي الثقافية، وتدلي بأحاديثها في الإذاعة عن الأدب والكتب.

كتبت يوما قائلة" :كان في ذهني دائما شعورٌ كامنٌ بالخوف من العمى التام؛ وللتغلب على هذا كنت أعيش دائما حياة مرحة صافية مبتهجة في كل لحظة."

وعندما بلغتْ الثانية والخمسين كان الطب قد تطور بحيث تمكن الأطباء من مساعدتها شيئا ما، حيث أجريت لها جراحة في عينها الوحيدة وصار بإمكانها أن ترى أفضل بمقدار أربعين مرة عن حالها طوال سنواتها الخمسين الماضية، وعندئذ انكشف أمامها عالمٌ مثيرٌ من الجمال والروعة والبهجة التي لم تعرفها من ذي قبل .صارت تجد حتى في غسيل الأطباق شيئا مبهرا مثيرا، فكتبت تقول في كتابها« أردت أن أبصر" :«بدأت ألعب برغوة الصابون في حوض غسيل الصحون، وألاحق الفقاعات الصغيرة فألتقطها وأحملها أمام الضوء كي أشاهد الألوان المدهشة لأقواس قزح الصغيرة فيها ... "وختمت قائلة" :يا ربَّنا الذي في السماء، الشكر لك، الشكر لك."

توفيت بورغيلد دال عن أربع وتسعين عاما، تاركة خلفها عشرات الآلاف من الأشخاص الذي تأثروا بمسيرة حياتها وصمودها ونظرتها المتفائلة لهذه الدنيا . رحلت من بعد أن خلدت ذكراها بتركة أدبية بلغت سبعة عشر كتابا، جاء آخرها تحت عنوان" :سعيدة طوال حياتي!"

سيرة حياة مبهرة وفيها كثير من العبر، فهلا تذكر الواحد منّا أن يشكر ربه على كل شيء قد منحه إياه بالفعل؟ هلا تذكر الواحد منا أن يحمد الله على نعمة البصر

وعلى نعمة التمكن من مشاهدة كل تلك الأشياء الرائعة التي تحيط به طوال الوقت في هذا العالم المليء بالجمال؟

لعلي لا أبالغ لو قلت بأن تسعين في المئة من حياة المرء تسير غالبا على ما يرام، وعشرة في المئة هي المتعثرة، ومع ذلك فإنه يصرف عقله وتفكيره ومزاجه ونفسه وسائر روحه في الانشغال بهذه العشرة في المئة متناسيا ذلك الجزء الجميل الأعظم من حياته.

يا صاحبي: دع عنك القلق واستمتع بالحياة، ولا تشعر بالإحباط أبدا لأنك لا تملك حذاء، فهناك العشرات ممن لا يمتلكون قدمين!

بقلم :ساجد متعب العبدلي

مقالة نشرت في صحيفة الجريدة الكويتية

في ديسمبر ٢٠١٣م